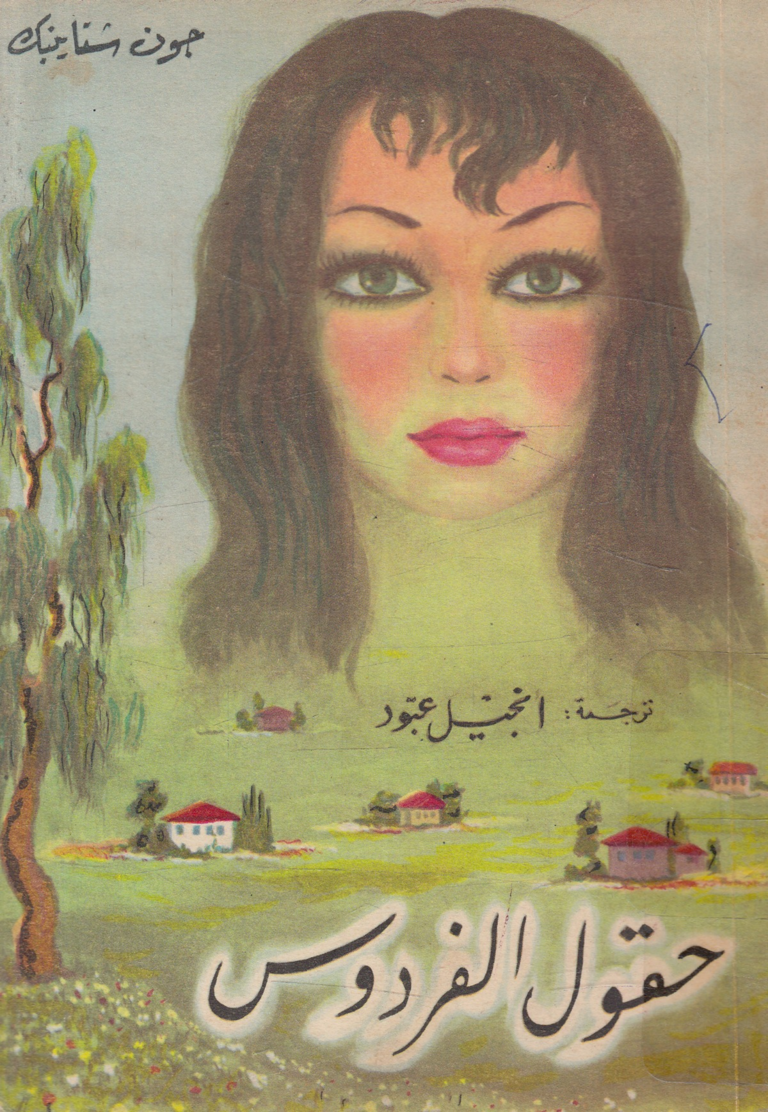

جون شتاينبك
ترجمة: انجيل عبود
حقول الفردوس



حُقول الفِرْدَوسْ

جون شتاينبك

حقول الفردوس

ترجمة: انجيل عبود

مراجعة: مروان الجابري

الناشر
المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر
ص.ب ٣٥١٥ - بيروت

المسهمون في اخراج هذا الكتاب

جون شتاينبك : من كبار كتاب القصة الاميركيين . ولد في ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٠٢ في مدينة ساليناس بكاليفورنيا ، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها ثم قضى اربع سنوات في ستانفورد . وكان اهتمامه الاول بالعلوم وخاصة علم الحياة (البيولوجيا) . وقبل ان يحترف الكتابة اشتغل بمهن عدة ، وفي سنة ١٩٣٩ اصدر كتابه « عناقيد الغضب » . وقد نال عليه جائزة البولتزر لسنة ١٩٣٩ . وقد نشر كتابه « في مغيب القمر » سنة ١٩٤٢ . ومن كتبه « كأس الذهب » (١٩٢٩) و« الفئران والرجال » (١٩٣٧) و« الوادي الممتد » (١٩٣٨) . وقد اخذ عدد كبير من قصصه طريقه الى هوليود ولاقى نجاحاً كبيراً .

انجيل عبود : مترجمة الكتاب . تلقت دراستها الثانوية في كلية البنات الاهلية وفي كلية بيروت للبنات .

وقـــد نشرت عدداً من القصص تحت اسم مستعار هو « سميرة حسان » . وصدرت لها اول مجموعة قصصية سنة ١٩٤٩ باسم « شهداء » صورت فيها حالة اللاجيء الفلسطيني .

وترجمت عدداً من القصص منها « الورقة الاخيرة » تأليف او . هنري و « رسالة امرأة مجهولة » لستيفان زفايغ و « اعترافات منتصف الليل » لجورج دوهاميل .

انشأت المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر اواخر عام ١٩٥٥ ، وهي اول ناشرة عربية .

مروان جابري : مراجع الكتاب . سوري المنشأ . احترف الصحافة ومارس عـــدداً من المسؤوليات الصحفية ، وترجم عـدداً من الكتب منها « الطبقة الجديدة » لميلوفان دجيـــلاس و « الدوامة » لبول سارتر و « حرب صليبية في اوروبة » للرئيس دوايت ايزنهـــاور (نشر تباعاً في جريدة الف باء الدمشقية) . و « هكذا تكلم نهرو » و « عـــاصمة الدنيا وقصص اخرى » لارنست همنغوي وغير ذلك .

يعمل الآن حالياً منصب مدير مكتب المعلومات والملحق الصحفي المساعد بالمفوضية الهندية في بيروت .

١

حوالي عام ١٧٧٦ ، خلال تشييد بنـاء ارسالية « كارميلو » في مدينة التا بولاية كاليفورنيا ، ارتد عن الدين المسيحي ذات ليلة عشرون عاملا من الهنود الحمر المتنصرين حديثاً . . فعندما اصبح الصباح كانوا قـــد هجروا اكواخهم . وعدا ان هذا الانشقاق البسيط يؤلف سابقة سيئة فقـد شل حركة العمل في مقالع الطين حيث كانوا يسكبون قوالب الطوب « القرميد » .

وبعد اجتماع قصير بين السلطـات

الدينية والمدنية ، توجه عريف أسباني مع شرذمة من الفرسان لارجاع اولئك الشاردين الى حضن امهم الكنيسة . وقد قام الجنود عبر وادي الكرمل وما بعده من الجبال برحلة شاقة مربكة فلقد برهن المنشقون الهاربون على انهم اساتذة ذوو مكر جهنمي في اخفاء آثار سيرهم .

وهكذا فقد مر اسبوع قبل أن يعثر الجنود عليهم . . . على انهم اكتشفوهم اخيراً في قعر واد اخضر ينساب فيه ينبوع وهم يقومون بعمل جد مشين فقد كان الكفرة العشرون يغطون في نوم عميق .

وقد قبض عليهم الجنود الحانقون ، ورغم صراخهم كبلوهم صفاً واحداً في سلسلة طويلة وعندئذ قفل الجنود مصطحبين الاسرى عائدين الى وادي الكرمل ليتيحوا لهؤلاء المتنصرين حديثاً فرصة للندامة والتكفير في مقالع الطين .

وفي عصر اليوم التالي قفز غزال صغير امام الجنود واختفى عن الانظار خلف قمة صغيرة فترك العريف طابوره واندفع يطارده على حصانه .

وقد تعثر جواده الضخم وهو يصعد السفح الشديد الانحدار بينما كانت مخالب اغصان اشجار المانزانيتا تخدش وجه العريف . ولكنه استمر في ملاحقة طريدته لمشانه . وبعد دقائق وصل الى القمة فوقف مبهور الانفاس دهشاً بما رأى - فقد كان هناك واد طويل فسيح تكسوه المراعي الخضراء وقد انتشر فيها قطيع من الغزلان يرعى في ظلال اشـــجار السنديان النامية في هذا

الوادي الظليل الذي احتضنته التلال رادة عنه الضباب والريح.

وشعر العريف النظامي بالضعف أمام هذا الجمال الرائق، بحيث أنه،وهو الذي جلد الظهور السمراء حتى تمزقت، وحتى أنه،وهو الرجل المنتمي الى جيل من الرجولة المفترسة التي كانت تبني لكاليفورنيا عرقاً انسانياً جديداً، هذا الوحش الملتحي، حامل نبراس المدنية، نزل عن جواده رافعاً خوذته باحترام وهو يهمس:

ـ أيتها الام المقدسة ... ها هي حقول الفردوس الخضراء التي يقودنا المولى اليها!

أما وقد أصبحت ذريته اليوم شبه بيضاء فلا يسعنا الآن الا التكهن بوصف قدسية شعوره عند اكتشافه هذا الوادي، ولكن الاسم الذي اطلقه على هذا الوادي الرائع الممتد بين التلال ما زال باقياً فهو معروف حتى هـــذا اليوم بحقول الفردوس.

وبفعل الصدفة الرائعة لم تقع هذه البقعة من الارض تحت قانون الاقطاع فلم يتملكها أي نبيل اسباني بواسطة اعارته ماله او زوجته. وبقيت هـذه البقعة مـــدة طويلة منسية بين التلال المحيطة بها. كان العريف الاسباني ـ مكتشفها ـ ينوي العودة اليها دوما فهو، كغيره من الرجال العتاة، كان يحلم، بشوق عاطفي، بفترة سلام قبل موته يتمتع بها في بيت قرميدي يشيد قرب الساقية والماشية تحك خياشيمها على جدرانه ليلا.

لقد اصيب العريف بمرض الزهري من امرأة هندية ...

وعندما بدأ وجهه يتأكل ، حجزه اصدقاء مخلصون في زريبة قديمة ليمنعوا انتقال العدوى منه . . . وهناك مات بسلام ، فالزهري رغم كرب منظره ليس صديقاً رديئاً لمضيفه .

وبعد زمن طويل نزحت عـــدة عائلات لتمتلك حقول الفردوس بوضع اليد فبنت الاسيجة وزرعت اشجار الفواكه ولما لم يكن للارض مالك فقد تخاصمت فيما بينهـــا طويلاً على ملكية الارض المشاع ، وبعد مرور مئة سنة على ذلك كان هنالك عشرون اسرة تقطن عشرين مزرعة صغيرة في حقول الفردوس حيث قام قرب وسط الوادي مخزن كبير ودائرة بريد بينما قامت على بعـد نصف ميل قرب الجدول مدرسة بلاها الزمان وكثرت الكتابات على جدرانها .

واخيراً عاشت هذه العائلات برغد وسلام فقد كانت الارض خصبة لا تتطلب مجهوداً كبيراً ، وكانت فواكه بساتينها من احسن ما ينتج في كاليفورنيا الوسطى .



كانت مزرعة باتل ملعونة في نظر سـكان حقول الفردوس بينما كانت مسكونة بالجن والعفـاريت في نظر اطفالهم . ومع أن المزرعة كانت أرضاً طيبة خصبة وسهلة الري . فان احداً ما من سكان الوادي لم يطمع بها كما لم يرض احد بأن يقطن في بيتها ، ذلك ان البيوت والاراضي التي تهجر في النهاية بعد ان تكون موضع الحب والرعاية والجهد ، تبدو دائماً متشحة بالشؤم والكآبة ، أما الاشجار التي تنمو حول البيوت المهجورة فتكون

فتكون أشجاراً قاتمة توحي اشكال الظلال التي تلقيها على الارض باشياء كثيرة..

كان قد مضى على المزرعة الخاوية خمسة اعوام فنما العوسج الطفيلي بحيوية متحررة من الخوف من الفأس حتى أصبح بحجم الشجيرات اما في البستان فقد كثرت العقد في اشجار الفاكهة التي تكاثفت وتشابكت وقويت وزادت ثمارهـــا في الكمية وتضاءلت في الحجم والنوعية . ونما العليق قرب جذورها فمنع عنها منافس الهواء .

كان البيت بحد ذاته ، مربع الشكل ، جيد البناء مؤلفاً من طابقين . وقد كان جليل المنظر جميله عندما كان الدهان الابيض يكسوه ، ولكن التاريخ الفريد الذي اتخذه مسرحاً له ترك عليه مسحة من الوحدة التي لا تطاق ، فقد غطت الاعشاب اخشاب الشرفات وأصبحت الجدران رمادية اللون بتأثير عامل الطقس. وكان الاولاد، ضباط الزمن ومساعدوه في حربه التدميرية ضد اعمال الانسان ، قد حطموا كل النوافذ وحملوا كل المنقولات الممكنة ، فالفتيان عادة يظنون ان كل الاشياء المنقولة التي ليس هنالك من مالك ظاهر لها ، يمكن ، اذا ما اخذوها معهم الى بيوتهم ، ان تستخدم استخداماً مجدياً .

لقد نهب الفتيان البيت وملأوا البئر بكل أنواع النفايات . وذات مرة احرقوا ، دون قصد ، وفيما كانوا يدخنون التبغ الحقيقي في الزريبة ، مخزن المحصولات . ونسب الجميع الحريق الى جوابي الآفاق .

لم يكن موقع المزرعة المهجورة بعيدا عن وسط الوادي الضيق وكانت محاطة من الجانبين باحسن المزارع المزدهرة في حقول الفردوس . كانت مهما معشبا بين ارض أحسنت يــد الانسان زرعها والعناية بها . وقـــد اعتبرها سكان الوادي بؤرة شر غريبة اذ حاق بها حـادث فظيـع كما ان لغزا معمياً احاط بها .

عاش جيلان من آل باتل في المزرعة فقد اتى جورج باتل الى الغرب عام ١٨٦٣ من ولاية نيويورك العليا وعندما وصلها كان لا يزال شابا في سن الخدمة العسكرية . وكانت والدته قد قدمت له المال ليتمكن مـــن شراء المزرعة وليبني البيت المربع الشكل فيها . وعندمـــا انتهى جورج باتل من بناء البيت ارسل يدعو والدته لتعيش معه. ولما حاولت اللحاق به، وكانت امرأة مسنة تظن ان المسافات تنتهي على بعد عشرة اميال من قريتها رأت في طريقها اماكن خرافية، رأت مدينة نيويورك وريو دهجانيرو وبونس ايرس . وتوفيت على مبعدة قصيرة من باتاغونيا فدفنها مسؤولو المركب في قاع الاوقيانوس ضمن كيس سميك عوضا عن الكفن بعد ان ربطوا قدميها بحلقة من سلاسل المرساة. وكانت المرأة المسكينة ترغب في ان تدفن في مقبرة القرية المزدحمة .

وبدأ جورج باتل يبحث عن مشروع زواج مريح . وفي ساليناس وجـــد الآنسة ميرتيل كاميرون وكانت عانسا في الخامسة والثلاثين مـن العمر ذات ثروة صغيرة . وكان سبب

بقاء الآنسة ميوتيل حتى هذا السن دون زواج هو انها مصابة بالصرع ، ذلك المرض الذي كان يدعى « بالنوبات » والذي كان يعزى عامة الى حقد الآلهة وغضبها ولكن جورج لم يضره انها مصابة بالصرع فقد كان يعرف انه لا يستطيع الحصول على كل مـــا يشتهي وهكذا اصبحت ميوتيل زوجته وحملت له صبيا وبعد ان حاولت حرق البيت مرتين حجزت في سجن صغير خاص يدعى مصح ليبان ويقع في مدينة سان جوزيه .

وهناك امضت الاعوام الباقية من عمرهـــا وهي تطرز بخيطان قطنية حياة المسيح في صور رمزية .

ومنـذ ذلك الحين حكمت البيت وادارته سلسلة مـــن مدبرات المنازل السيئات المزاج والخلق ، مدبرات مـن ذلك النوع الذي يعلن في الصحف عن نفسه على النحو التالي :

« ارملة في الخامسة والاربعين تطلب عملا كمدبرة منزل في مزرعة . طباخة ماهرة تستهدف الزواج . »

وكن يأتين الى المزرعة الواحدة تلو الاخرى ، ويصطنعن في الايام القليلة الاولى الرقـــة والحزن ويبقين كذلك حتى يكتشفن ما حل بميوتيل فيجبن انحناء البيت بعيون تقدح شررا شاعرات كما لو كن قد اغتصبن معنويا !

هرم جورج باتل وهو بعد في الخمسين عاكفا طيلة وقته على عمله مفتقراً الى اللذة والحبور فما كانت عيناه تفارقان الارض التي يعمل فيها باصطبار عظيم وقد تخشبت يداه واسودتا وامتلأتا بالبثور والاخاديد كبطن الدب .

امـا مزرعته فكانت جميلة وكانت اشجار البستان مشذبة مقلمة تطابق كل منها الاخرى وكانت الخضـــار تنمو يانعة خضراء في صفوفها المستقيمة . وكان جورج يولي بيته بعنـايته ويهتم به فنصب حديقة زهور امـــامه ولكنه لم يقطن ابدا الطابق العلوى من البيت .

كانت المزرعة بمثابة قصيدة نظمها رجل ابكم .. فلقد نصبها وتعهدها بصبر واخذ ينتظر عروس احلامه ومـع انها لم تأت فانه ابقى الحديقة يانعة بانتظارها بينما لم يعر ابنه في كل الاعوام التي كان يترعرع فيها، الا بادنى الاهتمام، فليس من امر حيوي هام في نظره غير اشجار الفاكهة وخطوط شتلات الخضار اليانعة بل انه لم يفتقد ابنـــه جون عندما غادره ليجوب الآفاق في هربته مبشرا بالمسيح، فقـد مضى في عمله وجسمه يشتد ، سنة بعد اخرى ، انحناء على ارضه .

اما جيرانه فلم يكونوا يتحدثون اليه مطلقا ذلك انه لم يكن يلقي بالا الى اي حديث .

وعلى مضي السنين تكورت قبضتاه وتجوفتا بحيث تلتحم فيها اكمل التحام ادوات الزراعة .

ولمـــا بلغ جورج باتل الخامسة والستين مـــات متأثراً بالشيخوخة والسعال واثر ذلك عاد جون ليطالب بالمزرعة التي ورثها عن والده بينما كان قد ورث عن والدته كلا من الصرع والادعاء الجنوني بمعرفة الاله، ولما كان جون قد كرس حياته لمكافحة الشياطين فكان يمضي وقته متنقـــلا من مخيم الى مخيم

مطوحـــا بذراعيه مناديا الشياطين لاعنـــا اياهم متعوذا من الشر الرجيم .

ولما وصل الى بيته كانت الشياطين لا تزال تتطلب الاهتمام، وكانت صفوف الخضار المبذورة قد حاولت النمو عدة مرات ثم مـــا لبثت ان استكانت وزحت تحت وطأة الاعشاب الطفيلية وانزلقت المزرعة عائدة الى احضان الطبيعة الا ان الشياطين اشتدت قوة وشرا والحاحا .

وكمل وقائي طرز جون ثيابه بصلبان صغيرة مـــن الخيطان البيضاء واذ تسلح بذلك فقد شن الحرب على فيالق الظلام. وكان يتلصص في ارجاء الحديقة اذ يحل الغسق الاغبر، متسلحا بعصا غليظة فيهاجم الادغال والخمائل ويضربهـا بعصاه وهو يلقي على الشياطين بلعناته حتى تخرج من مكامنها .

وفي الليل كان ينسل الى اكثف دغل ليهاجم اجتماعا تعقده الابالسة ثم يندفع بكل جرأة وهو يوجه الضربات الحـــداد بسلاحه، اما في النهار فكان يأوي الى بيته وينام لان الشياطين لا تعمل في النور .

وذات يوم زحف جون بحذر عند اشتداد الغسق الى خميلة زنبق في باحة داره فقـــد عرف ان الشـــياطين تعقد اجتماعا سريا في ثناياها ولما اقترب منهـــا بشكل يستحيل عليها معه النجاة ، قفز واقفا وهجم على خميلة الزنبق صارخا ملوحا بعصاه ، واثار هـدير الضربات افعى كانت تأوي الى الخميلة فتحركت محدثة صلصلة متكاسلة ورفعت رأسها القاسي المفلطح .

عندئذ رمى جـــان العصا وارتجف ، ذلك لان فحيح الافعى الغاضب الجاف يؤلف صوتا مروعا ، ثم ركع وصلى هنيهة وفجأة صاح « هــذه هي الافعى الملعونة .. اخرج منها ايها الشيطان ! »

قال هذا واندفع الى الامام فاردا اصابعه فنشبت الافعى اليه ولسعته ثلاث مرات في عنقه حيث لم يكن ثمة صلبان وحشرج قليلا ثم مات بعد دقائق ولم يجده الجيران الا بعد ان اخذت الصقور والشواهين تنقض عليه مـــن السماء وكان ما شهدوه من بقاياه هو الذي جعلهم يرتاعون مـن مزرعة باتل بعد ذلك .

لعشر سنوات ظلت المزرعة بورا واخذ الاطفال يقولون ان المزرعة مسكونة بالجن كما اخـذوا يقومون برحلات ليلية اليها كيما يخيفوا انفسهم ، فلقد كان هناك مـا يخيف في ذلك البيت العتيق الكالح بنوافذه الجوفاء الفارغة بعد ان اخذ الدهان الابيض يتساقط مخلفا على الجـــدران رقعات طويلة ، وتشققت اخشاب السقف واصبحت المزرعة كلها قفراء وآلت بالوارثة من جورج باتل الى ابن عم من ابناء عمومته البعيدين الا انه لم يرها اطلاقا .

وفي عام ١٩٢١ آلت ملكيتها الى آل موستروفيك .

وكان مجيء هذه العائلة مفاجئا يحوطه الغموض ، ففي صباح ذات يوم ، وصل ركبهم الى المزرعة مؤلفا من زوجين هرمين نحيفين تـكاد تبرز عظامهما وقد شدت بشرة وجهيهما والتمعت

على عظام خدودهما البارزة وما كان احدهما يتكلم الانكليزية فكان ابنهما يقوم بالاتصال مع اهل الوادي .

اما الابن فكان رجلا طويل القامة بارز الخدين وكان شعره الغزير ينحدر حتى وسط جبينه مظللا عينين فاحتين رقيقتين كثيبتين وكان يتكلم الانكليزية بلكنة، على انه ما كان ليتكلم الا مضطرا وللتعبير عن احتياجاته .

وفي المخزن استجوبه النـــاس بلطف دون ان يتلقوا منه جوابا . ولقد سأله ت . ب آلن صاحب المخزن مرة :

ـ لقد ظننا دومـــا ان المزرعة مسكونة فهل رأيت اي شبح حتى الآن ؟

ـ كلا !

ـ انها ستكون على مـــا يرام حينما تنظفها من الاعشاب الطفيلية .

ولكن موستروفيك لم يجب انما انفلت خارجا من المخزن .

وعلق آلن على الحادث بقوله :

ـ يبدو ان ثمة شيئاً غريباً متصلاً بذلك المكان فكل من يعيش فيه يكره الكلام .

ونادرا ما شوهد شيخا آل موستروفيك ، غير ان الشاب كان يعمل في المزرعة كل ساعات النهار ، ولقد قـــام بمفرده بتنظيف الارض وزرعها وتقليم الاشجار ورشها بالمواد الكيماوية. وكان بامكان المرء ان يراه ، في اي ساعـة شاء ، وهو يعمل كالمحموم متنقلا بسرعة في مكان عمله كما لو كان يتوقـع ان

يتوقف الزمن قبل ان يظهر المحصول .

كانت العائلة تعيش وتنام في مطبخ البيت الكبير فقد بقيت جميع الغرف مقفلة فارغة لم ترمم نوافذها المكسرة . ولقد الصقوا الاوراق على الثقوب في نوافذ المطبخ سادين بها منافذ الهواء . ولم يطلوا البيت كما انهم لم يعتنوا به بتاتا ولكن الارض بفضل مجهود الشاب الحثيث بدأت تعود الى جمالها ثانية.

ومر عامان والشاب يكد فوق الارض فقد كان يخرج من البيت مع تباشير الفجر فلا يعود اليه الا بعد حلول الغسق .

وذات صباح ، بينما كان بات همبرت في طريقه الى المخزن ، استرعى انتباهه ان الدخان لا يتصاعد من مدخنة آل موستروفيك فقال :

ـ يبدو ان المكان عاد مهجوراً . . طبعا نحن لم نر الا الشاب ولا بد ان مكروها قد حل . فالمكان يبدو مهجورا .

ولثلاثة ايام راقب الجيران المدخنة بخشية فقد كرهوا ان يقوموا بتحقيق قد يعطيهم صفة الاغبياء المتطفلين . وفي اليوم الرابع سار بات همبرت مع ت . ب آلن وجون هوايتسايد الى البيت. كان المكان هادئا وبدا حقيقة كالمهجور فقرع جون هوايتسايد باب المطبخ ولما لم يسمع جوابا او حركة ادار مقبض الباب. وفتح الباب فبدا المطبخ نظيفا للغاية وقد رصت المائدة بالصحون والبيض المقلي والخبز المقطع ولكن طبقة رقيقة من العفن كانت تتكون فوق الاكل بينما كان عدد من الذباب يتطاير حول الشعاع المتسرب من الباب المفتوح وصاح بات همبرت:

- هل من احد هنا ؟

فعل ذلك ولكنه كان يعلم انه قد اتى امراً سخيفا .

وفتشوا البيت تفتيشاً كاملا ولكنه كان خاليا ولم يجدوا هناك من اثاث في اي من الغرف ما عدا المطبخ ، فقد هُجرت المزرعة تماما ، هُجرت فجأة .

وعندما اخبروا شريف المقاطعة بالامر ، في ما بعد ، لم يتمكن من ايجاد اي ايضاح فقد دفع آل موستروفيك ثمن المزرعة نقدا ولم يتركوا اي اثر عند رحيلهم. لم يرهم احد وهم يرحلون ولم يرهم اي انسان بعد ذلك . كما انه لم تحدث جريمة في تلك الضاحية قد يكون لهم علاقة بها . كانوا على وشك تناول طعام الفطور ذات صباح عندما اختفوا .

كثيرة هي المرات التي بحث فيها سكان الوادي القضية في المخزن ولكن ما من احد منهم تمكن من اعطاء حل معقول لها !

وعادت الاعشاب الى الارض ثانية فتسلقت شجيرات العليق البري اغصان اشجار الفاكهة . وعادت الارض برية قفراء بسرعة كما لو كانت قد اعتادت الامر . ولتسديد الضرائب بيعت المزرعة الى شركة عقارية في مونتيري . واقتنع سكان حقول الفردوس سواء اقروا بذلك او لم يقروا بان اللعنة قد حلت على المزرعه فكان الواحد منهم يقول :

- انها ارض طيبة ولكني لن امتلكها لو اعطيتموني اياها ، لست ادري ما الخطب ولكن هنالك شيئاً غامضاً بل مخيفاً لا اعرف كنهه يحيط بالمكان . . . ولا يصعب على الانسان أن

يؤمن بانها مسكونة !

. . .

وسرت قشعريرة سارة في سكان حقول الفردوس عندما سمعوا ان مزرعة باتل ستشغل من جديد فقد حمل الشائعة الى المخزن بات هبرت الذي رأى السيارات امام المنزل القديم وقام ت . ب آلن ، صاحب المخزن بترويج القصة . وتخيل آلن الظروف المحيطة بالملكية الجديدة وقالها لزبائنه بادئاً روايته بـ : « يقولون » :

- يقولون ان الرجل الذي اشـــترى مزرعة باتل هو من هؤلاء الذين يبحثون عن الاشباح ليكتب عنهم قصصاً .

كانت كلمة « يقولون » بالنسبة الى ت . ب . آلن نوعاً من الدرع الواقي ، فقد كان يستعملهـــا كما تستعمل الصحف كلمة «يزعمون » .

وسرت دستة قصص عن بيرت مونرو في حقول الفردوس قبل أن يحتل ملكه الجديد . وقد عرف ان هؤلاء الذين سيصبحون جيرانه يحدقون به رغم أنه لم يتمكن أبداً من ضبطهم وهم يفعلون ذلك . فالتحديق السري قد ارتقى الى فن سام بين سكان الريف . انهم يرون كل قطعة مكشوفة منك ويصنفون ويحفظون الثياب التي ترتديها ويلاحظون لون عينيك وشعرك وهيئة أنفك ويرمزون الى شكلك وشخصيتك بثلاثة او اربعـــة نعوت في الوقت الذي تظن فيه انهم ساهون

عن وجودك .

بعد ان اشترى المكان بدأ بيوت العمل في الباحة المليئة بالنباتات ، بينما كان فريق من النجارين يرممون البيت حيث اخرجت كل قطعة اثاث واحرقت في الساحة وهدمت بعض الحواجز واقيمت حواجز جديدة ورممت الجدران واعيد بناء السقف بقرميد جديد . واخيراً دهن البيت من الخارج بطلاء جديد فاتح الصفار .

وقام بيوت بنفسه بقطع جميع الاعشاب والاشجار في الساحة ليتيح للنور الدخول الى المنزل . وخلال ثلاثة أسابيع فقد البيت كل المعالم التي تعطيه مسحة البيت المهجور المسكون بالارواح ، بل اصبح يبدو بفضل عبقرية المشرفين عليه شبيهاً بمئات الالوف من البيوت الريفية الموجودة في الغرب .

وما ان جف طلاء البيت الداخلي والخارجي منه حتى وصلت قطع الاثاث ، من كراس مبطنة مريحة وارائك وفرن جديد مدهون الى سرائر حديدية مطلية بلون الخشب ومضمونة على انها تمد شاغلها بالراحة التامة . ووصلت كذلك مرايا باطارات صدفية وسجادات من طراز ويلتون ونسخ عن صور لفنان حديث اشاع استعمال اللون الازرق .

ومع الاثاث وصلت السيدة مونرو واولادها الثلاثة . كانت السيدة مونرو امرأة بدينة تضع نظارات من ذلك النوع الذي لا سواعد او اطار لها بل تركز على الانف وتربط بشريط يتدلى على الصدر . وكانت مديرة منزل ممتازة فقد جعلتهم

ينقلون الاثاث الجديد مراراً وتكراراً من مكان لآخر ولكنها ما ان كانت ترتاح الى وضعها حتى تحدق بهـــا مدة ثم تبتسم فبذلك تكون قد وضعتها في هذا المكان للأبد لا تحركها الا ايام التنظيف .

وكانت ابنتها ماي فتاة حلوة ذات خدين مستديرين ناعمين وشفتين ناضجتين وكانت هيئتها شهوانية. وكان تحت ذقنها قوس ظريف رقيق كان يشير الى ترهل مقبل سيساويها مع امها . وكانت نظراتها اليفة صادقة لا تدل على الذكاء رغم انها لا تدل على الغباء أبداً . وكان مما لا شك فيه انها عندما ستكبر ستكون صورة طبق الاصل عن شخصية امها ، مدبرة ماهرة ، واماً طيبة لاطفال أصحاء .

في غرفتها الصغيرة الخاصة الصقت ماي برامج الرقص بين اطار المرآة وزجاجها بينما علقت على الحيطان صوراً لاصدقائها في مونتيري . ووضعت مجموعة صورها ودفتر مذكراتها المغلق على طاولتها الصغيرة القائمة بجانب سريرها .

كانت ماي تخفي في دفتر مذكراتها ، عن الاعين الفضولية، سجلاً ، يفتقر تماماً الى ما يثير الاهتمام ، عن الرقص والحفلات والوصفات المتعلقة بصنع الحلوى ، كما كانت تخط فيه اعترافات رقيقة عن ميولها لبعض الشباب .

اشترت ماي ستائرها وفصلتهـــا بنفسها ، فانتقت حريراً

شفافاً زهري اللون شـاحبه وسجفاً من الكريتون المنقوش بالزهور .

وعلى سريرها ذي الملاءة الساتانية صفت خمس وسائد تبدو كأنها صفت كيفما اتفق واستندت اليها العوبةفرنســية طويلة الساقين ذات شعر اشقر معقوص وسيكارة قماشية تتأرجح بين شفتين واهيتين . كانت ماي تعتبر ان هذه الدمية تقيم الدليـل على انفتاح ذهنها وسعة افقها واحتمالها لاشياء لا تقرها تماماً . فقد كانت تحب أن يكون اصدقاؤها من اصحاب الماضي وكان اصطحابها لمثل هؤلاء الرفاق او الرفيقات واستماعها لهم يزيل من نفسها أي أسف على ان حياتها لا غبار عليها .

كانت في التاسعة عشرة من عمرها وكانت تفكر بالزواج معظم الوقت . وعندما كانت تخرج مع الشباب كانت تتحدث عن المثل العليا ببعض الانفعال . ولم تكن لماي من فكرة عما هي المثل العليا اللهم الا أن تلك المثل تتحكم في نوع القبل التي تتلقاها الانثى وهي عائدة الى بيتها من حفلات الرقص .

كان جيمي مونرو في السابعة عشرة وقد تخرج لتوه من المدرسة الثانوية وكان كثير السخرية . ولـكن امام اهله كان في عادة رزيناً وانطوائياً فقد كان يعرف بانه لا يستطيع أن يأتمنهم على معرفته للدنيا ، اذ لم يكن بوسعهم ان يفهموا ، فهم ينتمون الى جيل يفتقر كل الافتقـــار الى المعرفة بالخطيئة او بالبطولة. وما كان اهله خليقين بان يتقبلوا القبول الحسن تصميمه الحازم على ان يكرس حياته للعلم بعد ان يشبعها بالمغامرات

العاطفية . وكان جيمي يعني بذلك « العلم » اجهزة الراديو وعلم الآثار والطائرات ، فكان يتصور نفسه وهو ينقب عن الاواني الذهبية في جمهورية بيرو . وكان يحلم متصوراً أنه قد حبس نفسه في ورشه تشبه الزنزانة وبعد سنوات من العذاب والخيبة يخرج من الزنزانة بطائرة جديدة بتصميمها ساحقة بسرعتها .

ولقد تحولت غرفة جيمي في البيت الجديد الى مجمع من الآلات الصغيرة حالما استقر فيهـــا . فكان فيها جهاز راديو مفتوح بسماعات ومحرك مغنطيسي يدار باليد ويدير بدوره مفتاحاً لاسلكياً ثم مجهر نحاسي وما لا يحصى من الآليات التي فككت جزئياً . وكان لجيمي ايضاً مستودع سري هو عبارة عن صندوق سندياني مغلق بقفل ثقيل وكان الصندوق يحتوي على نصف تنكة من رؤوس الديناميت وعلى مسدس قديم وعلبة من السكائر وثلاث صور « مكشوفة » تعرف باسم الارامل المرحات وقنينة صغيرة من كونياك الاجاص وقطاعة ورق على شكل خنجر واربع ربطات من الرسائل من اربع فتيات مختلفات وست عشرة اصبع حمرة اغتصبها ذكرى من رفيقات الرقص وعلبة تحتوي على مذكرات حول حبيباته الراهنات ثم بعض الزهور الذابلة والمناديل والازرار واخيراً وأكثر ما يعتز به من كل ذلك ربطة ساق مغطاة بدنتيل اسود . ولقـد نسي جيمي كيف حصل فعلاً على ربطة الساق تلك ، على أن ما استطاع ان يتذكره بشأنها كان اكثر ارضاء له على كل حال من الحقيقة . ولقد درج جيمي على ان يقفل غرفة منامته قبل

أن يفتح صندوقه .

لقد كان سجل جيمي من الخطايا اثنـاء الدراسة الثانوية يتعادل مع كثير من سجلات اصدقائه بل كان سجل بعضهم يضاهي ويفوق سجله . ولكنه سرعان ما وجد بعد ان انتقل اهله الى حقول الفردوس ان مخازيه كانت فريدة ، فخلص الى اعتبار نفسه شقياً تائباً ولكن توبته لم تكن بالتي تمنعه من أي خروج على السير الحميد . والواقع ان حياته المليئة التي عاشها كانت تمده بعون قوي في تصرفه مع فتيات الوادي . هـــذا بالاضافة الى ان جيمي كان فتى صبوحاً أنيقاً منسجم التركيب في بنيته حالك الشعر والعينين .

اما ما نفرد،اصغر الابناء،ويدلل عادة باسم ماني ، فكان طفلا رصيناً في السابعة . وكان يتميز بوجه يبدو متقلصاً مشدوداً بسبب زوائده الانفية . وكان اهـله يعرفون بامرها بل انهم تحدثوا عن ازالتها بالجراحة . الا ان ماني اصبح مذعوراً من صورة العملية الجراحية ، واذ رأت امه منه ذلك فقد استعملت العملية الجراحية كتهديد مسكن له عندما يبالغ في شقاوته ، فقد كان مجرد التلويح له بان زوائده الأنفيـــة ستزال ، يجعله فريسة الرعب الذي يسلب وعيه .

لقد كان ابواه يعتبرانه طفلا مفكراً وربما عبقريا فقد كان عادة يلعب منفرداً أو يجلس ســـاعات طوالاً وهو يحدق في الفضاء « حالماً » كما كانت امه تقول . ولقد ظـــل ابواه عدة سنوات وهما لا يعلمان أنه غير عادي وان نمو دماغه قد توقف

بسبب « زوائده الانفية » . كان ماني في العادة طفلاً مطواعاً يمكن تخويفه وحمله على الطاعة بسهولة ولكنه كان يصاب اذا ما خوف اكثر مما يجب ، بحالة من الهستيريا تفقده السيطرة على نفسه وقد درج في هذه الحالة على أن يضرب جبهته على الارض حتى تتفجر دماؤه وتسيل على عينيه .

لقد أتى بيرت مونرو الى حقول الفردوس لانه كان تعباً من مصارعة قوى كانت تتغلب عليه دوماً ، فقد قام بعدة مشاريع فشل كل منها ، ليس لتقصير من جانب بيرت،ولكن لمصائب كانت كل منها صدفة مجردة . ورأى بيرت كل هذه الصدف متجمعة فبدت له كأنها من صنع قدر خبيث مصمم على أن يمنعه من النجاح . كان متعباً من مكافحة هذا الشيء العديم الاسم الذي كان يقف عثرة امام طريق النجاح . لم يكن بيرت يجاوز الخامسة والخمسين من عمره ولكنه اراد الراحة فقد كان شبه مقتنع بأن لعنة ما قد حلت عليه .

لقد فتح ، منذ سنوات عديدة ، مرآبا في احد اطراف المدينة . وازدهر شغله وبدأ المال يتدفق عليه . وعندما بدأ يشعر بالاطمئنان فتحت الحكومة طريقاً رئيسياً جديداً يمر بشارع آخر تاركة بيرت واهن القوى اذ انقطع عنه العمل . وبعد سنة او حوالي ذلك باع المرآب وفتح مخزناً للبقالة. ونجح عمله ثانية فوفى ديونه السابقة وبدأ يدخر في البنك . وأتت شركة بقالة كبيرة ففتحت فرعاً لها قريباً منه وشنت عليه حربا اضطرته في النهاية الى اعتزال العمل .

وكان بيرت شديد الحساسية وقد تكررت امثال هـذه الامور عشرات المرات ، فعندما كان نجاحه يبدو مستمراً ، كانت اللعنة تحل عليه فاذا بثقته بنفسه تضمحل ، وعندما بدأت الحرب كانت معنوياته جد منهارة . كان يعلم ان بامكانه ان يحقق ربحاً من الحرب ولكنه كان خائفاً بعد أن غلب على امره مراراً ..

وقد اضطر الى ان يطمئن نفسه ويشدد عزائمها كثيراً قبل ان ضمن حقول الفاصوليا . وربح في السنة الاولى خمسين الف دولار وفي السنة الثانية بلغ ربحه المئتي الف دولار . وفي السنة الثالثة ضمن الوف الفدادين قبل ان تبذر وضمّن عقوداته تعهدا بدفع عشرة سنتات ثمنا لكل رطل من الفاصوليا فقد كان بامكانه ان يبيعهـا بثمانية عشر سنتا للرطل وانتهت الحرب في تشرين الثـاني « نوفمبر » وباع محصوله باربع سنتات للرطل الواحد فاصبح رصيده يقل بكثير مما كان عليه عندمـا بدأ هذا العمل .

وفي هـذه المرة تأكد من امر اللعنة وتدهورت معنوياته حتى انه لم يعد يغادر منزله الا نادرا ، فكان يعمل في حديقته زارعا بعض الخضروات ومتأملا في عداء القدر له . وبعد مرور سنوات من الركود عاده الحنين الى الارض . فقد كان يعتقد بان في الزراعة يكمن سبيل الرزق الوحيـد الذي لا يتعارض مع القدر وظن بانه قد يجد الراحة والامان في مزرعة صغيرة .

وكانت شركة عقـارية في مونتيري تعرض مزرعة باثل

البيع . وفحص بيرت المزرعة ورأى الاصلاحات التي يمكن القيام بها فاشتراها ! وعارضت الاسرة في امر الانتقال بادىء الامر ولكنه ما ان رتب الحديقة وجر الكهرباء الى البيت ووضع فيه هاتفا ورتبه باثاث جديد حتى تحمست الاسرة للانتقال، فقد كانت السيدة مونرو تحبذ وترحب باي تغيير من شأنه ان يوقف تقطيب برت وهو في حديقته بمونتيري .

وشعر بيرت بانه بات حرا منذ اللحظة التي اشترى فيها المزرعة، كما شعر بان الشؤم قد زال عنه وعرف انه تخلص من اللعنة . وفي خلال شهر واحد عادت قامته الى الانتصاب وفارقت وجهه مسحة الكآبة. لقد اصبح مزارعا متحمسا فقرأ الكثير عن طرق الزراعة ووسائلها واتى بمساعد له بدا يعمل منذ الصباح حتى المساء . وكان كل يوم ينطوي على شيء مثير. كانت كل بذرة تشق التربة في نموها تبدو وكأنها وعد بالحصانة مقطوع له . كان سعيداً ولانه استعاد ثقته بدأ بمصادقة اهل الوادي وبتعزيز منصبه .

من الامور الصعبة والتي تتطلب الكثير من اللباقة ان يصبح المرء بسرعة مقبولا في محيط ريفي . لقد راقب اهل الوادي قدوم آل مونرو الى الوادي بقليل من العداء والجفاء فقد كانت مزرعة باتل مسكونة وكانوا يعتبرونها جميعاً كذلك حتى اولئك الذين كانوا يسخرون من هذا الاعتقاد . وها قد

اتاهم من يثبت لهم خطأهم . بل اكثر من ذلك انه غير وجه المنطقة الريفية بتحويله المزرعـــة الملعونة الى مزرعة خصبة لا اذى منها ولما كان الناس قد اعتادوا على مزرعة باتل كما كانت قبلا فانهم استنكروا التغيير الذي حدث .

وكان امراً مرموقا ان يستطيع بيرت ازالة هـذا الحقد وان يصبح بيته خلال شهور قطعة من الوادي وان يصبح رجلا قويا وجـــارا مقبولا . فكان يستعير ويعير الادوات الزراعية وفي نهاية الشهر السادس انتخب عضوا في مجلس ادارة المدرسة . كانت سعادته الناتجة عن تحرره من « آلة الانتقام » السبب الاكبر الذي ساعده على اكتساب محبة الناس هـــذا بالاضافة الى انه كان رجلا لطيفا يسره خدمة اصدقائه وفوق ذلك لا يتردد في طلب مساعدتهم .

لقد شرح ، في المخزن ، امام فريق من المزارعين ، وضعه فاعجبوا بصدق تفسيره ، ولم يمر على وصوله الى الوادي وقت طويل حتى القى عليه ت . ب . آلن السؤال التقليدي :

ـ لقد ظننا دائماً بان المكان مصاب باللعنة فقد حدث فيه الكثير من الامور الغريبة . هل رأيت شبحا ما حتى الآن ؟

فضحك بيرت وقال :

ـ اذا ابعدتم الطعام عن مكان فستتركه الفئران ... وانا قد ابعدت عن المكان كل مظاهر القدم والظلمة فهي مما تحيا عليه الاشباح .

وقال آلن معترفا :

ـ انك حقا جعلت من المكان شيئا جيلا فليس هناك ما يفوقه في حقول الفردوس .

وقطب بيرت جبينه برزانة فقد طرأت عليه فكرة جديدة اخذت تعتمل في ذهنه فقال :

ـ لقد لازمني النحس مدة طويلة فقد بدأت عدة مشاريع فشلت كلها. وعندما اتيت الى هنا كانت تراوحني فكرة مفادها انني مصاب بلعنة .

وفجأة ضحك مغتبطا بالفكرة التي انتابته واستطرد قائلا :

ـ وما الذي عملته ؟ اشتريت مكانا مـــن المفروض انه رازح تحت اللعنة . . واظن انه ربما كانت لعنتي ولعنة المزرعة قد تخاصمتا وتقاتلتا وقتلتا بعضهما بعضا وعلى كل فانا متأكد من انها ذهبتا نهائيا .

وضحك الجميع معه . ثم ضرب ت . ب . آلن يده على الحاجز هاتفا :

ـ انها نكتة رائعه فعلا ... ولكن هاك واحـــدة اكثر روعة ... تزاوجت لعنتك مع لعنة المزرعه وولجتا كزوجين من الافاعي الى ثقب تماما كما تفعل الافاعي... وربما سينجبان الكثير من اللعنـــات الصغيرة التي تبدأ بالانتشار في حقول الفردوس قريبا .

وضج الرجال بالضحك لهذا ، بينما حفظ ت . ب . آلن المشهد غيبا ليردده فيما بعد فقد رأى انه يشبه الى حد بعيد حوار المسرحيات .

عاش « ادوارد ويكس » في بيت صغير كئيب عنــــد طرف طريق المقاطعة في حقول الفردوس وكان وراء ذلك المنزل حديقة للدراقن وبستان كبير للخضروات .

وبينما كان ادوارد ويكس يعتني بشجرات الدراقن تلك ، كانت امرأته وابنته الحسناء تعتنيان بحراثة الحديقة وتهيئان الحمص واللوبيا والنتاج المبكر من الفريز ، كي تباع في مونتيري .

اما ادوارد ويكس هذا ، فكان ذا وجـه اسمر متجهم مثلوم وعينين



صغيرتين تكادان تخلوان من الرموش ، وقد عرف انه اكثر اهل الوادي خبثاً وحيلة ، اذ كان يقوم بصفقات صعبة ، ولم يكن ليسعده شيء اكثر من ان يستطيع ان يستنزف من بيع دراقه بعض دريهمات اكثر من جيرانه ، كما انه كان لا يتورع عن الغش في تجارة الخيل اذا استطاع الى ذلك سبيلاً دون أن ينكشف أمره .

وبسبب حدة ذكائه ، فقد استطاع أن يكتسب احترام المجتمع . غير أن ذلك ، ويا للعجب ، لم يزد في غناه قليلاً أو كثيراً ، وان احب التظاهر بأنه يودع الدراهم في المصارف وعقود الضمان .

وكان في اجتماعات مجلس ادارة المدرسة ، يسأل اعضاء المجلس الآخرين النصح بشأن مختلف الاسهم وبتلك الطريقة فقد ضمن امر ايهامهم بأن توفيراته من المال تبلغ رقماً محترماً .

وكان أهل الوادي يسمونه « شارك ويكس » أو كابت البحر ، كما كان الواحد منهم يقول للآخر : « شارك . . . ؟ اعتقد أنه يملك عشرين الفاً ... انه ليس بالقليل ! »

والحقيقة ان شارك لم يملك في حياته اكثر من خمسماية دولار مرة واحدة . غير أن سروره الاكبر كان في ان يعتبر رجلا ثريا . والواقع أنه تمتع واستلذ بشيوع هذا الوهم بحيث أن هذه الثروة الموهومة قد أصبحت حقيقية في نظره .

واذ أقر ثروته الخيالية على خمسين الف دولار ، فقد احتفظ

بسجل يدون فيه ما تدره « ثروته » من فائدة وما يدخل اليه من توظيف أمواله ، وكانت هذه الادارة ـ ادارة مدخولاته المالية ـ البهجة الاولى والكبرى في حياته .

ولما تأسست في ساليناس شركة للبترول تتولى حفر بئر في القسم الجنوبي من مقاطعة « مونتيري » سمع شارك بها فتوجه الى مزرعة « جون هوايتسايد » كي يتدارس واياه قيمة اسهم هذه الشركة فقال له :

ـ انني في حيرة من أمر شركة الزيت الجنوبية هذه .

فأجابه جون هوايتسايد الذي كان كثيراً ما يستشار في هذه القضايا .

ـ حسناً . . ان تقرير علماء طبقات الارض يبدو مبشراً بالخير ، ولقد ظللت لسنين خلت اسمع دائماً ان هنالك بترولاً في هذه المنطقة . . وطبعاً فانني لن اوظف في ذلك المشروع شيئاً كثيراً .

ثنى شارك شفته السفلى باصابعه وفكر برهة وجيزة ثم قال :

ـ لقد كنت اقلب الامر في ذهني وانه ليبدو بمثابة عرض مغر سيما وان عندي آلافاً عشرة لا تدر علي كما ينبغي ، ولما كنت اعتقد انه من الافضل ان اعطي الامر اهمية اكثر ، فقد فكرت في أن اعرف رأيك في ذلك .

الا ان ذهن شارك كان قد استقر على رأي ، فما ان ذهب الى بيته حتى تناول سجل حساباته ، وسحب عشرة آلاف دولار من حسابه المصرفي المزعوم ، وادخل بعد ذلك الف سهم من

أسهم شركة الزيت الجنوبية في لائحة مدخراته .

ومنذ ذلك اليوم بدأ يراقب نشرة اســعار الاسهم بحمية وحرارة ، فعندما ترتفع الاسعار قليلا ، كان يصفر برتابة ، اما عندما تهبط ، فانه كان يشعر بغصة تجتاح حلقه .

وفي المدى الطويل ، يوم ان ارتفعت أسعار اسهم الشركة ارتفاعاً سريعاً اصابه الزهو والابتهاج حتى أنه ذهب الى «مخزن حقول الفردوس العام » وابتاع ساعة منزل رخامية سوداء بأعمدة مرصعة في كل من طرفيها ، وذات حصان برونزي في اعلاها ، أما أصحاب المخزن فقد ادعوا بعــد النظر والبحث وقرروا هامسين بان شارك على وشك أن يحظى بربح عظيم .

وبعد اسبوع واحد هبطت أسعار الاسهم كلياً واختفت الشركة من الوجود ، وما ان سمع شارك ذلك النبأ حتى جرد حساباته ودوّن فيه انه قد باع حصته من الاسهم قبل الافلاس بيوم واحد وان أرباحه في تلك العملية بلغت الالفي دولار .

اوقف « بات همبرت » سيارته وهو عائد من مونتيري ، على الطريق الريفي امام منزل شارك وناداه ، قائلا :

ـ سمعت أنك خسرت خسارة كلية في صفقة شركة الزيت الجنوبية ؟

فتبسم شارك بسمة رضى وأجاب :

ـ وماذا تظنني يا بات ؟ لقد بعت اسهمي منذ يومين . . . يجب أن تعلم جيداً كما يجب ان يعلم الجميع انني لست بالمغفل ، لقد عرفت منذ البداية أن هذا المشروع فاشــل . غير أنني

قدرت ان اسهمه سترتفع بحيث يستطيع النصابون أن يحصلوا على اكثر ما يمكن ، على أنهم لما باعوا بعت انا كذلك .

فأجابه بات باعجاب :

ـ بحق الجحيم لقد فعلت شيئاً رائعاً .

وعندما دخل بات الى المخزن نشر الخبر هنـــاك ، فهز الرجال رؤوسهم وابتدأوا بالتخمينات الجديدة حول مقدار ثروة شارك ، واعترفوا فيما بينهم انهم يكرهون ان يكونوا اخصام هذا الرجل في صفقة ما . وفي هذه الاثنـــاء استدان شارك اربعمائة دولار من « مصرف مونتيري » وابتاع جراراً (تراكتورا) مستعملا من نوع « فوردسون » .

وتدريجياً أصبح صيته في صواب التقدير والتخمين وبعـد النظر عظيما حتى أنه لم يعد في « حقول الفردوس » مخلوق لا يستشير شارك ويكس فـــيما اذا فكر في شراء اسهم او قطعة أرض او حتى جواد ، وكان شارك يمضي بعنـــاية في تفحص مشاكل المعجبين الى ان ينتهي الى بذل نصيحة يثير صوابها العجب .

وفي بضع سنوات ، أصبح سجل حسـابات شارك المالية يشير الى أنه قد جمع مائة وخمسة وعشرين الف دولار باستثمارات تدل على الحذق والفطنة .

وعندما شاهد جيرانه أنه لا يزال يعيش معيشـــة الفقراء زادوا احتراماً له لأن الثروة لم تدر رأسه ولمـا لم يكن غبياً فقد ظلت زوجته وابنته الجميلة تعتنيان بالخضار وتعدانها للبيع

في مونتيري كما ظل شارك يقوم بخدمة حديقته ويؤدي ماتنطوي عليه هذه الخدمة من مختلف الواجبات .

لم تحفل حياة شارك بغرام روائي ، ففي التاسعة عشرة من عمره اصطحب « كاترين مولوك » الى ثلاث حفلات راقصة لانها كانت متوفرة له في المرات الثلاث ، وقد جعل ذلك السوابق تفعل فعلها وهكذا تزوجها لان أهلها وكل جيرانه كانوا يتوقعون ذلك .

لم تكن كاترين جميلة ، ولكنها كانت تتمتع بالنضارة الوضيئة المأثورة عن العشب الجديد كما كانت تتميز بشموخ وحيوية فرس صغيرة ، وبعد زواجها فقدت حيويتها ونضرتها كما يحدث للزهرة حال تلقيها اللقاح ، فقد ذبل وجهها وعرضت اردافها ، ودخلت في المرحلة الثانية من قدرها . . . أي عالم العمل .

أما من حيث معاملته لها . فلم يكن شارك رقيقاً ولا قاسياً اذ سيطر عليها بنفس الشدة الحانية التي كان يستعملها مع الخيل .

كانت القسوة خليقة بأن تبدو له في مصاف الحماقة ، مثلها في ذلك مثل التسامح والتساهل ، فلم يتكلم معها يوما كما يتكلم مع انسان ، لم يحدثها عن آماله او آرائه ، او اوجه فشله ولا عن ثروته الورقية الوهمية ، او عن محصول الدراقن ، ولو أنه حدثها بذلك لسبب لها الحيرة والهم ، فقد كانت حياتها معقدة بما فيه الكفاية بحيث لا تحتاج الى تحمل عبء

مشاكل انسان آخر وآرائه .

كان منزل آل ويكس الاسمر ، الشيء الوحيد القبيح في تلك المزرعة ، فقمامة الطبيعة واقذارها تختفي في الارض بمرور الايام أما قمامة الانسان فهي اكثر ديمومة ، وهكذا فقد كانت باحة المزرعة مليئة بالزكائب القديمة والاوراق وقطع الزجاج ومجموعات من الاســلاك المعقدة التي كانت تستعمل لرفع دلاء الماء ، أما المكان الوحيد الذي لم يكن ينبت عليه العشب او الزهور فقد كان اكوام الاقذار المتكدسة حول المنزل ، فقد اصاب العقم الاقذار نتيجة تفريغ مياه الحمامات الصابونية التي تجعلها غير مؤاتية للانبات . لقد كان شارك يروي حديقته ولكنه لم يكن يجد أي سبب لاهراق الميــاه الصالحة لتنظيف ما حول المنزل .

ويوم مولد ابنته اليس ، جاءت نســاء حقول الفردوس جماعات الى منزل شارك وقد اعددن أنفسهن كيا يقلن معجبات انها طفلة جميلة ، غير انهن لما وجدنها جميلة بالفعل لم يدرين ماذا يقلن ، فقد فقدت معانيها تلك التعــابير الابتهاجية النسوية الموضوعة خصيصاً لكي تطمئن الامهات الشابات الى ان هذه المخلوقات الزحافة الرهيبة بين اذرعهن هي مخلوقات انسانية وانها لن تنمو لتصبح مثيرة للفزع .

غير أن كاترين نظرت الى ابنتهـــا بعينين لم تشبها تلك الحماسة المصطنعة التي كانت النساء يخففن من خيبتهن بها عندما لا تكون المولودة كما يشتهين . ولما رأت كاترين ان الطفلة جميلة

على تلك الصورة ، امتلأت نفسها بالعجب والرهبة والشك فقد كان جمال أليس اعجب من أن يكون غير مشفوع بعقاب .

كانت كاترين تردد فيما بينها وبين نفسها بأن الاطفال الجميلين ينقلبون عادة الى رجال ونساء قبيحين. وفي ترداداها لهذه الفكرة تغلبت على شيء من الخشية التي أصابتها ، فكأنها قبضت على القدر وسلبته القوة بنبوءتها تلك .

وفي اول يوم من الزيارات النسائية تلك ، سمع شـــارك احدى النساء تقول لزميلة لها بلهجة يغلب عليها عدم التصديق :

ـ ولكنها في الحقيقة ، طفــلة جميلة . . فكيف تعللين هذا الجمال . . ؟

عاد شارك الى غرفة النوم ونظر الى ابنته الصغيرة ملياً . واذ خرج الى الحديقة استغرق في تفكير عميق حول هـــذه المسألة وخلص الى ان الوليدة جميلة فعلاً ، والى ان من البلاهة الظن في أن له او لكاترين او لأي من اقاربها يداً في ذلك ، فهم جميعاً من البسطاء السذج حتى انهم لا يرقون الى أكثر من مصاف العاديين .

من الجلي أن شيئاً ثميناً قد اعطي له ، وبما ان كل ثمين هو قبلة طمع الجميع وشهوتهم فلا بد لأليس من الحماية .

آمن شارك بالله عندما فكر بالامر، آمن به كموجود مبهم يصنع كل شيء . مما لا يستطيع هو ان يفهمه .

ترعرعت اليس ، وازدادت جمالا ، كانت بشرتها متألقة وضاحة كالخشخاش ، وكان لشعرها الاسود تجعدات جذوع السرخس الناعمة . اما عيناها فكانتا سماوات من المواعيد الضبابية الغائمة ، فاذا نظر الواحد الى هاتين العينين الرزينتين فلا بد من ان يتساءل: « ما ذلك الشيء الذي اعرفه ويلوح لي انني اتذكره بدقة ، شيء قضيت عمري في البحث عنه . »

وعندما تدير اليس رأسها ، يعود الى نفسه فيقول : « لمَ كل ذلك . . انها ليست اكثر من بنت صغيرة جميلة . . »

ولقد لاحظ شارك هذا التسليم لدى عدد كبير من الناس. رأى الرجال يحمرون خجلا لدى النظر اليها ، ورأى الصبيان الصغار يتقاتلون كالنمور عندما تحضر مجمعهم ، وظن بانه يقرأ الشهوة في وجه كل ذكر .

وكم كان يؤلم نفسه وهو يعمل في الحديقة ان يتخيل ابنته وقد سرقها الغجر . ولذلك فهو لا ينفك يحذرها طول نهاره تارة من قوائم الخيل واخرى من السياجات العالية وغيرها من الاخطار كأجتياز الطريق بدون انتباه للسيارات العابرة .

كان ينظر الى كل جار وكل بائع متجول ، واسوأ من ذلك كان ينظر حتى الى كل غريب ، كما لو كان شريراً يمكن ان يختطف ابنته ، وعندما كان يبلغ الى علمه وجود متسولين في حقول الفردوس لم يكن ليدعها تغيب عن ناظريه لحظة واحدة .

وكان المتنزهون يعجبون من شراسته اذ يطردهم من ارضه.

اما كاترين فقد ازدادت ريبتها وخوفها بازدياد جمال اليس، كانت تتصور ان القدر ينتظر الفرصة ليضرب ضربته او كأنه يستجمع قواه لضربة اشد واقوى : ولذا فقد لازمت ابنتها واستعبدت نفسها لها ، لا تدعها تقوم الا باعمال قليلة ، فكانت كمن يعامل عليلا مشرفا على الموت .

وعلى الرغم من عبـــادة آل ويكس لطفلتهم الصغيرة ، وجزعهم على سلامتها وحرصهم البخيل عـلى جمالها ، فقد كان الابوان يعلمـان ان ابنتها الحبيبة غبية الى درجة لا تصدق ، وانها بليدة ، متأخرة فكريا .

وسببت هذه المعرفة ازدياد مخـاوف شارك ، لاقتناعة بانها لا تستطيع حماية نفسها ، وانها خليقة بان تكون فريسة سهلة لكل من يضمر لها شراً، اما بالنسبة لكاترين فقد كانت غباوة اليس شيئاً يبعث السرور لانها بذلك توفر لامها مجالات عديدة، تستطيع فيها مساعدتها ، وبتلك المساعـدة كانت كاترين تشعر بتفوقها ، فيجعلها ذلك تنسى ـ لدرجة ما ـ ذلك البون الشاسع بينها ، ولذا فقد ابتهجت لكل ضعف في ابنتها لان كل ضعف يجعلها تشعر بانها اقرب اليها من ذي قبل .

وببلوغ اليس الرابعة عشرة اضيفت مسؤولية جـديدة الى تلك المسؤوليات التي كان والدها يحسها نحوها .

كان شارك قبلا يخاف ان يخسرهـا او ان يصيبها تشويه ، امـــا اليوم فقد صار يرعبه التفكير في انها قد تفقد عفافها . وتدريجيا سيطر هذا الخوف على الخوفين الاولين، واصبح يعتبر

ازالة بكارة ابنته خسارة وعاراً في آن واحد .

ومن يومها اخذ الازعاج والشك يلاحقانه لوجود اي رجل او صبي قرب المزرعة، واصبح هذا الموضوع كابوسا يجثم عليه.

ومرة اثر مرة كان يحذر زوجته من ان تسمح لاليس بان تغيب عن نظرها مرددا وعيناه الشاحبتان تشعان ريبة وشكا :

ـ ليس بوسعك ان تدري ما يمكن ان يحدث .

وزاد في همومه ومخـاوفه ، ذلك النقص العقلي في ابنته . فكان يظن بان اي انسان يستطيع ان يحطمها .. وبان اي انسان اطلاقا يترك معها لفترة قد يتصرف معها تصرفا شائنا ، فلن تستطيع حماية نفسها لما هي عليه من الغباء .

وهكذا لم يكن من رجل يسهر على كلبته الاصيلة ويحرسها في موسم هيجانها ، اكثر مما كان شارك يفعله في رعاية ابنته .

وبعد مدة لم يعد شارك يكتفي بالاطمئنان الى طهارتها الا اذا كان متأكدا من ذلك ففي كل شهر يقلق زوجته ، اذ كان يعلم المواعيد اكثر مما تعرفها هي فيسألها بوحشية :

ـ هل هي على يرام ؟

وتجيبه كاترين بازدراء :

ـ لا . . ليس بعد .

وبعد ساعات يعود الى السؤال :

ـ هل هي على ما يرام ؟

وكان يسير على هذا المنوال الى ان تجيبه كاترين :

ـ طبعا . . انها على ما يرام . . فماذا تظن . . ؟

وكان هذا الجواب يكفي شارك لمدة شهر ، وان كان لا يخفف مراقبتها وحراستها اثناء الشهر فطالما ظلت العفة سليمة يتوجب عليه الاستمرار في السهر عليها .

وادرك شارك انه لا بد من ان يأتي يوم تطلب فيه اليس الزواج ، غير انه عادة ، عندما كانت تخطر له هذه الفكرة ، كان يطرحها جانبا ويحاول نسيانها اذ لم يكن يعتبر زواجها اقل سوءاً من اغوائها .

كانت شيئا ثمينا جديراً بالحماية والحفظ : ولم يكن المشكل في نظره اخلاقيا بل جماليا ، فهي ان فقدت بكارتها فلن تبقى ذلك الشيء الثمين الذي ادخره بهذا الحرص .

لم يحبها كما يحب الوالد ولده، بل كان يدخرها بنهم المتطلع الى امتلاك شيء جميل فريد .

وتدريجيا ، اصبحت مسألة بكارتها ترمز الى صحتها ووقايتها ونقاوتها .

وفي احد الايام عندما بلغت اليس السادسة عشرة ، ذهب شارك الى زوجته وعلى وجهه مظاهر الانزعاج .

ـ انت تعلمين اننا لا نستطيع ان نعرف ما اذا كانت على ما يرام ـ اعني ـ اننا لن نستطيع التأكد من ذلك الا اذا عرضناها على الطبيب .

فحدقت كاترين به لبرهة محاولة ان تدرك معنى كلماته ، ثم فقدت السيطرة على اعصابها لاول مرة في حياتها فصرخت به :

ـ انك حيوان شكوك قذر. اخرج من هنا ، وان عدت

الى هذا الكلام ثانية فانني سأهجر بيتك .

ودهش شارك قليلا لانتفاضتها ولكنه لم يخف منها وان كان قد اقلع عن فكرة الفحص الطبي واكتفى بأن يسأل سؤاله الشهري التقليدي .

وفي تلك الاثناء كان سجل ثروة شارك الخيالية يتضخم ففي كل ليلة بعد ان تأوي كاترين واليس الى الفراش ، كان يأخذ الدفتر السميك ويفتحه تحت المصباح المعلق، فتضيق عيناه الشاحبتان وترتسم على وجهه الغليظ نظرة خبث ودهاء فيما هو يخطط لمشاريعه الاستثمارية ويحسب ارباحه .

وتتحرك شفتاه قليلا .. فهو الآن يطلب الاسهم بواسطة التلفون وترتسم على وجهه نظرة اسف كالحة وهو يوقع حجزا على مزرعة خصيبة ويهمس :

« انني اكره ان افعل ذلك غير انه يجب ان تعلموا ايها الاخوان ان العمل هو العمل » .

وغمس شارك ريشته في دواته ، ودون هـــذا الحجز في سجله ثم اخذ يتمتم :

« الحس .. كلهم ينتجون الحس .. انهم سيغرقون السوق بذلك .. يبدو لي انه من الافضل ان ازرع البطاطس فاجني بذلك بعض المال .. انها ارض مناسبة .. »

ثم سجل انه غرس ٣٠٠ فدان بالبطاطس .

وساحت عيناه بين السطور .. ثلاثون الف دولار مودعة في المصرف ولا تنال الا الفائدة المصرفية .. ان ذلك لمخجل ..

انها مال بجمد مليا . وارتسم على عينيه بعض العبوس الذي يصاحب الاستغراق في التفكير .

وتساءل في نفسه عن شركة «سان جوزيه للبناء والتسليف» انها تدفع ٦ بالمائة غير انه ليس مـــن الحكمة الاستعجال في التعــامل معها قبل ان يتحرى امرها ، وفيما هو يطبق السجل تلك الليلة . قرر ان يتحدث مـــع « جون هوايتسايد » في الامر ، فتلك الشركات تفلس احيانا .. وينسل موظفوهـا ويتوارون .

قبل ان تنزح عائلة مونرو الى الوادي ، كان شارك يشك في ان جميع الرجال والفتيان يضمرون النوايا السيئة تجاه اليس ، غير انه عندما حط نظره لاول مرة على الفتى « جيمي مونرو » تركزت كل شكوكه ومخاوفه حول هذا الشاب الغشاش المخادع .

كان الفتى نحيل الوجه ، جميله ، ذا فم شهواني ، تلتمع عيناه بتلك الخيلاء المعهودة في طلاب المدارس الثانوية وكان يقال انه يحتسي « الجين » وكان يلبس ملابس اهل المدن الصوفية ولم يكن يرتدي ثياب العمل المألوفة في القرية ، امـا شعره فكان يلتمع بالزيوت .

كانت عاداته وحركاته ، بصورة عامة ، خليعة جعلت بنات « حقول الفردوس » يضحكن ويتدلعن اعجابا وتحرجا . وكان جيمي يراقب البنات بعينيه الهادئتين الساخرتين ، ويحاول ان

يظهر بمظهر الداعر الغارق في الشهوات وما فاته ان الفتيات ينجذبن الى الشباب ذوي الماضي . وجيمي ذو ماض . فقد سكر عدة مرات في الملهى القائم بجانب النهر ، كما انه قد قبّل نحو مئة فتاة على الاقل ، وقام بمغامرات آثمة في مناسبات ثلاث بين صفصاف النهر في مدينة ساليناس .

لقد جهد جيمي في ان يجعل وجهه يعكس حياته الفاسقة تلك ، غير انه لخوفه الا يكون مظهره كافيا .. فقد اطلق عددا من الاشاعات الصغيرة المنكرة التي انتشرت في « حقول الفردوس » بسرعة البرق ، وسمع شارك بالاشاعات فنمت في نفسه بغضاء لجيمي مونرو ، نتيجة الخوف من تصرفات جيمي مع النساء وحنكته بامرهن ، فكان يتساءل «اي مهرب لاليس الجميلة - الغبية من شخص متمرس في الدنايا كجيمي مونرو ؟»

وهكذا منعها شارك من مشاهدته حتى قبل ان تقع عيناها عليه ، متحدثا عنه بكراهية كانت من الشدة بحيث اثارت نوعا من الرغبة والاهتمام في ذهن الفتاة البليد .

- اياك ان تدعيني اضبطك تتكلمين مع هذا المدعو جيمي مونرو .

- ومن هو جيمي مونرو يا ابي ؟

- لا تهتمي بمعرفته .. اياك ان اضبطك تتحدثين معه فسأسلخ جلدك وانت حية حتى لو نظرت اليه فقط .

ولم يكن شارك قد رفع يدا على ابنته لنفس السبب الذي يمنعه من ان يسوط اناء ثمينا من آنية درسدن ، بل حتى انه

كان يتردد في مداعبتها خوفا من ان يترك في جسدها اثرا .
ولم تكن العقوبة ضرورية اذ ان اليس كانت دائما طفلة طيبة طيعة . والشر لا ينبع الا من فكرة ، او من طموح ومـا خامرها اطلاقا شيء من هذا او ذاك .

وكان يعود لتحذيرها من الكلام مـــع ذلك الفتى .
ولكثرة ترداد هذه الاوامر دب الى خليات دماغ اليس اقتناع بانها خليقة فعلا بان تحب رؤية جيمي مونرو ، حتى انها حلمت به .. واذا عرفنا ان اليس نادرا مـــا تحلم عرفنا الى اي حد كان تنبيهها واهتمامها بذلك .

رأت في منامها رجلا يشبه صورة الهندي الذي تراه عـلى التقويم في غرفة نومها ، ويدعى جيمي وقد جاء في سيارة لماعة وقدم لها ثمرة دراقن ناضجة وعندمـــا عضت تلك الثمرة سال عصيرها على ذقنها فجعلها ترتبك ، وعنـد ذلك ايقظتها والدتها لانها كانت تشخر .

وسرت كاترين لان ابنتها تشخر ، فـــذلك الشخير من النقائص التي تجعل المساواة بينهما اقرب .

وذات يوم تلقى شارك ويكس برقية مؤداها ان العمة نللي قضت نحبها الليلة الماضية وان الدفن يوم السبت . فما كان منه الا ان توجه الى مزرعة جون هوايتسايد ليعلمه عـــدم استطاعته حضور اجتماع مجلس ادارة المدرسة اذ ان جون كان امين سر هذا المجلس .

وقبل ان يغادره شارك بدا مضطربا قلقا لحظة قبل ان يقول :

ـ كنت اريد ان اسألك رأيك في شركة سان جوزيه للبناء والتسليف .

فابتسم جون هوايتسايد واجاب :

ـ لست اعلم الكثير عن هذه الشركة بالتحديد .

ـ الواقع ان لدي ثلاثين الف دولار في البنك تدر علي ثلاثة بالمائة ، ففكرت في انني قد استحصل على فائدة اكثر قليلا اذا تحريت الامر .

وزم جون هوايتسايد شفتيه ونفخ قليلا ، ثم ضرب الهواء بسبابته وقال :

ـ من البديهي ان اقول ان التسليف والبناء هما ميدانك الافضل . غير ان هذه ليست طريقتي في العمل ، فانا لا اريد المضاربات اذا لم استطع ان أرى ربحاً اكيداً في عملية ما ادخل فيها ، فكثيرون هم المضاربون .

فأجابه جون :

ـ هذا هو المعقول يا مستر ويكس فقليل من شركات البناء والتسليف يخسر وانها لتدفع فائدة مليحة .

ورد شارك كمن قر قراره :

ـ سأتحرى الأمر على كل حال اما الآن فأنا ذاهب الى اوكلاند لحضور مأتم العمة نللي ، وسأتوقف لبضع ساعات في سان جوزيه واتحرى امر تلك الشركة .

وفي مخزن البلدة العام ، دارت تلك الليلة تكهنات جديدة حول مبلغ ثروة شارك ، اذ انه كان قد استشار عدداً من

الرجال ، فاستنتج ت . ب . آلن قائلا :

ـ حسناً . . ان هنالك شيئاً واحداً يمكن قوله . . هو أن شارك ويكس ليس غبياً . انه سيسأل رأي عدة اشخاص غير أنه لن يسلم برأي ما حتى يتفحصه بذاته .

وردد الجميع :

ـ نعم انه ليس لعبة في يد أحد . .

ذهب شارك الى اوكلاند في صباح السبت تاركاً زوجته وابنته لأول مرة في حيـــاته . وفي مساء ذلك اليوم جاء « توم بريان » يدعو كاترين وأليس الى حفلة راقصة تقـام في المدرسة ، فقالت كاترين بلهجة مذعورة مرتجفة :

ـ اوه . . لا اعتقد ان مستر ويكس خليق بأن يقر ذلك . .

ـ ولكنه لم يقل لكما الاّ تذهبا . . هل قال ذلك ؟

ـ لا . . غير أنه لم يغب عن البيت قبل اليوم . . ولا اعتقد انه سيقبل بذلك .

ـ ما أحسبه فكر في هذا مطلقاً . . هيا ارتديا ثيابكما . .

وقالت أليس :

ـ دعينا نذهب يا اماه .

كانت كاترين تعلم ان ابنتها تستطيع اتخاذ قرار كهذا بسهولة لأنها اغبى من أن تخاف ، ولم تكن تستطيع الحكم على النتائج ، وما كان باستطاعتها التفكير في الاسابيع من المنـــاقشات المضنية التي ستتبع ذلك ، عندما يعود شارك ،

بل ان كاترين كادت حينئذ ان تسمعه يقول: « لست أفهم كيف اردت الذهاب فيما انا غائب . . انني لا انصور السبب . . عندما تركت ظننت انكما ستهتمان بالمكان اثناء غيابي ، فكان اول عمل قمتما به هو انكما اسرعتما الى حفلة راقصة » .

وبعد ذلك يأتي دور الاسئلة المعهودة :

ـ مع من رقصت أليس ؟ وماذا قال لها ؟ ولماذا لم تسمعي ما قاله ؟ كان يجب ان تسمعي .

ولن يحتمل الغضب في نفس شارك غير انه سيبقى يتحدث عن ذلك لاسابيع وأسابيع ، الى أن يجعلها تكره موضوع الرقص عامة . وعندما يأتي اوان الميعاد الشهري فستطن أسئلته كالبعوض الى ان يتأكد من أن أليس لن تضع طفلا .

وهكذا لم تعتقد كاترين ان متعة الذهاب الى تلك الحفلة يمكن ان تساوي استماعها الى ما سيتبع ذلك من نقيق .

وتضرعت أليس اليها :

ـ دعينا نذهب يا اماه . . اننا لم نذهب في حياتنا كلها الى مكان ما وحدنا .

وعصفت بكاترين موجة من الشفقة ، فالفتاة المسكينة لم يكن لها برهة خاصة بها في حياتها ، ولم تتحدث حديثاً عابثاً عابراً مع فتى ، لأن والدها لم يكن يسمح لها ان تذهب الى ابعد من مدى سمعه ، فاتخذت قرارها مبهورة الانفاس قائلة :

ـ حسناً اذا كان مستر بريان يستطيع انتظارنا الى أن نهيىء انفسنا ، فسنذهب ..

لقد شعرت بشجاعة كبيرة تعتمل في نفسها اذ انها ستشعل غضب شارك .

يكاد الجمال العظيم يساوي القبح كميزة سيئة لابنة الريف .. فكلما تطلع فتيـــان القرية الى أليس ، تهتز اطرافهم وتغص حلوقهم وتتضرج رقابهم .

لم يكن هنالك من قوة تجعلهم يكلمونها او يرقصون معها، وبدلاً من ذلك فانهم كانوا يراقصون بحمية بنات أقل جمالا ، فيرتفع ضجيجهم كالاطفال المغرورين ، وكانوا يسترقون النظر الى أليس عندما تدير رأسها ، فاذا نظرت اليهم تظاهروا بعدم الشعور بوجودها . اما أليس التي عوملت دائماً بهـــذه الطريقة فقد كانت غير شاعرة بمدى جمالها . .

كان جيمي مونرو مستنداً الى أحد الجدران بفتور أنيق وسأم صارخ عنـــدما ولجت كاترين وأليس باب المدرسة ، وكان جيمي مرتديا ثيابا جميلة وقد انتعل حذاء لمـاعاً ، ومع ربطة عنق سوداء فوق قميص حريري أبيض وشعره يلتمع على رأسه ، ولما كان جيمي من فتيـــان المدينة . . فقد انسل كصقر كسول وقبل ان تخلع أليس معطفها ، كان يقف بجانبها وبصوته ذي الرنين المنهوك الذي اكتسبه في مدرسته الثانوية سألها :

ـ اترقصين يا صغيرة ؟

فأجابت أليس :

ـ هاه !!

ـ ما رأيك في الرقص معي ؟
ـ تعني . . انا ارقص ؟

وادارت أليس اليه عينيها الغائمتين المفعمتين بشراً ، وأصبح السؤال السخيف مفرحاً فكاهياً فقد كان يلمح ضمنا الى اشياء اخرى تحرك وتثير حتى جيمي الساخر . وظن انها سألته : « الرقص ؟ فقط الرقص ؟ » وهكذا شعر جيمي على الرغم من تدربه على ذلك في حيـــاة دراسته الثانوية بحلقه يغص وباطرافه تهتز بعصبية وبالدم يتصاعد الى عنقه ، والتفتت أليس الى والدتها التي كانت تتحدث مع السيدة بريان بتلك الطريقة المألوفة لدى سيدات البيوت :

ـ اماه هل تسمحين لي بالرقص . . ؟

وتبسمت كاترين واجابتها :

ـ امرحي .

ووجد جيمي رقصها رديئاً ، فلما توقفت الموسيقى قال لها ان المكان حار جداً واقترح عليها الخروج قليلاً . . ثم قادها من يدها خارج القاعة . . الى ما بين شجرات الصفصاف في ساحة المدرسة .

غير ان امرأة من الحضور كانت تقف عند مدخل المدرسة فرأتها وأسرت بالامر الى كاترين التي ذعرت وهرعت خارجة تنادي ابنتها بضراوة ، وتأمرها بأن تعود .

وعندما ظهر الاثنان في الممشى التفتت كاترين الى جيمي وقالت له :

ـ دعك بعيداً عنهـا . . . اتسمعني . . ؟ ابتعد عن هذه الفتاة والا زججت نفسك في المتاعب .

وشعر جيمي برجولته تذوب . أحس كأنه طفل ارسل الى منزله مطروداً وكره ذلك ، غير انه لم يستطع التغلب على ذلك الشعور .

قادت كاترين ابنتها الى بهو المدرسة ثانية متسائلة برعب :

ـ ألم يقل لك والدك ان تبتعدي عن جيمي مونرو ؟ ألم يقل لك ذلك ؟ . .

فهمست أليس تسألها :

ـ أكان هو ؟

ـ أجل انه هو . . ماذا كنتما تصنعان خارجا ؟ . .

فأجابتها أليس بصوت مرتجف :

ـ كنا نتبادل القبل .

ففغر فم كاترين ارتياعاً وقالت :

ـ ورباه . . ماذا سأصنع .

ـ وهل ذلك شر يا اماه ؟

ـ كلا . . كلا . . ليس ذلك شراً انه حسن ، لكن احذري ان تجعلي اباك يعلم بذلك . . لا تخبريه . . حتى وان سألك ، انه سيجن . . . اجلسي بقربي الآن وطوال السهرة واياك أن تحاولي رؤية جيمي مونرو مرة اخرى . . فقد لا يعلم أبوك بما حدث . . ورباه . . ارجو الا يعلم بذلك .

وفي يوم الاثنين نزل شارك ويكس من قطار الليـــل في

ساليناس واستقل « الباص » الى مفترق الطرق الذي يمتد من المرتفعات الى حقول الفردوس حيث حمل حقيبته وبدأ يكمل الرحلة سيراً على الاقدام قاطعاً مسافة اربعة اميال الى بيته .
كان الليل صافياً جلياً والسماء مليئة بالنجوم وكأن التلال بأصواتها الخفية الغامضة كانت ترحب به فتخلق في نفســه سلسلة من التصورات جعلته ينسى خطواته .

لقد سر بالمأتم ، فالأزهار كثيرة جميلة ، وقد بعث فيه بكاء النساء وســير الرجال على رؤوس الاصابع ، شيئاً من الحزن اللطيف الذي لم يكن مزعجاً بصورة من الصور . حتى التراتيل الكنائسية ، تلك التي لا يفهمها احد ولا يصغي اليها احد ، كانت بمثابة دواء صب في جسده وفكره حلاوة خفيفة لذيذة . لقد امضى نحو الساعة في الكنيسة فعاد منها بالسلام المنعش الكامن في الازهار المتضوعة وفي البخور المتموج وبوهج الصلة مع الازل . كل هــذه الاشياء اثارتها في نفسه بساطة المأتم البالغة .

انه لم يعرف عمته نيللي جيــداً ، غير أنه تمتع كل التمتع بمأتمها ، وبطريقة ما عرف اقرباؤه عن ثرائه فعاملوه بالتكريم والاحترام .

وفيما هو عائد الى المنزل ، كانت هــذه الاشياء تعود الى فكره ، غير أن سروره استحث الزمن وقصر الطريق واذا هو في باب مخزن القرية العام ، فولجه لعلمه بأنه لا بد ان يجد من يحدثه عما طرأ في غيابه من جديد على الوادي .

لم يكن في المخزن ساعتئذ غير صاحبه ت . ب . آلن الذي كان يعلم بكل ما حدث . وقد اشتهر آلن بأنه يعظم اهمية أي خبر ، بتظاهره بأنه انما أكره على روايته وتردد بأخبار يحدثه عنه ، فأتفه شائعة ،تصبح مثيرة عندما تصل اليه ليرويها.

دخل شارك ، وعندما رآه آلن اعتدل في جلسته والتمعت عيناه بالاهتمام وقال بصوت يستجلب الثقة :

ـ سمعت انك كنت غائباً .

ـ كنت في اوكلاند . اضطررت لحضور مأتم ، وفكرت ان اقوم ببعض الاعمال في الوقت نفسه .

وانتظر آلن قليلًا قبل أن يسأل :

ـ هل قمت بشيء ؟

ـ لست اعلم اذا كان يصح تسمية ذلك عملا . . فقد كنت اتحرى امر شركة ما .

ـ وهل وظفت فيها أي مال ؟

فأجابه شارك :

ـ قليلا .

وسأل شارك :

ـ هل حدث شيء في غيابي ؟

وفجأة ارتسمت على وجه العجوز آلن نظرة من يُحمل حملًا على البوح بشيء لا يرغب فيه ، نظرة يقرأ فيها الانسان كرهاً لاعادة ذكر ما حدث ، وكرها طبيعياً للفضيحة ، ولكنه اقر اخيراً قائلا :

ـ حفلة المدرسة الراقصة .
ـ اجل لقد عرفت بذلك .
انكمش آلن على نفسه ، وكأن صراعاً يدور في داخله ، ايخبر شارك بما يعرفه ، من اجل مصلحة شارك ، ام يحتفظ بمعرفته لنفسه ؟
وراقب شارك هذا الصراع باهتمام وكان قد رأى امثاله مرات عديدة قبلا فسأله بالحاح :
ـ حسناً . . ما في الامر ؟
ـ سمعت ان قرانا قد يعقد عما قريب .
ـ قران من ؟
ـ انه قريب الى بيتك . . كما اعتقد .
سأل شارك ثانية :
ـ من ؟ . .
حاول آلن التهرب ، ولكن عبثاً . فاستسلم ثم قال :
ـ انت . .
وردد شارك : أنا . . ؟
فاجاب آلن : اليس .
فتصلب شارك وهرع اليه منحنيا عليه مهددا :
ـ ماذا تعني . . قل لي ماذا تعني . . ايها الـ . . ؟
وادرك آلن انه تجاوز الحدود، فتراجع الى الوراء ثم قال:
ـ حاذر يا مستر ويكس . . اياك وايذائي .
ـ اخبرني ماذا تعلم . . اخبرني كل شيء .

وامسك شارك آلن من كتفيه وهزه بضراوة فقال هذا :

ـ حسنا . كان ذلك في الحفلة .

ـ هل كانت اليس في الحفلة ؟

ـ نعـــم .

ـ وماذا كانت تصنع هناك ؟

ـ لست اعلم .. اعني .. لا شيء .

وجذبه شارك من كرسيه واوقفه بخشونة عـــلى قدميه المرتجفتين صارخا به :

ـ اخبرني !

ودمدم العجوز :

ـ انها انها تنزهت في الباحة مع جيمي مونرو .

وامسكه شارك بكتفيه في هذه المرة وهز البقال المذعور وكانه كيس قائلا :

ـ اخبرني ماذا فعلا ؟

ـ لست ادري يا مستر ويكس .

فعاد شارك يصرخ فيه : اخبرني .

ـ حسنا تقول الآنسة بيرك .. هكذا قـــالت الآنسة بيرك ، انهما كانا يتبادلان القبل .

ورمى شارك « الكيس » ثم جلس في حالة ذهول وبينما كان يحدق في آلن بنظرات لاهبة كان ذهنه يصطرع بمشكلة دنس ابنته ، ولم يخطر له ان الامر قد توقف عند حدود التقبيل ، ودار بعينيه في ارجاء المخزن بنظرات يائسة .

ورأى آلن عينيه تستقران على مكان البنادق المعروضة في واجهة المخزن فصرخ :

ـ اياك ان تفعل شيئاً يا شارك ، فالبنادق ليست لك .

ولم يكن شارك قد شاهد السلاح غير ان هـــذه الكلمة كانت كافية لتوجيه انتبـــاهه اليه ، فقفز بسرعة وفتح باب الواجهة الزجاجي ثم اخرج بندقية ثقيلة ، نزع عنها بطاقة السعر ودس في جيبه صندوقا من الطلقات واندفع خارجا الى غياهب الظلمة دون ان يلقي بكلمة او نظرة الى صاحب المخزن الذي تناول الهاتف قبل ان يضمحل صوت خطوات شارك .

وفيما كان شارك يسير الى منزل آل مونرو ، كانت افكاره تتسابق بيأس وألم ..

لقد تأكد من شيء واحد بعد ان سار هـــذه المسافة الصغيرة .. وهو انه لم يكن يود ان يقتل جيمي مونرو ، بل لم تخطر له هذه الفكرة الى ان اوحاها له البقال ، ولقـد قام بها دون رويه .. فما يصنع الآن ؟

وحاول ان يتصور ماالذي سيحدث عندما يصل الى بيت آل مونرو ، لربما اضطر الى اطلاق الرصاص على جيمي ، لربمـــا سارت الامور بطريقة قد ترغمه عـــلى ارتكاب جريمة لحفظ كرامته في حقول الفردوس .

وسمع صوت سيارة قادمة ، فقفز الى الغـــابة حتى مرت بهديرها من قربه .

وتنبه الى انه سيصل الى المكان بسرعة ، ثم .. انه لم يكن

يكره جيمي ، لم يكن يخامره شيء نحوه الا ذلك الشعور الاجوف الذي انتابه عندما سمع بفقد ابنته لعفافها ، وهو الآن لا يستطيع ان يفكر بها الا كميتة .

اصبح الآن يرى اضواء بيت آل مونرو امامه ، وادرك بانه لا يستطيع قتل جيمي ، حتى ولو ضحكوا عليه ، لن يقتل الفتى ، فلم يكن في نفسه الجريمة مكان .

وقرر ان يتطلع الى البوابة ثم يكر عائدا الى بيته .. وقد يسخر الناس منه، لكنه لا يستطيع اطلاق النار على احد.

وفجأة قفز رجل في وجهه من ظل دغل في الظلام وصرخ به :

ـ ارم بهذه البندقية يا ويكس وارفع يدك .

ورمى شارك البندقية على الارض في شيء من الخضوع الفاتر، لقد عرف ان الصوت صوت « الشريف » ضابط الامن في المقاطعة ، فناداه : هالو جاك .

ورأى حوله أناسا كثيرين .. ولمح في المؤخرة وجه جيمي المذعور . كما كان هنالك بيرت مونرو ، والخوف ظاهر عليه بجلاء ، فلما رأى شارك صاح به :

ـ لماذا اردت قتل جيمي . . انه لم يؤذك . . لقد اخبرني آلن بالهاتف عن نيتك ويتوجب عليّ ان اضعك حيث لا تستطيع ايذاء احد .

فاجابه الشريف :

ـ لن تستطيع ان تسجنه فهو لم يفعل شيئا، وكل ما تستطيع عمله هو ان تجعله يوقع كفالة مالية بعدم اخلاله بالامن .

ورد بيوت بصوت مرتجف :

ـ هل الامر كذلك اذن ؟ اعتقد انه يجب علي ان اقوم بما اشرت به .

ـ من الافضل لك ان تطلب كفالة كبيرة .. فشارك رجل ذو ثروة .. ثم تعال معي لنأخذه الى ماليناس الآن ، وهنالك تتقدم بدعواك .

وفي صباح اليوم التالي ، ولج شارك ويكس الى بيته بخمول ، وارتمى على فراشه ، وكانت عيناه بليدتين تعبتين ، غير انه تركهما مفتوحتين ، وتراخت ذراعاه قربه كذراعي جثة لا روح فيها ، وبقي على وضعه هذا ساعات عديدة .

وكانت كاترين قد لمحته داخلا الى المنزل وهي في الجنينة، وسرت سرورا مريرا لمرأى كتفيه المنحنيتين ، ورأسه المحمول عليهما بتعب واجهاد . غير انها عندما ذهبت لتهيىء الغداء سارت على رؤوس اصابعها وانذرت أليس بوجوب الاعتصام بالهدوء .

وعند الساعة الثالثة اطلت كاترين على باب غرفة النوم وقالت :

ـ ان أليس بخير ، كان يجب عليك ان تسألني قبل ان تقوم بأي شيء .

وبقي شارك على حالته دون ان يتحرك او ينبس ببنت شفة .

ـ الا تصدقني ؟

وراعها فقدانه لحيويته ، فتابعت :

ـ اذا كنت لا تصدقني ، فسنعرضها علــى الطبيب ، وسأستدعيه الآن اذا كنت لا تصدق .

واجـابها شارك دون ان يتحرك ، وكأنه جثة تتكلم :

ـ انني اصدقك .

واذ كانت كاترين تقف في مـــدخل الغرفة سرى فيها شعور ما عانته قبل الآ ن ، ففعلت ما لم تفكر به وتتصوره اطلاقا في حياتها وجاءتها اشراقة مـــن الفكر ، قوية ملهبة ، فجلست على طرف الفراش ، وبيد ثابتة اخذت رأس شارك ووضعته في حضنها .. كانت غريزتها هي التي تعمل ، وبنفس الغريزة القوية مسحت بيدها على جبهته النابضة .. كان جسده يبدو مسحوقا من الخذلان ، ولم يتحرك بصره عن السقف،غير انه تحت تأثير الحال هذه ابتدأ يتكلم بتقطع وبصوت رتيب:

ـ ليس لدي اي دراهم ولقد اخـذوني وطلبوا مني تعهدا بعشرة آلاف دولار . كان علي ان اخبر القاضي .. لقد سمعوا كلهم .. لقد عرفوا جميعا انني لا املك مـالا وانني لم اكن املك ثروة في يوم من الايام .. هل تفهمين مـا اعني .. ؟ لم يكن ذلك السجل اكثر من كذبة .. كل شيء فيه كان كذبا .. انا الذي اصطنعه . والآن لم يبق من لا يعرف ذلك فقد كان علي ان اخبر القاضي .

وربتت كاترين بيدها عـلى رأسه بلطف ، بينما ظلت تلك الومضة الذهنية العبقرية تنمو في نفسها بقوة اشد .. واحست بانها اكبر من الدنيا .

كانت الدنيا كلها في حضنها، وهي تمد هذه الدنيا بالعزاء . وكأن الشفقة جعلتها اعظم مما هي بنية ، وحن صدرها الرحيم لاحزانه الكثيرة ، فانصتت اليه وهو يتابع كلامه :

ـ لم اكن اقصد ان اؤذي احدا . وما كنت خليقا بان اطلق النار على جيمي ، غير انهم قبضوا علي قبل ان اتمكن من العودة ، اعتقدوا انني قصدت قتله .. والآن كل الناس تعلم انه ليس لدي اي مال .

واضطجع بارتخاء محدقا الى الاعلى . وفجأة تحولت العبقرية في كاترين الى قوة ، وتدفقت تلك القوة في جسدها وغمرتها .. وفي لحظة ، ادركت ما هي .. ومـاذا تستطيع ان تصنع . فاذا هي سعيدة مغتبطة .. وجميلة جدا فقالت :

ـ لم تحبك الايام بالحظ ، لقد امضيت كل حياتك في هذه المزرعة ولم تتح لك الفرصة.. والا فمن ادراك انك لا تستطيع ان تجمع مالا .. اعتقـــد انك تستطيع .. بل اعرف انك تستطيع .

كانت تعلم بانها تستطيع ان تفعل ما فعلت وادركت وهي جالسة على طرف السرير قدرتها تلك . وادركت ان كل ما في حياتها كان موجها نحو هذه اللحظة . احست في هذه اللحظة بانها الهة تصنع الاقدار ولم تعجب من ان جسده بدأ يتصلب تدريجيا وتابعت تربيتها على جبهته وقالت كأنما تهدهده :

ـ سنرحل من هنا .. سنبيع هذه المزرعة ونرحل من هنا.. وعنـــد ذلك ستتاح لك الفرصة التي لم تعطها قبل اليوم ..

وسترى .. اني اعلم من انت .. واني اؤمن بك .

وغابت عن عيني شارك تلك النظرة المرعبة الميتة ووجد جسده القوة كي يدير نفسه .

نظر الى كاترين واكتشف كم كانت جميلة في تلك البرهة .. وبينما هو يحدق بها ، انتقلت اليه اشراقتها العبقرية فضغط برأسه على ركبتيها ..

واحنت رأسها ونظرت اليه . بدأت تشعر بالخوف اذ ان القوة بدأت تغادرها . وفجأة استوى شارك على الفراش وقد نسي كاترين غير ان القوة التي اعطته اياهـــا كانت تشع من عينيه وهو يقول :

ـ سأرحل باسرع ما يمكن ، سأرحل حالما ابيع المزرعة ، سأحصل على بعض المـــال وستتاح لي الفرصة اذ ذاك فأري الناس ما انا . . .

يكتنف الغموض أصل تولا ريشيتو ، فقد كانت قصة اكتشافه مجرد اسطورة ابى اهالي حقول الفردوس تصديقها تماماً كرفضهم الاعتقاد بوجود الاشباح.

كان لدى فرانكلين جوميز اجير هندي مكسيكي يدعى بانشو . وكان هذا الاجير يذهب الى مونتيري مرة واحدة كل ثلاثة شهور حاملاً ماوفره ليعترف بخطاياه ويكفر عن ذنوبه ويتحلل منها ثم ليسكر ، فاذا بقي بطريقة ما خارج السجن ، كان يخرج من الحانة عندما تقفل ابوابها ، فيمضي



الى عربته وما ان يستقر بداخلها حتى ينام وينطلق به الجواد عائداً الى المزرعة ، فيصل اليها قبل طلوع الشمس في الوقت الذي يكون فيه طعام الفطور جاهزاً ، فيتناوله بانشو ثم يذهب الى عمله . وكان بانشو يصل دائماً الى المزرعة وهو نائم في داخل العربة . لهذا السبب فقد اثار اهتماماً كبيراً، في صبيحة يوم من الايام،عندما ساق العربة الى حظيرة الحيوانات بسرعة فائقة ولم يكن تلك المرة مستيقظاً فحسب بل كان يصيح بأعلى صوته .

ارتدى جوميز ثيابه ثم خرج ليستطلع اجيره القصة التي تجري على الوجه التالي بعد لحم عناصرها المتفككة المتضاربة :

كان بانشو عائداً الى البيت وهو « صاح واع » للغـــاية كالعادة !! ولدى اقترابه من ارض بليك ، طرق سمعه صوت طفل يبكي في سد نبات القصعين وبجانب الطريق . فأوقف العربة واتجه نحو مصدر الصوت ليتحرى الامر لان المرء لا يصادف كثيراً أطفالا كهذا الطفل ولقد وجد طفلا صغيراً ملقى في مكان واضح وسط نبـــات القصعين وكان الطفل وليداً في الشهر الثالث من عمره كما يبـدو من حجمه . فحمله واشعل عوداً من الثقـــاب ليتأكد مما وجد . وعندها ارتاع وهو يرى الطفل يغمز بعينيه بخبث ويقول بصوت عميق :

ـ انظر ! لدي اسنان حادة للغاية .

ولم يتطلع بانشو الى حمله ، انما قذف بذلك الشيء من يده وقفز الى العربة وانطلق بها ، وهو يسوط الحصان الهرم بطرف سوطه وينبح كالكلب .

شد جوميز على لحيته طويلا وهو يفكر ملياً . فقد كان يعرف طبيعة الرجل ويعلم ان الجنون او الهستيريا لا يتملكانه حتى ولو كان تحت تأثير الشراب . ووجد ان مجرد صحوه انما يدل على انه لا بد ان يكون ثمة شيء ما في سد القصعين . وفي النهاية اسرج جوميز جواده وانطلق به الى المكان الذي حدده بانشو ، وسرعان ما وجد الطفل وعاد به الى المزرعة .

على ان الرضيع لم يتكلم من جديد قبل زهاء ثلاث سنوات. وقد تبين عند فحص فمه انه كان خالياً من الاسنان . ومع ذلك فان بانشو لم يقتنع بأن الطفل لم يوجه اليه تلك العبارة المرعبة .

وكان الطفل غريب الشكل . فكانت ذراعاه قصيرتين مفلطحتين . اما ساقاه فكانتا طويلتين مفككتي المفاصل . وكان رأسه الضخم يرتكز على كتفيه العريضتين المشوهتين ، فقد خلا من عنق يفصل بين رأسه وكتفيه . وكان وجهه المسطح مشفوعاً بجسده الشاذ داعياً لتسميته باسم تولاريشيتو ، اي « الضفدع الصغير » غير أن جوميز كان بالرغم من ذلك يناديه بالذئب لأن في وجهه مظاهر الدهاء العريق التي يراها المرء في وجه الذئب .

ولم يكن بانشو يوافق على هذه التسمية فكان يعترض مذكراً سيده بشكل الطفل وطبيعة تكوين ساقيه وذراعيه وكتفيه .

وهكذا لصق بالطفل اسم تولاريشيتو .

هذا ولم يعرف من هو الشخص الذي تخلى عن هذا المخلوق الصغير المشوه . الا ان جوميز قبله في ملكوت مزرعته حيث اخذ بانشو على عاتقه مهمة تربيته والمحافظة عليه ، مع انه لم يتخلص من خوف يسير يخامره حيال الطفل ، ولم تستطع الايام ولا السنين ان تمحو من مخيلتـه ذلك الاثر الذي خلفته تلك العبارة التي نطق بها تولاريشيتو في وجهه اول مرة .

وكبر الطفل تولاريشيتو بسرعة الا ان عقله توقف عن النمو بعد بلوغه الخامسة ولكنه لما بلغ السادسة كان يستطيع ان يقوم بعمل رجل بالغ ، وكانت اصابعه احذق واقوى من اصابع معظم الرجال ، وهكذا استثمروا في المزرعة اصابع تولاريشيتو ، فما كانت من عقدة صلبة تستعصي عليه او تتحداه طويلاً . وفي الوقت ذاته كانت يداه الحانيتان تمتد منهما اصابع رقيقة في معاملة النبات ، فما عرف عنها انها آذت شتلة صغيرة او خدشت غصناً وفي الوقت ذاته كـانت اصابعه من العتو والقسوة بحيث تستطيع ان تفصم دون جهد رأس ديك الحبش عن جسده .

وبالاضافة الى ذلك كانت لتولاريشيتو موهبة تثير الاعجاب فقد كان يستطيع بظفر ابهامه ان ينحت من البلاط تماثيل دقيقة لمختلف الحيوانات .

ولقد احتفظ فرانكلين جوميز هنا وهناك في بيته بكثير من تماثيل الذئاب والاسود الجبلية والديكة والسناجب الصغيرة

التي نحتها تولاريشيتو ، وعلق بالسلك من السقف صورة طولها قدمين لصقر يحلق نحته المخلوق العجيب .

اما بانشو الذي ما اعتبر الغلام مخلوقاً تام الانسانية ، فقد رد موهبته في النحت الى صنف من الملامح الشيطانية يمكن رده بسهولة الى منشئه الخارق للطبيعة .

واذ لم يكن سكان حقول الفردوس يؤمنون بالمنشأ الشيطاني لتولاريشيتو فانهم مع ذلك لم يكونوا ليرتاحوا في حضرته ، فقد كانت عيناه مغرقتين في الهرم والجفاف وكانت تبدو على وجهه سحنة سكان الكهوف ، كما ان قوة بنيته الهائلة مشفوعة بمواهبه الغامضة الغريبة ابعدته عن الاطفال الآخرين واثارت قلق الرجال والنساء .

شيء واحد فقط كان يثير الغضب في نفس تولاريشيتو . . فقد كان يثور ويغضب اذا ما حاول اي شخص ، رجلا كان ام امرأة ام طفلا ، ان يمسك بقلة عناية او يحطم اي شيء من صنع يديه . وكان يهجم بوحشية على المدمر او اللامبالي والشرر يتطاير من عينيه . اما جوميز فقد درج في هذه الاحوال على ان يوثق يدية ورجليه ويتركه لوحده حتى يهدأ وتعود اليه طبيعته الرضية وذلك بعد ان تكررت هذه الحوادث في مناسبات ثلاث كاد تولاريشيتو خلالها ان يفتك بالشخص الذي اقدم على تدنيس اعماله .

لم يذهب تولاريشيتو الى المدرسة عندما بلغ السادسة من عمره . وقد ظل لخمسة اعوام بعد ذلك مفتش التعليم الريفي

ومدير المدرسة يعالجان القضية في فترات متقطعة ، اما جوميز فقد وافق على وجوب ذهاب تولاريشيتو الى المدرسة بل انه ذهب الى حد ارساله اليها عدة مرات الا أن تولاريشيتو لم يصل اليها اطلاقاً فقد خشي ان يجد المدرسة مكانا كريهاً . ولذلك كان في كل مرة يرسل فيها الى المدرسة يختفي يوماً او بعض اليوم .

وما استطاعت قوة القانون ان تضع يدها عليه وتضعه في المدرسة الا بعد ان بلغ الحادية عشرة واصبحت كتفاه بقوة المنجنيق ويداه بقوة يدي الجلاد .

وكان جوميز يعلم ان تولاريشيتو لم يتعلم شيئـــاً على الاطلاق الا انه اقام الدليل فوراً على انه يتمتع بموهبة جديدة، فقد كان يستطيع ان يرسم بالمقدرة ذاتها التي كان ينحت بها.

وعندما اكتشفت مسز مارتن،المعلمة ، موهبة تولاريشيتو هذه اعطته قطعة طباشير وطلبت اليه ان يرسم على السبورة قافلة من الحيوانات فأمضى الفتى مـــدة طويلة من الزمن بعد الدوام الدراسي في الرسم . وفي صباح اليوم التالي كانت الجدران تحمل صورة رائعة لمهرجان حيواني يشتمل على جميع الحيوانات التي وقعت عليها انظار تولاريشيتو وفوقها تحلق جميع اصناف طيور التلال بينما كانت هناك افعى تدب وراء بقرة وذئب يشمشم عنـــد قوائم خنزير وكانت هناك هرر برية ومعزى وسلاحف ، وقـــد رسم كلا منها بدقة وتفصيل مدهشين .

اجتاحت مسز مارتن عبقرية تولاريشيتو فأثنت على مقدرته وامتدحت اعماله امام التلاميذ ، والقت محاضرة وجيزة تتناول كل حيوان من الحيوانات التي رسمها ، ثم فكرت بينها وبين نفسها بالمجد الذي ستناله لاكتشافها هذه العبقرية وانمائها .

وقال تولاريشيتو لمسز مارتن في احد الايام :

ـ باستطاعتي ان انتج اكثر من هذا بكثير .

وربتت مسز مارتن على كتفيه وقالت :

ـ سيكون لك ما تشاء سترسم كل يوم . . لقد منحك الله موهبة كبرى . .

ثم ادركت اهمية ما قالت فانحنت عليه وتطلعت متفحصة في عينيه بينما رددت ببطء :

ـ انها موهبة عظيمة وهبك الله اياها .

ثم نظرت الى الساعة واعلنت ببشاشة بدء حصة الحساب للصف الرابع .

فهب تلاميذ الصف الرابع وتدافعوا وامسكوا بالمسّاحات لمحو رسوم الحيوانات التي رسمها تولاريشيتو على اللوح ليتسع مكانها لكتابة الارقام . وما كادوا يمرون بالمسّاحة على اللوح مرتين حتى هجم عليهم تولاريشيتو .. وكان ما حدث يوماً مذكوراً فلم تستطع الآنسة مارتن يعاونها طلاب المدرسة جميعاً ان تكبح جماح تولاريشيتو ذلك ان لتولاريشيتو الثائر الغضب قوة رجل بل قوة رجل مجنون . وكان ذلك اليوم حدثاً مشهودا في تاريخ المدرســـة فلقد اسفرت المعركة عن

تحطيم اثاث غرفة الدراسة وقلب المقاعد وإسالة انهار من الحبر ونثر وبعثرة باقات الزهور المهداة الى المعلمة في ارجاء الغرفة بينما تمزقت ثياب السيدة مارتن وُجرح ورُض بقسوة الطلاب الكبار الذين وقع عليهم عبء المعركة . فقد قاتل تولاريشيتو بيديه ورجليه ورأسه واسنانه دون ان يتقيد بأي قانون من الشهامة في القتال حتى انتصر في النهاية . اما مسز مارتن فقد ركنت الى الفرار ومعها جميع الطلاب تاركة المدرسة في حوزة تولاريشيتو . ولما وجد نفسه بمفرده اغلق الباب عليه ومسح الدم من على عينيه ، ثم شرع باصلاح الرسوم التي فقدت بعض معالمها بسبب تعرضها المسح .

وفي تلك الليلة توجهت مسز مارتن الى منزل فرانكلين جوميز ، وطلبت اليه ان يعاقب تولاريشيتو بالجلد .

وهز جوميز كتفيه باستهجان ونظر الى مسز مارتن متسائلا :

ـ اتريدينني حقاً ان اجلد الفتى .

فاجابته بوجه مخدش وفم يقطر حقداً :

ـ طبعاً اريد ذلك ! لو انك شاهدت ما فعله اليوم لما لمتني اذا طلبت اليك ذلك ، اقول لك انه في حاجة الى تأديب .

وهز كتفيه من جديد ثم استدعى تولاريشيتو وانتزع من الحائط سوطاً كبيراً وبينما كان تولاريشيتو يبتسم برقة في وجه السيدة مارتن ساطه جوميز من الخلف بقسوة على ظهره فاخذت يد الآنسة مارتن تتحرك حركات لا ارادية كما لو كانت تشارك جوميز الضرب . وعندما انتهى العقاب تحسس

تولاريشيتو نفسه باصابعه الطويلة المتفحصة وعـاد الى مرقده وهو لا يزال يبتسم .

لقد شاهدت مسز مارتن المرحلة الاخيرة من العقاب والرعب يملأ قلبها ، ولم تتمالك شعورها فاخذت تصرخ قائلة :

ـ انه حيوان . ان الامر كان بمثابة جلد كلب .

وسمع جوميز للهجة احتقار يراوده حيالها ان تظهر على وجهه وقال :

ـ لو كان كلباً لتذلل . . لقد شاهدت الآن العقاب الذي انزلته بالفتى يا مسز مارتن . تقولين انه حيوان ، ولكنه حيوان طيب . لقد طلبت اليه ان يصور رسوماً للحيوانات ثم طلبت ازالة هذه الرسوم . ان تولاريشيتو لا يستحسن مثل هذا الاجراء .

وحاولت مسز مارتن ان تقاطعه غير انه مضى يقول :

ـ ان هذا الضفدع الصغير لا يجب ان يذهب الى المدرسة . انه يستطيع ان يقوم باعمال مدهشة بيديه ، بيد ان عقله لا يستوعب الاشياء الصغيرة التي تلقنه اياها المدرسة . انه ليس مجنونا انما هو من اولئك الذين لم يكمل الله خلقهم تماما .

وتابع جوميز كلامه قائلا :

ـ لقد سبق لي ان بحثت هذه الامور مع المفتش فقال لي ان القانون يلزم تولاريشيتو بالذهاب الى المدرسـة حتى يبلغ الثامنة عشرة اي بعد سبعة اعوام من هذا التاريخ . . ان ضفدعي الصغير سيظل طيلة سبعة اعوام في الصف الاول لان

القانون يوجب عليه ذلك وأن الامر ايخرج عن طاقتي .

وقاطعته الآنسة مارتن قائلة :

ـ ان تولاريشيتو مخلوق خطر ، يجب ان يحجز فقد كان يجب ان ترى ما فعله اليوم .

واجابها جوميز بقوله .

ـ كلا يا مسز مارتن ، يجب ان يبقى تولاريشيتو حراً طليقاً فهو ليس مخلوقاً خطراً وما من احد يستطيع ان يوازيه في تعهد الحدائق وما من أحد يستطيع ان يحلب البقر بمثل سرعته ورقته . انه ولد طيب وهو يستطيع ان يروّض حصانا جامحاً دون ان يركبه ويستطيع ان يدرب كلباً دون يسوطه ولكن القانون يقضي بان يجلس في الصف الاول سبعة اعوام ليردد : « قاف ـ طاء ـ هاء ـ قطه ـ لو كان مخلوقاً خطراً لاستطاع ان يقتلني بسهولة عندما كنت اجلده .

وهنا شعرت مسز مارتن بأن هنـاك اموراً كثيرة تتعلق بتولاريشيتو لا تدرك كنهها فكرهت جوميز بسبب هـذه الاشياء . وشعرت بانها كانت وضيعة منحطة بينما كان جوميز كريماً شهماً .

ولما عادت الى المدرسة في صبيحة اليوم التـــالي وجدت تولاريشيتو امامها . وكانت كل فسحة على الحائط مغطاة برسوم الحيوانات .

وقال لها تولاريشيتو :

ـ اترين ؟ هذه هي المزيد من الرسوم ولدي كتاب

يحتوي على صور لحيوانات اخرى كثيرة لم اتمكن من رسمها لضيق المكان .

ولم تطلب المسز مارتن ازالة الرسوم واستعاض الصف عن الكتابة على السبورة بالكتابة على الورق وبعد انتهاء السنة الدراسية قدمت استقالتها وعزت الاسباب لامور صحية .

اما المس مورغان، المعلمة الجديدة، فقد كانت شابة صبية في غاية الجمال ، فرأى شيوخ الوادي انها اصغر مما يجب وانها خطرة الجمال فقد كان بعض الطلاب في الصفوف العليا في السابعة عشرة من عمرهم ولذا فقد كان من المشكوك فيه جديا ان تستطيع معلمة بمثل هذا الصغر وذلك الجمال ان تحافظ على اي نوع من النظام في المدرسة .

لقد جاءت المس مورغان بحماسة شديدة لمهنتها فأثارت دهشة المدرسة اذ انها كانت قد اعتادت على المعلمات العوانس المتقدمات بالسن اللواتي كانت وجوههن تبدو كأنها تعبر عن اقدام متعبة. كانت مس مورغان تجد لذة في ممارسة التعليم فأضفت روحاً جديدة على المدرسة حتى جعلت منها مكانا مثيرا تحدث فيه اشياء غير اعتيادية .

ولقد تأثرت مس مورغان بحالة تولاريشيتو منذ اللحظة الاولى التي رأته فيها ، فقد كانت تعلم كل شيء عنه ، وكانت قد قرأت كتباً واخذت دروساً عن المخلوقات الناقصة التكوين مثله ولما كانت قد سمعت بالمعركة فانها وضعت حداً حول القسم العلوي من السبورة لكي يملأه برسومه ولما فعل اشترت دفترا

ـكبيوا للرسم ، دفعت ثمنه من مالها الخاص ، وقدمته الى تولاريشيتو . فما عاد يهتم بدرس التهجي انما اخذ يعكف كل يوم على دفتر الرسم ليقدم لها كل اصيل رسماً بديعاً لأحد الحيوانات فكانت تأخذه منـــه شاكرة ، وتعلقه على جدار الصف فوق السبورة .

وكان التـــلاميذ يتقبلون بدع مس مورغان بحماسة . واصبحت حصص الدراسة مثيرة بل حتى ان التلاميذ الذين اكتسبوا شهرة يحسدون عليها نتيجة تعجيزهم للمعلمة السابقة قد اصبحوا اقل اهتماما بمشروعهم السري الرامي الى حرق المدرسة فلقد ادخلت الآنســـة مورغان بدعة جديدة جعلت الطلاب يعبدونها ، اذ كانت تقرأ عليهم كل يوم ولمـــدة نصف ساعة مقتطفات من «ايفانهو»و«التعويذة» وقصص الصيد والمغامرات، اجل فما كانت تقرأ لهم قصص الاطفال مثل «قصة الدجاجة الحمراء الصغيرة»او « قصة الذئب والوزة » انما كانت تقرأ لهم القصص المثير الموضوع للكبار وكانت تحسن القراءة ، حتى انها اكتسبت اهتمام اشد الاولاد صلابة فكانوا يتركون اللعب خوفاً من ان يضيع عليهم جزء من القصة التي يتابعونها بشغف واهتمام .

اما تولاريشيتو فلم يكن يكترث لسماع القصص التي كانت تقرأها مسز مورغان فكان يتابع الرسم بعناية وكان بين حين وآخر يتوقف عن الرسم ليختلس نظرة الى مسز مورغان وليحاول ان يفهم كيف يمكن ان تثير اعمال هؤلاء الابطال الغرباء اهتمام اي مخلوق . وكان يعتبر هذه الروايات تاريخاً

لاحداث واقعية والا فلمـــاذا دونوها ؟ كانت الاقاصيص في نظره كالدروس ولذا فلم يكن يصغي اليها .

وشعرت مسز مورغان بعد مدة انها بالغت في تسلية الطلاب الكبار اكثر من اللزوم . كانت شخصياً تحب قصص الجنيات، وتحب ان تفكر باللذين آمنوا بالجنيات ثم شاهدوها بالنتيجة . وغالباً ما كانت تقول ضمن حلقة معارفها من الادباء المتعبين :

ـ ان شطراً من مجاعة اميركا الثقافية يعود الى انكارها الخشن السطحي لوجود الجنيات .

ولمدة اخذت تكرس نصف ساعة من بعد ظهر كل يوم لقراءة اقاصيص الجن .

وهنا طرأ تغيير على تولاريشيتو. فكلما قرأت مس مورغان قصصاً عن الجن والغيلان والحوريات ، كان يوليها بكل اهتمامه ويجمد قلمه في يده . وعندما كانت تقرأ عن عاداتها وحياتها ، كان يترك كل شيء وينحني ليصغي اليها باهتمام بالغ وليلتقط كل كلمة من كلماتها .

كانت مس مورغان تعود بعد انتهاء اليوم الدراسي الى المزرعة التي كانت تعيش فيها مشياً على الاقدام ، وكانت تحب ان تجتاز طريقها وحيدة لتقطع زهرة برية من هنا ولتلقي بحجر على هذا الدغل او ذاك من هناك وتراقب طيور السمن تطير مذعورة ، ولقد فكرت باقتناء كلب طراد يستطيع ان يشاركها ملذاتها وما تهواه من مثيرات ويستطيع ان يفهم روعة الثقوب والاوكار في الارض ودبيب الزحافات على الاوراق الجافة

وسحر التغريد الحزين الذي تطلقه الطيور وتلك الرائحة المرحة التي تتصاعد سراً من الارض .

وتسلقت بعد ظهر احد الايام ربوة مرتفعة لتنقش الاحرف الاولى من اسمها على طرف صخرة كلسية وفي اثنـــاء صعودها جرحت اصبعها وبدلا من ان تنقش اسمها حفرت على الصخر هذه العبارة « هنا كنت » وفي هذا المكان تركت هذه البقعة من دمي » ثم ضغطت باصبعها الدامية على الصخر فانطبعت عليه بقعة صغيرة من الدم .

في تلك الليلة كتبت رسالة قالت فيها « ان اكثر شيء يصبو اليه الانسان بعد ان يؤمن مورد حياته هو ان يترك لنفسه اثراً ولربمـــا برهاناً ، على انه قد عاش فقط وهو يترك برهانه على الخشب ، او على الصخور ، او على حياة غيره من الناس . ان هذه الرغبة العميقة تكمن في نفس كل انسان ، من الطفل او بالاحرى الفتى الذي يكتب كلاماً قذراً على جدار المرحاض الى بوذا الذي يحفر صورته في اذهان شعبه . ان الحياة مغرقة في لا واقعيها . وانا اعتقد باننا نشك جديا في اننا كائنون فعلاً ولذا فاننا نجهد محاولين ان نبرهن على اننا نعيش في الواقع . » واحتفظت مس مورغان بنسخة من الرسالة .

ذات اصيل فيما كانت عائدة الى البيت من المدرسة بعد ان قرأت للتلاميذ فصلا عن العفاريت ، سمعت حركة بين العشب ، ظهر على اثرها رأس تولاريشيتو البشع .

وصرخت مس مورغان :

ـ آه ! لقد اخفتني لا يجب ان تفاجئني هكذا !

ونهض تولاريشيتو على قدميه وابتسم خجلا بينما كان يضرب بقبعته على فخذه . وشعرت مس مورغان فجأة بالرعب يجتاحها ، فقد كانت الطريق مهجورة ، ثم انها كانت قد قرأت قصصاً عن المعتوهين وسيطرت بصعوبة على صوتها المرتجف وسألته :

ـ ماذا . . ماذا تريد ؟

وافتر ثغر تولاريشيتو عن ابتسامة عريضة بينما زاد من التلويح بقبعته .

ـ هل كنت مستلقياً بين العشب ام انك تريد شيئاً ما ؟

وجاهد الغلام كيما يتكلم ثم انكفأ متحصناً وراء ابتسامته فقالت وقد استعدت فعلا للهرب :

ـ ماذا تريد ؟

وجاهد الغلام لسانه من جديد فقال :

ـ كنت اود ان اسألك عن هؤلاء الناس .

فسألته وهي تغمغم .

ـ اي اناس تعني ؟

ـ هؤلاء الذين ورد ذكرهم في الكتاب .

وضحكت مس مورغان بارتياح حتى شعرت كما لو كان شعرها يكاد ينفلت من مؤخرة رأسها ثم قالت :

ـ هل تعني الاقزام والعفاريت حرسة الكنوز ؟

وطأطأ برأسه ، علامة الايجاب .

ـ وماذا تريد أن تعرف عنها ؟

فاجابها تولاريشيتو بصوت ذي رنة رتيبة لم ترتفع ولم تنخفض:
- لم أر في عمري احدها .
- اوه ان القليلين يرونها كما اعتقد .
- ولكنني عرفت اموراً عنها .
وبرقت عينا مس مورغان بالاهتمام وما لبثت ان قالت :
- هل عرفت عنها شيئاً ، ومن حدثك عنها ؟
فاجاب تولاريشيتو :
- لا احد .
فقالت :
- ما دمت لم ترها ولم يحدثك عنها احد ، فكيف تعرف عنها اذن ؟
واجاب بقوله :
- انني اعرف فقط ، ولربما سمعتها تتكلم !
وفكرت مس مورغان : « لماذا يجب ان انكر وجود الاقزام والعفاريت على هذا الولد الشاذ الناقص الخلقة .
ألن تكون حيـــاته امتع واسعد لو اعتقد بوجودها ، وما هو الضرر الذي سيحدث لو انه آمن بها ؟
وسألته :
- هل فتشت عنها ؟
- كلا لم افتش . . كنت اعرف بوجودها فقط . ولكني سأقوم بالتفتيش عنها منذ الآن .
ووجدت مس مورغان نفسها منجرفة بسحر الموقف الذي

تجابه فهو يقدم لها قرطاساً تكتب عليه وصخراً تنحت منه قصة ستكون اكثر واقعية من اية قصة نشرت في اي كتاب، وسألته :

ـ اين ستبحث عنها ؟

فأجاب :

ـ سأحفر ثقوبا وحفراً .

ـ ولكن الاقزام والعفاريت لا تظهر الا في الليـــل يا تولاريشيتو ، ولذا يجب ان ترقبها في الليل ، ويجب ان تأتي الي وتخبرني اذا وجدت احداً منها . هل تفعل ذلك ؟

فوافق قائلا :

ـ سأفعل .

وتركته يتابعها بانظاره ومضت في طريقها . وهي تتصوره وهو يبحث عن العفاريت ليلا وسرها هذا التخيل . فقد يجد العفاريت ، وقد يعيش معها ويتحدث اليها ، لقد استطاعت بكلمات قليلة ان تجعل حياته غير واقعية ومدهشة للغاية ، ومنفصلة عن البلهاء المتشردين حوله . وشعرت بانها تغبطه من اعماقها على تنقيبه عن العفاريت .

وفي ذلك المساء ارتدى تولاريشيتو سترته واخـــذ رفشا وهم بالخروج غير ان بانشو العجوز رآه ، وهو يغادر مستودع الادوات فسأله :

ـ الى اين أيها الضفدع الصغير ؟

اخذ تولاريشيتو يراوح بقدمه بعصبية لهذا العائق وقال :

لـ‌لِيا اخرج في الليل دئماً فهل هذ شيء جديد ؟
ـ ولكنك تحمل رفشاً فهل تنقب عن ذهب مثلا ؟
وتصلب وجه الغلام فقد كان جاداً في غرضه وقال :
ـ انني ذاهب لانقب عن الناس الذين يعيشون في باطن الارض .
اذ ذاك امتلأ بانشو بانفعال مذعور وقال :
ـ لا تذهب ايها الضفدع الصغير ، استمع الى صديقك العجوز، الى ابيك بالرب، اسمع نصيحتي ولا تذهب . لقد وجدتك في حقل القصرين وخلصتك من الشياطين اقربائك . انك الآن الأخ الصغير للمسيح . لا تعد الى شعبك . استمع الى نصيحة رجل كبير ايها الضفدع الصغير .
وحدق تولاريشيتو الى الارض بشدة واخذ يعالج افكاره القديمة بهذه المعلومات الجديدة وقال لبانشو :
ـ لقد قلت ان الشياطين هم اهلي ، واني لست كالآخرين هنا او في المدرسة ، وانا ادرك ذلك . انني اشعر باشتياق الى اهلي الذين يعيشون في باطن الارض حتى انني لا امر بجحر سنجاب الا واتمنى ان الج اليه واختبىء فيه . ان قومي مثلي ولقد نادوني ، فيجب ان اذهب اليهم يا بانشو .
وهنا رجع بانشو الى الوراء رافعاً اصبعين متعاقدين وقال:
ـ اذهب اذن الى ابيك الشيطان فأنا لست صالحاً بما يكفي لاقاوم هذا الشرير فمثل ذلك يقتضي قديساً . ولكن انظر ، قد رسمت اشارة الصليب ضدك وضد قومك جميعهم .

قال هذا ورسم اشارة الصليب الواقية في الهواء بينما علت فم تولاريشيتو ابتســـامة تنم عن الحزن ثم ادار ظهره واتجه ناحية التلال .

وخفق قلب تولاريشيتو من شدة الفرح لعودته الى موطنه الحقيقي . لقد قضى حياته وحيداً غريباً منبوذا وها هو الآن عائد الى موطنه . وكما هو الحال دائماً فقد سمع الاصوات التي تنبعث من الارض – رنين الاجراس المعلقة في رقبة الابقار ، واصوات ملايين الحشرات وصفير طيور السمن وزمجرة الذئب – . بيد ان تولاريشيتو كـــان يتنصت الى صوت آخر ، صوت حركة المخلوقات ذات القدمين والى الاصوات الهامسة الصادرة عن مخلوقات خفية تعيش في باطن الارض .

وتوقف في احدى المرات ونادى « ياأبت ، لقد عدت الى البيت » ولكنه لم يسمع جوابا . وهمس في اوكار السناجيب «اين انتم يا بني قومي ؟ لقد عاد تولاريشيو الى وطنه ! » ولكنه لم يسمع جوابا ، والأسوأ من ذلك انه لم يشعر بأن العفاريت قريبون منه . لقد أحس بأن ظبياً وغزالا كانا يقتاتان بالقرب منه ، وعرف ان هرة برية كانت تطارد ارنباً خلف الدغل على الرغم من انه لم يكن يستطيع ان يرى هذه الحيوانات . ولكنه لم يتلق جواباً من العفاريت .

وهنا طلع القمر من وراء التلال فأخذ تولاريشيتو يحدث نفسه في همس ابتهالي : « ان الحيوانات ستخرج الآن لترعى وكذلك سيخرج سكان العالم السفلي . »

وكان الحرش الذي يطل على واد صغير، قد قام مكانه بستان فواكه باشجار كثيفة الاوراق ومزرعة خصبة هي مزرعة بيرت مونرو ، وكان تولاريشيتو كلما اقفرت المزرعة من السهار يأتي الى هذا البستان ليفترش الثرى تحت الشجر ويعد النجوم .

لقد ادرك في اللحظة التي دخل فيها البستان انه كان يقترب من موطنه . ولم يكن يسمع العفاريت الا انه كان يعلم انها قريبة منه . فنادى عليها مرة بعد اخرى ، غير انهـــا لم تأت اليه فقال لنفسه معللا عدم خروجها : « لعلها لا تحب الخروج في ضوء القمر » .

عند جـــذع شجرة اجاص ضخمة حفر تولاريشيتو حفرة عميقة جداً بعرض ثلاثة اقدام وظل يحفر طيلة ليله متوقفاً بين الفينـــة والاخرى ليتسمع برهة ثم يواصل الحفر في الارض الرطبة . وعلى الرغم من انه لم يسمع شيئاً فقد كان واثقاً من انه يقترب من مكان العـــالم السفلي . ولم يتوقف الا عندما ظهرت خيوط الفجر ، فانسحب نحو الادغال لينام .

وفي ضحى اليوم التـــالي خرج بيرت مونرو من منزله ليلقي نظره على فخ كان قد نصبه لاصطياد الذئاب فوجد الحفرة التي حفرها تولاريشيتو عند جذع الشجرة فأخذ يشتم ويصيح :

ـ يا للشيطان ! لا بد ان الاولاد كانوا يحفرون خندقاً وهذا عمل خطر اذ قد ينهار الخندق عليهم او ان احدهم قد يقع فيه ويؤذي نفسه .

عاد الى البيت واخذ رفشـــاً وطمر الحفرة ثم نادى اصغر

ابنائه وسأله عما اذا كان يحفر في البستان فأجاب بالنفي .

ـ هل تعلم من كان يحفر ؟

ـ كلا .

ـ حسناً ، لقد قام شخص بحفر حفرة عميقة في البستان وهذا عمل خطر ، قل للأولاد ان لا يحفروا والا فقد يتعرضون لخطر انهيار الحفرة عليهم .

ولما اقبل الليل ، خرج تولاريشيتو من مكانه بين الادغال ليتابع الحفر ولما وجد ان الحفرة مملوءة بالتراب زمجر غاضبا وما لبث ان غير فكره وضحك قائلا : « لقد كانوا هنا دون شك ولكنهم خافوا لانهم لم يعرفوا من الذي حفرها . فملأوها بالتراب . ولكنني سأختبيء هذه المرة وعندما يخرجون ليملأوا الحفرة مرة ثانية سأقول لهم من أنا وسيحبونني عندئذ » .

وبدأ تولاريشيتو يفرغ الحفرة واستطاع ان يعمقها ، وقبل بزوغ الفجر عاد واختبأ بين الادغال وانبطح يتلصلص .

خرج بيرت مونرو قبل الفطور ليلقي نظرة على الفخ مرة ثانية ، فوجد الحفرة فصاح قائلا :

ـ يا للشيطان ! لقد عاودوا الحفر ثانية ولا بد ان ماني مشترك معهم في هذه العملية .

فحص بيرت الحفرة لحظة ، وعندما بدأ يدفع التراب بقدمه الى داخلها ، سمع زمجرة وحشية اذعرته ، فقد هجم تولاريشيتو عليه ، وهو يقفز مثـــل الضفدعة على ساقيه الطويلتين ويلوح برفشه كالعصا .

ولما حضر جيمي مونرو ليناردي والده الى الفطور وجده ملقى على الارض والدم ينزف من فمه وجبينه ، وكان التراب يتطاير من الحفرة بكثرة .

واعتقد جيمي ان شخصاً ما قد قتل اباه وان هذا الشخص يحفر قبرا ليدفنه . فركض الى البيت وقد تملـــكه الخوف الرهيب ، واستدعى ، هاتفياً ، فريقاً من جيرانه .

وزحف ستة رجال على الحفرة فوجدوا تولاريشيتو الذي قاتلهم كالاسدالجريح واستمر يقاوم بكل ما اوتي من قوة ، حتى ضربوه على راسه برفشه وبعد ذلك سقط فاقد الوعي ؛ فشدوا وثاقه وزجوه بالسجن .

وفي ساليناس قامت لجنة من الاطباء بفحص تولاريشيتو . وكان يبتسم بوداعة كلما وجه احد الاطباء سؤالا اليه ولكنه ما كان ليجيب عليه . أما فرانكلين جوميز فقد اخبر الاطباء بكل ما يعرفه وطلب ان يوضع الفتى تحت وصايته .

ولكن القاضي رفض طلب جوميز قائلا :

ـ لا يمكننا ان نفعل ذلك . انت تقول انه فتى صالح ، لكنه بالامس فقط حاول قتل احد الرجال . وعليه يجب ان توافق على انه لا يمكننا ان نتركه مطلق السراح اذ سينجح عاجلا ام آجلا في قتل احد الاشخاص .

وبعد مداولة قصيرة ، اصدر القاضي حكما يقضي بادخال تولاريشيتو في مصح للمجانين الخطرين في نابا .

كانت هيلين ديفنتو طويلة القامة حادة القسمات حزينةالعينين . وكانت ذات حياة تمازجت بالمصائب واتسمت بها . فقد بدت ، وهي في الخامسة عشرة ، كالارملة بعد ان تسممت قطتها الفارسية . وحزنت عليها ستة شهور ، في غير ما تظاهر بل بصوت مستكين وحركات هادئة . وعندما توفي والدها في نهـــاية شهور الحداد الستة ، استمر حدادها دون انقطاع . وكان واضحاً انها متعطشة للفواجع فأغرقتها الحياة بها .



وفي الخامسة والعشرين تزوجت هيوبرت ديفنتر فان ، وهو صياد متورد الوجه كان يقضي ستة شهور من كل سنة محاولا اصطياد هذا النوع او ذاك من المخلوقات . وبعد ثلاثة شهور من زواجه اصاب نفسه بطلق ناري عندما تعثر بعليقة . وكان هيوبرت رجلاً كيّساً شهماً . ففيما كان يحتضر تحت شجرة سأله احد رفاقه هل يريد ان يترك اية رسالة لزوجته . فأجاب هيوبرت :

ـ اجل ، قل لها ان تعلقني في المكتبة بين الايل وكبير القرن ، وقل لها اني لم اشتر هذه الطريدة من الدليل .

اغلقت هيلين فان ديفنتر قاعة الاستقبال على ما فيها من تذكارات الصيد ، وكرست الغرفة بعد ذلك لروح هيوبرت ، وظلت الستائر مسدلة . وكان الجميع لا يتكلمون الا همساً في قاعة الاستقبال . ولم تبك هيلين لانه ليس من طبيعتها ان تبكي ولكن عينيها ازدادتا اتساعاً وراحت تكثر من التحديق بالشكل المألوف عن الذين يتيهون بنظراتهم عبر الازمنة المنصرمة . وكان هيوبرت قد خلف لها المنزل على « التل الروسي » في سان فرنسيسكو وثروة ضخمة .

وكانت ابنتها هيلدا ، التي ولدت بعد ستة شهور من مقتل هيوبرت ، طفلة جميلة كالدمية ، لها عينا والدتها الواسعتان . الا ان هيلدا لم تكن يوماً على غاية ما يرام . فقد اصيبت بجميع امراض الاطفال بسرعة مدهشة . واصبح نزقها ، الذي تبلور في البداية بصراخها ، نزقاً هداماً

حالما اصبحت تستطيع التنقل ، فأخذت تحطم كل ما يعترض طريق غضبها من الاشياء القابلة للتحطيم . وكانت هيلين فان ديفنتر تحاول دائماً تهدئتها وتدليلها ولكنها لم تفلح الا في زيادة نزقها .

وعندما بلغت هيلدا السادسة اطلع طبيب العائلة الدكتور فيليبس السيدة فان ديفنتر على ما اشتبهت به قبل مدة طويلة ، فقال :

ـ يجب ان تدركي ذلك . ان عقل هيلدا ليس تماماً على ما يرام . واقترح ان تأخذيها الى طبيب نفساني .

واتسعت عينا الام السوداوان ألما وهي تسأله :

ـ هل انت متأكد يا دكتور ؟

ـ كل التأكد . اني لست اخصائياً وعليك ان تأخذيها الى من هو اقدر مني .

فأشاحت هيلين بعينيها عنه وقالت :

ـ فكرت بذلك ايضاً ولكنني لا استطيع اخـــذها الى رجل آخر . لقد كنت تعتني بنا دائماً . وانا اعرفك . ولن استطيع ان اثق برجل آخر .

وانفجر الدكتور فيليبس صائحاً :

ـ ماذا تعنين بقولك انك لن تثقي بأحد ؟ الا تدرين اننا قد نستطيع شفاءها اذا تداركناها في الحال ؟

وارتفعت بدا هيلين قليلا ثم تراخنا بيأس وقالت :

ـ انها لن تشفى ابداً يا دكتور . لقد ولدت في وقت غير

بهاسب . فلقد كانت وفاة والدها اقسى مما احتملها . ولم تكن
ذوي القوة لحمل طفلة كاملة .
ـ اذن ما الذي تنوين عمله ؟ ان فكرتك سخيفة اذا سمحت
لي بهذا التعبير .
ـ وما الذي يمكن عمله يا دكتور ؟ استطيع ان انتظر
وآمل . اني ادرك الوضع ولكنني لا استطيع عرضها على
رجل آخر . سأكتفي بمراقبتها والعناية بها . هكذا ستكون
حياتي .
وابتسمت بحزن وعادت يداها للارتفاع ، وقال الطبيب
بلهجة متوترة :
ـ يبدو لي انك تفرضين المشقات على نفسك .
ـ اننا نأخذ ما يعطى لنا . وانني لأستطيع التحمل . انني
متأكدة من ذلك وفخورة به . ما من فاجعة تستطيع سحق
قوة احتمالي . ولكن هنــــاك شيئاً واحداً لا استطيع تحمله
يا دكتور وهو سلب هيلدا مني . سأحتفظ بها معي وستأتي
اتراها كالعادة ولكن لا يجب ان يتدخل احد آخر في الامر .
وغادر الدكتور فيليبس المنزل مشمئزاً . فقد كان احتمال
المرأة الواضح العقيم يثيره دائماً . وفكر قائلا لنفسه :
«لو كنت القدر لاستسلمت لاغراء تحطيم مقاومتها المستكينة» .
ولم تمض مدة طويلة على هذا حتى اخذت الرؤى والاحلام
تتراءى لهيلدا فقد حاولت مخلوقات ليلية مفزعة ، ذات مخالب
ايبابب ، قتلها اثناء نومها . وقرصتها اقزام بشعة وصرفت

باسنانها في اذنها . واعتبرت هلين فان ديفنتر هـــذه الاحلام شخصيات جديدة جاءت لتجربتها .

وصاحت هيلدا في صباح احد الايام :

ـ جاء نمر وجر الغطاء عني .

ـ يجب الا تدعيه يخيفك يا حبيبتي .

ـ ولكنه حاول ان يعضني عبر الغطاء يا امي .

ـ سأجلس الى جانبك الليلة حتى لا يعود النمر اليك .

واخذت تجلس الى سرير الطفلة ليلياً حتى الفجر وازدادت عيناها تألقاً محموماً بتأثير مقاومتها الجنونية . ولكن كان ثمة امر واحد يزعجها اكثر من الاحلام . فقد بدأت هيلدا تروي الاكاذيب .

ـ ذهبت الى الحديقة هذا الصباح يا امي . وكان هناك كهل جالس في الشارع . وقد طلب مني الذهاب الى منزله فذهبت . وكان لديه فيل ذهبي كبير فتركني امتطيه .

وكانت عينا الفتاة تشردان بعيداً وهي تروي قصتها .

وقالت لها والدتها بتوسل :

ـ لا تروي مثل هذه الاشياء يا حبيبتي . انك تعرفين انك لم تفعلي شيئاً من هذا .

ـ ولكني فعلت . وقد اعطاني الكهل ساعة . سأريك اياها . انظري .

ومدت يدها بساعة يد مرصعة بالماس . وارتجفت يدا هيلين فزعاً وهي تأخذ الساعة . وفقد وجهها للحظة مظهر المقاومة وحل الغضب مكانه :

ـ من أين جئت بها يا هيلدا ؟
ـ اعطاني اياها الكهل يا امي .
ـ اخبريني اين عثرت عليها !
ـ لقد اعطاني الكهل اياها .

وكان محفوراً على ظهر الساعة الحرفان الاولان من اسم لا تعرفه هيلين التي حدقت بيأس بالحرفين المحفورين وقالت بخشونة :

ـ ستأخذ ماما هذه الساعة .

وفي تلك الليلة تسللت الى الحديقة ودفنت الساعة في حفرة عميقة . وفي ذلك الاسبوع نصبت سوراً حديديا حول الحديقة ولم تعد تسمح لهيلدا بالخروج وحيدة بعد ذلك .

وعندما بلغت هيلدا الثـــالثة عشرة هربت من المنزل . واستخدمت هيلين شرطيين سريين خصوصيين للعثور عليها . وفي نهاية اليوم الرابع من اختفاء هيلدا عثر عليها احد الشرطة نائمة في مكتب عقـــاري مهجور في لوس انجلوس . واستلمت هيلين ابنتها من مخفر الشرطة وسألتها :

ـ لماذا هربت يا حبيبتي ؟
ـ اردت ان اعزف على البيانو .
ـ ولكن لدينا بيانو في البيت . فلماذا لم تعزفي عليه ؟
ـ أردت ان اعزف على النوع الآخر ، النوع الطويل .

واجلست هيلين هيلدا على حضنها وضمتها بقوة .

ـ وماذا فعلت بعد ذلك يا حبيبتي ؟
ـ خرجت الى الشارع حيث طلب مني رجل ان ارافقه في

سيارته . وقد اعطاني خمسة دولارات . ثم عثرت على بعض الغجر وذهبت للعيش معهم وقـد جعلوني ملكتهم . وبعد ذلك تزوجت غجريا وكنا على وشك الحصول على طفل ولكنني تعبت فنمت وجاء شرطي فأخذني .

واجابت هيلين :

ـ يا حبيبتي المسكينة . تعرفين ان هذا غير صحيح ولا شيء منه صحيح .

ـ ولكنه صحيح يا ماما .

واستدعت هيلين الدكتور فيليبس :

ـ انها تقول انها تزوجت غجريا . هل تظن انها فعلت هذا؟ انني لا استطيع تحمل ذلك .

وتفحص الطبيب الفتاة الصغيرة بعناية . وبعد الانتهاء من فحصها قال بما يشبه الخبث :

ـ لقد اوصيتك بوجوب وضعها بين يدي اخصائي .

واقترب من الفتاة وسألها :

ـ هل عادت العجوز الشريرة اخيراً الى غرفة نومك ياهيلدا؟

اختلجت يدا هيلدا واجابت :

ـ جاءت الليلة الماضية ومعها قرد ، قرد كبير جداً . وقد حاول ان يعضني .

ـ تذكري انها لا تستطيع ان تؤذيك لانني اعتني بك . ان تلك العجوز تخافني . واذا عادت قولي لها اني اعتني بك وسترين كيف تهرب بسرعة .

وابتسمت الفتاة باعياء وقالت :
ـ وهل سيهرب القرد أيضاً ؟
ـ طبعاً . وعلى فكرة ، هذه قطعة حلوى لابنتك .
واخرج من جيبه قطعة من حلوى النعناع وهو يقول :
ـ يحسن بك ان تعطيها لبابيت . . أليس هذا اسمها ؟
اختطفت هيلدا الحلوى وركضت خارجة من الغرفة .
وقال الطبيب لهيلين :
ـ والآن . ان معرفتي وخبرتي ناقصتان نقصاً يبعث على الحزن . ولكني اعرف ان حالة هيلدا ستسوء كثيراً الآن . انها تقترب من سن البلوغ . وستزيد مرحلة التطور ، وما يرافقها من انفعالات ، اضطراباتها العقلية . ولا استطيع التنبؤ بما قد يحدث . فقد تتحول الى قاتلة ، ومن جهة اخرى قد تهرب مع اول رجل تقابله . واذا لم تضعيها في ايد خبيرة واذا لم تضعيها لمراقبة دقيقة فقد يحدث شيء تندمين عليه . وليس هربها اخيراً سوى مقدمة لما يمكن ان يكون . انك لا تستطيعين الاستمرار على هذه الحال . فليس هذا من الانصاف في شيء .
وجلست هيلين جامدة امامه . وكانت المقاومة ، التي طالما اثارته ، مرتسمة المعالم على وجهها . وسألته بخشونة :
ـ ما الذي تقترحه ؟
ـ ارسليها الى مستشفى خاص بالمجانين .
وكان مسروراً لأن رده كان قاسياً .

وتقلّص وجهها . وازدادت مقاومتها توترا وصاحت :

ـ لن افعل هذا . انها لي وانا مسؤولة عنها . سأبقى بنفسي معها يا دكتور ولن ادعها تغيب عن ناظري . ولكنني لن اقصيها عني .

فأجابها بحنق:

ـ انك تعرفين النتائج .

ثم تذكر استحالة المناقشة مع هذه المرأة ، فقال :

ـ انني صديقك منذ سنين يا هيلين . لماذا تتحملين وحدك هذا العبء من البؤس والخطر ؟

ـ استطيع ان احمل كل شيء . ولكنني لا استطيع أن اقصيها عني .

ـ انك تحبين مظهر الشهيدة . ان الملك يلذ لك . وانت لا تدعين شيئاً من أية مأساة يفوتك .

وانتابه الغضب فهتف بها :

ـ هيلين ، ان كل رجل يتمنى يوماً ما ان يضرب امرأة . واظن اني رجل هادىء ولكنني اريد الآن ان اصفعك بقبعتي.

وتطلع في عينيها السوداوين ورأى أنه لم يفعل سوى اضافة مأساة جديدة الى مآسيها وانهاتاح لها وضعاً جديداً تعانيهوقال:

ـ انني ذاهب . لا تستدعيني بعد الآن لقـــد . . . لقد بدأت اكرهك .

علم سكان « حقول الفردوس » باهتمام وامتعاض أن امرأة ثرية آتية للعيش في الوادي . وراقبوا السيارات تنقل الاخشاب وتصعد الطريق الى « كريسماس كانيون » وسخروا من حماقة صرف المال واحضار الاخشاب لبنـــاء كوخ . وذهب بيرت مونرو الى كريسماس كانيون وقضى نصف النهـــار يراقب النجارين يبنون منزلا .

وقال في المخزن العام يروي مشاهداته :

ـ سيكون المنزل جميلا فكل خشبة بديعة الشكل . هل تدرون ان لديهم بساتنة بدأوا العمل فعلا وانهم يجلبون غرسات واشجارا مزهرة ويزرعونها في الارض؟.. لا شك أن السيدة فان ديفنتر واسعة الثراء .

وقال بيرت همبرت :

ـ انهم يسرفون في النفقات . من المؤكد ان هؤلاء الاغنياء يسرفون في الانفاق .

وتابع بيرت قائلا :

ـ واسمعوا هذا ايضا . اليس ذلك من غرائب النسـاء ؟ احزروا ماذا وضعوا على بعض النوافذ . . . لقد وضعوا قضبانا وهي ليست حديدية بل خشبية سميكة . اظن ان تلك العجوز تخاف الذئاب .

وتكلم ت . ب . آلن بلهجة آملة :

ـ ترى هل ستحضر عددا كبيرا من الخدم ؟ ولكنني اظن انها ستبتاع جميع لوازمها من المدينة ، فجميع امثالها يبتاعون

لوازمهم من المدينة .

وعندما تم انجاز المنزل والحديقة وصلت هيلين فان ديفنتر وهيلداوطاهصيني وخادمفيليبيني بالسيارة الى كريسماس كانيون. كان المنزل الخشبي جيلًا . وقد جعل النجارون الخشب يبدو عتيقاً برشه بالحوامض كما جعل البساتنة الحديقـــة تبدو قديمة. وتركت اشجار الغار والسنديان في المرج ونبتت قربها زهور قرمزية وبيضاء وزرقاء . كما سيّجت الممرات بزهور زرقاء .

واسرع الطاهي والخادم الى مركزيهما بينما امسكت هيلين بذراع هيلدا وسارت معها قليلا في الحديقة .

وهتفت هيلين ، وقد فقد وجهها بعض مقاومته :

ـ اليس المكان جيلًا ؟ الا تظنين يا حبيبتي اننـــا سنحب العيش هنا ؟

واقتلعت هيلدا زهرة ضربت بها جذع سنديانة وقالت :

ـ انني افضل منزلنا السابق .

ـ ولكن لماذا يا حبيبتي ؟ لم يكن لدينا مثل هذه الزهور الجميلة كما لم تكن هناك اية اشجار كبيرة . اننا هنا ، نستطيع التنزه في التلال كل يوم .

ـ انني افضل الحياة في بيتنا السابق .

ـ ولكن لماذا يا حبيبي ؟

ـ ان جميع اصدقائي هناك . وكان يكفي ان اتطلع عبر السور لارى الناس يمرون .

ـ ستحبين الحياة هنا بعد ان تعتادي عليها .

ـ لا ، لن احبها . لن احب الحياة هنا ابدا .

واخذت هيلدا تبكي ثم راحت بدون مقدمات تصيح بهياج. وفجأة التقطت قضيباً من الارض وضربت امها به على صدرها. وانسل الخادم دون ضجة خلف الفتاة وامسك بذراعيها وحملها الى المنزل وهي تلبط برجليها وتصيح .

وحطمت هيلدا اثاث الغرفة التي اعدت لها. ومزقت الوسائد ونثرت الريش في الغرفة . واخيراً حطمت زجاج نافذتها وخبطت على القضبان الخشبية وصرخت بغضب . اما هيلين فقد جلست في غرفتها وقد زمت شفتيها . ونهضت مرة كأنها تنوي الذهاب الى غرفة هيلدا ثم عادت فغطست في مقعدها . وللحظة كاد جلدها ينهار ولكنه عاد فورا اقوى من اي وقت آخر ولم يعد يؤثر بها الصراخ الصادر عن غرفة هيلدا ودخل الخادم الغرفة وسألها :

ـ هل اغلق مصاريع النوافذ ؟

ـ لا يا جو . اننا بعيدون عن جميع الناس . ولا يستطيع احد سماع الصراخ .

.

رأى بيرت مونرو السيارة تمر وهي تحمل السكان الجدد الى المنزل الخشبي في كريسماس كانيون . وقال لزوجته :

ـ سيكون من الصعب على امرأة ان تبدأ الحياة هنا وحيدة. اظن ان عليّ ان اذهب وارى هل يحتاجون الى شيء .

وقالت زوجته مازحة :

ـ ان الفضول وحده يدفعك الى ذلك .

ـ اذا كنت تظنين ذلك فلن اذهب .

ـ كنت امزح يا بيرت . سيكون من حسن الجوار ان تفعل ذلك . اما انا فسأذهب ، في ما بعد ، لزيارتها مع السيدة هوايتسايد . هذا هو التصرف الحسن . ولكن اذهب الآن لترى كيف ينظمون احوالهم .

وسار على طول الجدول الذي يترنم في قاع كريسماس كانيون . وقال لنفسه : « ليس هذا مكانا صالحاً للزراعة ولكن الحياة فيه جميلة . كان ممكناً ان اقيم في مكان كهذا ، دون عمل ، لو لم تعقد المدنة في الموعد الذي عقدت فيه » .

وكالعادة ، شعر بالخجل لانه تمنى لو ان الحرب استمرت مدة اطول .

وتناهى صراخ هيلدا الى اذنيه فيما كان لا يزال يبعد ربع ميل عن المنزل . فقال :

ـ ما هذا ؟ كأنهم يقتلون احدا .

واسرع يرتقي الطريق ليرى مايجري .

كانت نافذة هيلدا ، المسورة بالقضبـــان ، تطل على الممر الذي يؤدي الى المدخل الامامي للمنزل . ورأى بيرت الفتاة ممسكة بالقضبان وقد ملأ الهياج والخوف عينيها . فقال :

ـ مرحباً ! ماذا هنالك ؟ لماذا حبسوك ؟

وضاقت عينا هيلدا وقالت :

ـ انهم يجوعونني . انهم يريدونني ان اموت .

وقال بيرت :

ـ هذه حماقة . لماذا يريدون ان تموتي ؟

واجابت كمن يسر بشيء هام :

ـ ان مالي هو السبب . انهم لا يستطيعون الحصول على اموالي الا بعد ان اموت .

ـ ولكنك لست سوى فتاة صغيرة .

وقالت هيلدا بكآبة :

ـ لست فتاة صغيرة . انني امرأة مكتملة الانوثة ، وابدو صغيرة السن لانهم يجوعونني ويضربونني .

وتجهم وجه بيرت وقال :

ـ سوف اتحرى هذا الامر .

ـ لا تخبرهم . يكفي ان تخرجني من هنـــا . وعند ذلك احصل على اموالي واتزوجك .

واخذ بيرت يشتبه ، لاول مرة ، بحقيقة الحال فقال مهدئا :

ـ طبعاً سأساعدك . انتظري قليلا وسأساعدك على الخلاص .

وسار الى المدخل الرئيسي ونقر على الباب . وبعـد لحظة فتح الباب قليلا وبدت عينا الخادم من خلال الشق .

وسأله بيرت :

ـ هل استطيع مقابلة ربة المنزل ؟

واجاب الخادم :

ـ لا !

ثم اغلق الباب .

وللحظة احمر وجه بيوت خجلا لهذا الصد ولكنه عاد يقرع الباب بغضب . وفتح الباب ثانية مسافة بوصتين واطلت العينان السوداوان .

ـ قلت لك اني اريد مقابلة ربة المنزل . يجب ان اقابلها بشأن الفتاة المحبوسة .

واجاب الخادم :

ـ السيدة مريضة جدا . متأسف جدا .

وعاد يغلق الباب . وسمع بيوت هذه المرة صوت المزلاج يعاد الى مكانه . فسار في الممر مبتعدا وقال لنفسه : « سأقول لزوجتي الا تزورهم . فتـــاة مجنونة وخادم وقح . ليذهبوا الى الجحيم .

وصاحت هيلين من غرفة النوم :

ـ ماذا هنالك يا جو ؟

ووقف الخادم في الباب فقال :

ـ جاء رجل . قال انه يجب ان يقابلك وقد اجبته بانك مريضة .

ـ احسنت . من هو ؟ وهل قال لماذا اراد مقابلتي ؟

ـ لا اعرف من هو وقد قال انه يريد مقابلتك بشأن الآنسة هيلدا .

وفجأة انقضت عليه هيلين . والغضب يلون وجهها وسألته :

ـ ماذا كان يريد ؟ ومن هو ؟

ـ لا اعرف يا سيدتي .

ـ وقـــد صرفته . . . انـــك تتصرف بحرية . اخرج من هنا .

والقت بنفسها في مقعدها وغطت عينيها . وقـال جو وهو ينسحب ببطء :

ـ امرك يا سيدتي . .

فصرخت :

ـ جو ، تعال ! ارجع .

ولما وقف بجانب مقعدها قبل ان ترفع يديها عن عينيها قالت له :

ـ سامحني يا جو . لم اكن ادرك ما اقول . لقد احسنت صنعا . ستبقى معي ، اليس كذلك ؟

ـ اجل يا سيدتي .

ونهضت هيلين وسارت قلقة الى النافذة وقالت :

ـ لا اعرف ما بي اليوم . هل هيلدا بخير ؟

ـ اجل ، ان الآنسة هادئة الآن .

ـ حسنا اشعل النار في مدفأة غرفة الجلوس ثم احضرها اليّ .

وكانت هيلين في تصميمها لغرفة الجلوس ، قد شعرت بانها صنعت نصبا تذكاريا لزوجها . فقد جعلتها تبدو اقرب مـــا تكون الى كوخ صيد . كانت غرفة واسعة صنعت جـدرانها ودعائمها من الخشب الاحمر . وكانت رؤوس مختلف انواع

الغزلان المعلقة على الجدران تمد خياشيمها الفضولية. وكانت هناك مدفأة حجرية ضخمة تحتل احد جوانب الغرفة . وقد علق فوقها علم حربي فرنسي ممزق جاء به هيوبرت من مكان ما . وفي صندوق زجاجي مقفول الواجهة صفت جميع بنادق هيوبرت فوق الرفوف . فقد كانت هيلين تؤمن بانها لن تفقد زوجها تماما طالما ان لديها غرفة كهذه تجلس فيها .

كانت هيلين تستسلم ، في غرفة الاستقبال في بيت « التل الروسي » الى حلم يسرها . وقد تمنت ان تستطيع المداومة عليه في المنزل الجديد. وكان الحلم يتجسد بتسلسل معيّن تقريبا.

فكانت هيلين تجلس امام النار معقودة اليدين . ثم تتطلع طويلا الى كل من تذكارات الصيد المعلقة وهي تكرر لكل واحد :

ـ لقد اصطاد هيوبرت هذا .

واخيرا جاءها الحلم . فقد خيّل اليها انها تراه امامها . واستعرضت ، بخيالها ، شكل يديه وضيق ردفيه وطول ساقيه واستقامتها . وبعد قليل تذكرت كيف كان يتحدث واين كان يشد على الكلام وكيف كان وجهه يتألق ويحمر عندما ينفعل . وتذكرت هيلين كيف كان ينتقل بضيوفه من تذكار صيد الى آخر. كان هيوبرت يتمايل امام كل منها ويشبك يديه وراء ظهره ويروح يروي مقتل الحيوان بادق تفاصيله .

ـ لم يكن القمر كافيا ولم تكن هناك اية اشارة . وقال فريد « الدليل » ان لا امل لنا باصطياد شيء . واذكر ان

لحم الخنزير كان قد نفـذ في ذلك الصباح . ولكن كان يراودني شعور بان علينا ان نخرج لالقاء نظرة .

وكانت هيلين تتخيل انهـا تستمع اليه يروي الحكايات السخيفة التي لا تختلف في نهاياتها عندما يقول :

ـ كانت المسافة بعيدة جدا وكانت هنالك ريح شيطانية تهب من الشمال ، ولكنني ركزت نظري عليه وفكرت « هذا صيد جديد » ووالله لقد اوقعتـه ... وكان الامر مجرد حظ طبعا .

ولم يكن هيوبرت يريد فعلا ان يعتقد سامعوه بان الامر كان مجرد حظ ، فقد كان قوله هذا مجرد تواضع رياضي . وتذكرت هيلين انها كانت تتساءل لمـاذا لم يكن مسموحا للرياضي بالاعتراف بانه اجاد العمل .

ولكن الحلم كان يتسلسل بتلك الصورة . وقـد ظلت ترسم صورته هكذا حتى ملأت الغرفة بحيوية الصيـاد الكبير المتوثبة على ان الصورة كانت تنهار وتتحطم عندمـا تصل بحلمها الى هذه المرحلة فعنـد ذلك يبدو جرس الباب كما لو كان يصدر رنة حزينة . وتتذكر هيلين وجوه الرجـال الحزانى المرتبكين وهم يروون الحادثة لها . ويتوقف الحلم دائماً عندما تسترجع صورتهم وهم يصعدون درجات المدخل الامامي ، حاملين الجثمان ، واذ ذاك كان صدرها يمتلىء بموجة طاغية من الحزن فتغوص في مقعدها .

هكذا احتفظت بزوجها حيـا وهي ترفض بعناد السماح

لصورته بان تبهت في ذاكرتها . وكانت تقول لنفسها انها لم تبق متزوجة سوى ثلاثة شهور. ثلاثة شهور فقط! ثم كانت تستسلم لشعور الكآبة اليائسة . وكانت تعرف انها تشجع هذا الشعور ولكنها كانت تؤمن بان هـذا من حق هيوبرت ، وانه نوع من التذكار الواجب له . يجب ان تقاوم الحزن ولكن ليس بالهرب منه .

كانت هيلين متشوقة لهذه الليلة الاولى في منزلها الجديد . وكانت تنوي الترحيب بحلمها في بيتها الجـديد بين الحطب المشتعل في الموقد والنور الملتمع في العيون الزجاجية لرؤوس الحيوانات .

عاد جو الى غرفة النوم وقال :

ـ اشعلت النار يا سيدتي . هل ادعو الآنسة هيلدا الآن ؟

تطلعت هيلين من نافذتها . كان الغسق يهبط مـن قمم التلال . وبدأ عـدد من الوطاويط يمر بنزق هنا وهناك . وراحت طيور السمن تنادي بعضها بعضا وهي تسعى الى الماء بينما كانت الابقار ، بعيدا في قعر الوادي ، تسير عـائدة الى الزريبة . واخـذ نوع من التغيير يتسرب الى هيلين . فلقد ملأها شعور جديد بالسلام . وشعرت بانها محصنة وممتنعة على الفواجع التي لازمتها مدة طويلة . وفردت ذراعيها الى الامام فالوراء وتنهدت بارتياح . وكان جو ما يزال واقفا في الباب ينتظر فقالت هيلين :

ـ ماذا ؟ الآنسة هيلدا ؟ لا ، لا تحضرها بعد ، لا شك

أن العشاء اوشك ان يصبح جاهزاً . واذا كانت هيلدا لاتريد الخروج لتناول العشاء فسأراها في ما بعد .

ولم ترغب في رؤية هيلدا ، اذ لو فعلت هذا لعكرت هذا الشعور اللذيذ بالسلام . ولقد ارادت ان تجلس في ضوء الغسق القريب والاستماع الى طيور السمن تنادي بعضها بعضاً وهي قادمة من سفوح التلال لتشرب قبل هبوط الليل .

والقت هيلين وشاحاً حريريا على كتفيهـــا وخرجت الى الحديقة . وبدا كأن السلام انحدر من التلال واحاط بها . ورأت ، بين مجموعة الزهور ، ارنباً رماديا صغيراً ابيض الذيل. وجعلتها رؤيته تهتز سروراً . وادار الارنب رأسه وتطلع اليها برهة ثم تابع قضم النباتات الجديدة . وفجأة شـــعرت هيلين بسعادة جنونية . احست بأن شيئاً لذيذا مثيرا سيحدث ، شيئاً مسراً جدا . ودفعها سرورها المفاجيء الى مخاطبة الارنب :

ـ استمر في الاكل ، يمكنك ان تأكل الزهور القديمة . غدا سأزرع لك ملفوفاً . انك تحب ان افعـــل ذلك ، أليس كذلك يا بيتر ؟ اتدري يا بيتر ، هل اسمك بيتر ؟ يا للسخف ، ان جميع الارانب تدعى بيتر . على كل ، لم اتوقب شيئاً منذ زمن بعيد . اليس هذا مضحكا ؟ ام ان ذلك محزن ؟ ولكنني الآن اترقب شيئاً . وانني أكاد انفجر ترقباً . ولا اعرف ماذا يمكن ان يكونه هذا الشيء . اليس هذا سخيفاً يا بيتر ؟

ومشت مبتعدة ولوحت بيدها للأرنب قائلة :

ـ أظن ان الزهور الاخرى ألذ طعما .

واجتذبها خرير المياه نحو الجدول . وعندما اقتربت من الضفة اندفع سرب من طيور السمن وهي تطلق اصواتا فزعة . وخجلت هلين لانها ازعجتها فنادتها :

ـ عودي ! لن اطلق النار عليك . ان الارنب لم يهرب مني . انني لا استطيع ان اطلق عليـــك النار حتى ولو اردت ذلك .

وتذكرت فجأة كيف اصطحبها هيوبرت لتعليمها الصيد بالبندقية وكيف تحول جادا رزينا وهو يعلمها كيف تحمل السلاح وكيف تصوبه وكلا عينيها مفتوحتان قائلة :

ـ سأقذف الآن علبة من الصفيح . لا اريد لك ان تطلقي النار على هدف ثابت ابدا . ان من يطلق النـــار على طير واقف لرياضي ضعيف .

وقد ظلت تطلق النار بشراسة على علب الصفيح الطائرة حتى تصلب كتفها . وفي طريق العودة الى المنزل ربت على ذراعها وقال :

ـ سيمر وقت طويل قبل ان تقتلي طير سمن . ولكنك ستستطيعين ، بعد مدة قصيرة ، اصطياد الارانب .

ثم تذكرت الحبـــال الجلدية التي احضرها الى المنزل وقد علقت بها الطيور من اعناقها . وقد قال :

ـ عندما تسقط من الحبال تكون قد علقت بمـــا يكفي لتصبح صالحة للأكل .

وفجأة ادركت هيلين انها لم تعد تريد التفكير بهيوبرت ،

فقد كاد استرجاعها لذكريات الماضي يقضي على شعورها بالسلام .

كادت الظلمة تكتمل وامتلأ الليل العذب برائحة نبات القصعين . وسمعت الطاهي في المطبخ يقرع جرس البقر الذي ابتاعته لاستخدامه للدعوة الى تناول العشاء . وشدت هيلين وشاحها حولها وارتجفت ثم دخلت المنزل .

وفي غرفة الطعام وجدت ان ابنتها سبقتها . وقد اختفت جميع آثار ثورة بعد الظهر عن وجهها . وبدت سعيدة وراضية جدا عن نفسها . وهتفت بها هيلين :

ـ يا حبيبتي ، انك تشعرين بتحسن أليس كذلك ؟

ـ اجل .

ودارت هيلين حول المائده وقبلتها على جبينها ، ثم ضمتها اليها بقوة وقالت :

ـ عندما ترين كم الحياة جميلة هنا ستحبينها . انني واثقة بانك ستحبينها .

ولم تجب هيلدا ولكن المكر بدا في عينيها .

وكررت هيلين ، وهي عائدة الى مكانها :

ـ ستحبين العيش هنا ، أليس كذلك ؟

وبدا الغموض على هيلدا وهي تجيب :

ـ قد احب العيش هنا . وقد لا اضطر لان احب ذلك .

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ قد لا ابقى هنا طويلا .

ـ لن تبقي هنا طويلا ؟

ونظرت هيلين اليها بسرعة عبر المائدة . وكان واضحاً ان هيلدا كانت تحاول الاحتفاظ بسر ما . قالت :

ـ قد اهرب واتزوج . .

واسترخت هيلين في مقعدها وابتسمت قائلة :

ـ آه ، فهمت . طبيعي انك قد تفعلين ذلك . ولكن يحسن بك ان تنتظري بضع سنين . من هو هـــذه المرة ؟ الامير ايضاً ؟

ـ لا ، انه ليس الامير . انه رجل فقير ولكنني سأحبه . لقد رسمنـــا اليوم جميع خططنا . . . واظن انه سيأتي لاصطحابي .

وتحرك شيء في ذاكرة هيلين فسألت :

ـ هل هو الرجل الذي جاء بعد ظهر اليوم الى المنزل ؟

ونهضت هيلدا بسرعة من على المائدة وصاحت :

ـ لن اخبرك بشيء آخر وليس لك أي حق في ان تسأليني، انتظري قليلا فقط وسأريك اني لست مضطرة للبقاء في هذا المنزل العتيق .

وغادرت الغرفة ركضاً وصفقت باب غرفة نومها وراءها .

وقرعت هيلين الجرس للخادم . وسألته :

ـ جو ، ماذا قال بالضبط ذلك الرجل الذي أتى اليوم ؟

ـ قال انه يود مقابلتك بشأن الفتاة الصغيرة .

ـ من اي نوع هو ؟ وكم عمره ؟

ـ لم يكن كهلا يا سيدتي ولا شابا . اظن انه في الخمسين من عمره .

تنهدت هيلين . كان الامر مجرد رواية اخرى ومأساة من المآسي الصغيرة التي تختلقها هيلدا فتترويها . وكانت هذه الروايات تبدو حقيقية لها . يا لها من مسكينة . وتناولت هيلين الطعام ببطء . وبعد ذلك جلست امام مدفأة غرفة الجلوس وراحت تفصل الجمر عن الحطب المتوهج . واطفأت جميع الانوار . ولمعت النار في عيون الرؤوس المبصرة على الجدار وعادت هيلين الى عادتها القديمة . ووجدت نفسها تتخيل يدي هيوبرت وردفيه الضيقتين وساقيه المستقيمتين ، ثم اكتشفت امرا جديدا وهو ان يديه قد اختفتا عندما كفت عن تخيلهما . ولم تعد تستطيع تخيل زوجها بكامله . لقد اختفى ، اختفى تماماً . ولاول مرة منذ سنين اخفت هيلين وجهها في يديها وبكت ، لان السلام عاد اليها يتبعه الامل . وجففت عينيها واخذت تتمشى ببطء في الغرفة وهي تبتسم للرؤوس ابتسامة الغريب الذي لا يعرف كيف مات كل حيوان . وبدت الغرفة مختلفة وعالجت المزاليج الجديدة وفتحت النوافذ الكبيرة . وتسرب نسيم الليل الى الغرفة ولفح كتفيها العاريتين بسلامه الرطيب . واستندت الى النافذة واصغت ، وتناهت اليها اصوات ضعيفة كثيرة من التلة وراءها وفكرت : « انها حافلة بالحياة . انها تتفجر حياة » . وفيما كانت تتسمع انتبهت تدريجياً الى صوت يأتي من الجانب الآخر من المنزل صوت حكيك المبرد على

الخشب وقالت لنفسها :

ـ لو كانت هنـــاك قنادس لكان هذا صوت قندس يقطع شجرة . . . ربما كان قنفذا يقرض اساس المنزل . لقـد سمعت بأن القنـــافذ من نوع الدلدل تقرض اساسات البيوت الخشبية . ولكن لا توجد هنا اية قنافذ ايضاً .

واخذ الصوت يخلف ارتجاجات في المنزل ذاته فقـــالت :

ـ لا شك بأن هناك شيئاً يقرض الخشب .

وتناهى اليها صوت انهيار ثم انقطعت الضجة . وشعرت هيلين بالقلق . واجتـــازت الدهليز بسرعة ووقفت امام باب غرفة هيلدا . وامسكت بالمزلاج الخارجي الصلب وصاحت :

ـ هل انت بخير يا حبيبتي ؟

ولما لم تتلق جوابا رفعت المزلاج بهـــدوء ودخلت الغرفة فوجدت احدى العوارض الخشبية مخلوعة ووجدت ان هيلدا قد اختفت .

جمدت هيلين لحظة امام النافذة المفتوحة وهي تتطلع باهتمام عبر الظلمة الغبراء . ثم شحب وجهها وتقلصت شفتاها كعـادتها عندما تعاني المصائب وكانت حركتها آلية عندما عادت الى غرفة الجلوس . وصعدت على مقعد وفتحت صندوق الاسلحة واخذت بندقية .

جلس الدكتور فيليبس بجانب هيلين فان ديفنتر في مكتب المحقق الجنائي . فقد كان عليه بالطبع أن يأتي بصفته طبيب الفتاة ولكنه فكر ايضاً بانه يستطيع منع هيلين من الخوف . على ان الخوف لم يبد عليها بل بدت في حزنها الشديد الوحشي تقريباً ، كالصخر الذي يغسله البحر . كان المحقق يقول :

ـ وهل كنت تتوقع ذلك ؟ هل توقعت ان يحدث هذا ؟

وتطلع الدكتور فيليبس بارتبـــاك الى هيـــلين وتنحنح وقال :

ـ لقد كانت مريضتي منذ ولادتها . وفي حالة كهذه ، من الممكن ان تنتحر او ترتكب جريمة قتل حسب الظروف . ومن الممكن كذلك ان تعيش دون ان تؤذي احداً . بل من الممكن ايضاً ان تقضي حياتها دون القيام بأية حركة عنيفة ، فمن المستحيل تحديد ذلك .

كان المحقق يوقع اوراقاً اذ قال :

ـ كان عملها وحشياً . لقد كانت الفتـــاة مجنونة طبعاً ولا شيء يدعو الى البحث عن دوافعها . كان ممكناً ان تكون الدوافع اشياء بسيطة جدا . وقد فعلت ذلك بطريقة مريعة . ومع هذا فلم تعرف ذلك ابدا . كان رأســـها في الجدول . والبندقية بجانبها . ساوصي باعتبـــار الحادث انتحارا . انني آسف لاضطراري للتحدث بهذه الطريقة يا سيدة فان ديفنتر . ولا شك بأن عثورك عليها كان صدمة رهيبة لك .

وساعد الطبيب هيلين على النزول من دار المحكمة .
وهتف بها :
ـ لا تتخذي هذا الشكل . انك تبدين كانك ذاهبة الى الاعدام . قلت لك ان ما حدث هو الافضل فلا يجب ان تتألمي بهذا القدر .
ولم تنظر اليه اذ قالت بصوت رقيق :
ـ انني اعرف الآن . لقد اصبحت اعرف ما تنتظره حياتي مني . اصبحت اعرف ما كنت اشتبه به دائماً . ولدي القوة للتحمل ، يا دكتور ، فلا تقلق علي".

٦

كان جونيوس مولتبي شابا ضئيل البنية ينحـــدر من عائلة طيبة مثقفة ويتمتع بتربية حسنة . وعندما توفي والده مفلساً ربط جونيوس نفســـه بشكل مربك بوظيفة كتابية كافح بضعف عشر سنين للتخلص منها .

وكان جونيوس يعود ، بعد عمله ، الى غرفته المفروشة فيركز وســـائد مقعده الطويل ويقضي الامسية وهو يطالع . . وكان يعتقد بان كتابات ستيفنسون هي ارفـــع ما كتب بالانكليزية تقريباً . وقـــد قرأ

« رحلات مع حمار » عدة مرات .

وفي مساء احد الايام ، بعد قليل من عيد ميلاده الخامس والثلاثين ، اغمي على جونيوس فوق سلم المنزل الذي يستأجر احدى غرفه . وعندما عاد الى وعيه لاحظ للمرة الاولى بانه يتنفس بصعوبة وبشكل غير مرض . وتساءل كم مضى عليه وهو في هذه الحالة . وكان الطبيب ، الذي استشاره لطيفاً بل حتى كان متفائلا . وقد قال له :

ـ انك لم تهمل نفسك الى الحد الذي لا تستطيع فيه ان تعود على ما يرام . ولكن يجب ان تخرج برئتيك من سان فرنسيسكو . واذا بقيت هنا في الضباب فلن تعيش سنة واحدة. انتقل الى حيث الجو دافيء جاف .

ملأت هذه الحادثة الصحية جونيوس سروراً لانها قطعت القيد الذي كان عاجزاً عن قطعه من تلقاء نفسه . وكانت لديه خمسمائة دولار . ولا يعني هذا انه كان يوفر المال بل الحقيقة هي انه نسي ان ينفقها فقال :

ـ بهذا المبلغ اما ان اشفى واعود فأبدأ حياتي من جديد بداية نظيفة او اموت وانتهي من هذه الحياة » .

وحدثه احد موظفي المكتب عن وادي «حقول الفردوس» الدافيء فانتقل جونيوس فورا الى هناك فقد سره الاسم وقال محدثا نفسه : « اما ان يكون هذا نذيراً بانني لن اعيش او انه بديل رمزي لطيف الموت » .

وشعر بان لهذا الاسم معنى شخصياً . واسعده ذلك لانه

لم يصادف في هذا العالم خلال عشر سنين خلت ، شيئاً مقترنا به شخصياً .

كانت في « حقول الفردوس » عدة عائلات ترغب في استقبال النزلاء . ودرس جونيوس وضع كل منها وذهب اخيراً للعيش في مزرعة الارملة كويكر . فقد كانت بحاجة للمال كما انه كان يستطيع النوم في سقيفة منفصلة عن المنزل . وكان لدى السيدة ولدان كما كانت تحتفظ باجير يقوم باعمال المزرعة .

وافاد الطقس الدافيء رئتي جونيوس كثيراً . وقبل مرور سنة عاد اليـــه لونه وازداد وزنه . وكان هادئا وسعيدا في المزرعة . وكان هناك امر سره اكثر من ذلك هو انه تخلص من سنين المكتب العشر واصبح كسولا بشـــكل بديع . وبقي شعر جونيوس الاشقر دون تسريح . واخذ يضع نظارتيه على رأس انفه لان نظره ازداد قوة وما استمر في وضعها في الواقع الا بحكم العادة . وكان طول النهار يحمل عودا في فمه ، وهي عادة لا يكتسبها سوى اكسل الرجال . وقد تمت نقاهة جونيوس عام ١٩١٠ ولكنه ظل نزيل الارملة كويكر .

وفي سنة ١٩١١ اخذت السيدة كويكر تفكر بقلق بما يقوله الجيران . وعندما فكرت بمعنى وجود رجل اعزب في منزلها اصبحت قلقة ومتوترة الاعصاب . وحالما اصبح شفاء جونيوس امراً لا شك فيه فاتحته بما يقلقها . فتزوجها فوراً وبسرور . وهكذا اصبح لديه الآن منزل ومستقبل ذهبي لان السيدة مواتبي الجديدة كانت تملك مائتي فدان من سفوح

التلال المعشبة وخمسة فدادين مزروعة فاكهة وخضارا . وارسل جونيوس يحضر كتبه ومقعده الطويل ونسخته من كتاب « الكردينال » لفيلاسكيز . وبدا المستقبل له كأصيل مشمس هنيء .

وفجأة صرفت السيدة مولتبي العامل وحاولت صرف زوجها الى العمل مكانه ولكنها واجهت في محاولتها هذه ، مقاومة مذهلة لانها لم تجد فيها نقطة توجه اليها حملاتها . وكان جونيوس قد اصبح محباً للكسل ، خلال نقاهته . واحب الوادي والمزرعة ولكنه احبهما كما هما . وما شعر برغبة في ان يزرع اشياء جديدة او ينتزع اشياء قديمة . وعندما وضعت السيدة مولتبي في يده مجرفة ودعته للعمل في بستان الخضار ، وجدته بعد ساعات يقرأ نسخته من كتاب « المخطوف » وقد ادلى قدميه في الجدول . فلما سألته جلية الامر اعلن اسفه لانه لم يعرف كيف حدث ذلك . وكانت هذه هي الحقيقة .

وقد أنبته كثيراً في البداية على كسله واهماله ثيابه ولكنه سرعان ما اصبح قادرا على عدم الاصغاء اليها كلياً . فكان يعتبر أن من قلة الادب الانتباه اليها عندما لا تتصرف كسيدة مهذبة لان ذلك يشبه التحديق بمشلول . وبعد ان قضت السيدة مولتبي مدة وهي تلاحقه بتأنيبها اخذت هي بالذات تتعود اهمال شعرها .

اصبحت عائلة مولتبي مدقعة الفقر ، بين ١٩١١ و ١٩١٧ ذلك ان جونيوس كان يرفض الاعتناء بالمزرعة فاضطرت العائلة

لبيع بضعة افدنة من ارض المرعى لحصول على المال اللازم للغذاء والكساء ومع ذلك لم يتوفر للعائلة مايكفي من الطعام. وتربع الفقر في المزرعة واصبحت ثيـــاب افراد عائلة مولتبي اسمالا . ولم يرتد احد منهم ثيابا جديدة ابدا ولكن جونيوس اكتشف مقالات دافيد غريسون . وكان يرتدي احد ثيـاب العمل ويجلس تحت اشـــجار الجميز التي تظلل الجدول . وكان احيانا يقرأ « مغامرات في القناعة » لزوجته وولديها .

وفي مطلع ١٩١٧ اكتشفت السيدة مولتبي انها حامل ، وفي اواخر العام ذاته اصاب وباء الانفلونزا العائلة بشر مستطير ولعـــل قلة التغذية ادت الى اصابة الصبيين في وقت واحد . وبدا البيت ، خلال ثلاثة ايام ، كما لو كان يتـــدفق بالاولاد المحمومين الذين تحاول اصابعهم التمسك بالحيـــاة بالشد على اغطيتهم.وقد كافح الولدان بضعف ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع توفيا . ولم تعرف والدتها ذلك لانها كانت تلزم الفراش ، ولم يجد الجيران ، الذين جاءوا لتقديم المســـاعدة من الشجاعة او القسوة ما يكفي لابلاغها النبأ ، واصابتها الحمى السوداء وهي في المخاض وقتلتها قبل ان ترى طفلها .

وروت الجارات ، اللواتي ساعدن على عملية التوليد ، في الوادي كله ، ان جونيوس مولتبي كان يقرأ كتباً عنـــد الجدول بينما كانت زوجته وولداها يحتضرون . ولكن هذا لم يكن صحيحاً . فقد ادلى قدميه في الجدول يوم اصيب الطفلان لانه لم يكن يعرف انهما مريضان . ولكنه راح ، بعد ذلك ،

يتنقل بين الولدين المحتضرين ويحدثهما بامور سخيفة . وقد شرح لاكبرهما سناً كيف يكون الماس . وحدث الآخر عن جمال الصليب المعقوف وقدمه ورمزه . واسلم احدهما الروح فيما كان يقرأ له بصوت مرتفع الفصل الثاني من كتاب « جزيرة الكنز » ولم ينتبه الى ذلك الا بعد ان انهى الفصل ورفع رأسه.
كان مذهولا خلال تلك الايام . فقد احضر الاشياء الوحيدة التي يملكها وقدمها لهما ولكنها لم تكن تستطيع شيئاً ضد الموت.وكان يعرف ذلك مسبقاً ، الامر الذي زاد في تعاسته .

وبعد الدفن عاد جونيوس الى الجدول وقرأ بضع صفحات من كتاب « رحلات مع حمار » !

ونادته احدى الجارات وشتمته بعنف بشكل احرجه وجعله يمتنع عن الاصغاء ، فلما عرفت ذلك وضعت يديها على ردفيها وراحت تحدق فيه بازدراء . ثم احضرت ابنه ووضعته بين ذراعيه . وعندما استدارت عند البوابة لتنظر اليه وجدته واقفاً وبين ذراعيه الطفل الصارخ . وقد حمله مدة طويلة لانه لم يستطع ان يرى مكانا يضعه فيه !

روى سكان الوادي عدة روايات عن جونيوس . كانوا يكرهونه احيانا بمثل الكره الذي يوليه الاشخاص المشغولون للكسالى ، كما كانوا احيانا يحسدونه على كسله . ولكنهم كانوا غالباً يشفقون عليه لشدة رعونته . الا ان احداً في الوادي لم يدرك ابداً ان جونيوس كان سعيداً .

لقد رووا كيف ابتاع جونيوس ، وفقاً لمشورة الطبيب ،

معزى لتغذية الطفل بالحليب ، ولم يسأل عن جنس المعزى كما لم يشرح سبب حاجته اليها . وعندما وصلت نظر تحتها وسأل بلهجة جادة :

ـ هل هذه معزى طبيعية ؟

واجابه صاحبها :

ـ طبعاً .

ـ ولكن ألم يكن واجبا ان يكون بين قائمتيها الخلفيتين كيس او ما يشبهه ؟ اعني لاجل اللبن .

وضج سكان الوادي بالضحك لهذه الحادثة . وعندما استلم جونيوس معزى جديدة في مابعد قضى يومين دون ان يستطيع استحلاب نقطة لبن واحدة منها . واراد ان يعيدها لانها غير صالحة ولكن البائع علمه كيف يحلبها . وادعى البعض انه وضع الطفل تحت المعزى وتركه يمتص الحليب ولكن هذا لم يكن صحيحاً . واعلن سكان الوادي انهم يجهلون فعلا كيف قام بتربية الطفل .

وذهب جونيوس يوماً الى مونتيري واستأجر رجلا المانياً متقدما في السن لمساعدته في المزرعة . واعطى خادمه الجديد خمسة دولارات على الحساب ولم يدفع له شيئاً بعد ذلك ابدا . وفي غضون اسبوعين تخبط المستخدم في الكسل الى حد انه لم يعد يعمل اكثر من مخدومه . وقد كانا يجلسان معاً ويتباحثان حول الامور التي تهمهما وتحيرهما ، مثلا كيف تأتي الالوان للزهور وهل في الطبيعة علم رموز ؟ واين تقع قارة الاطلنطيد

وكيف كان هنود الانكا يدفنون موتاهم .

وكانا يزرعان البطاطا في الربيع ، متأخرين دائماً ، ودون ان يغطياها بالرماد لابعاد الخنافس عنها وزرعا الفصوليا والذرة والبازلاء وراقباها مدة ثم نسياها . وحجبت الاعشاب كل شيء عن الانظار . ولم يكن امرا غير معتادا ان يرى جونيوس يخترق دغلا من الاعشاب البرية ويخرج منه وهو يحمل خيارة شاحبة . وقد توقف عن احتذاء الاحذية لانه يحب ملامسة التراب الدافيء بقدميه ولانه لم يكن يملك حذاء .

وكان جونيوس يكثر من الحديث مع مستخدمه جاكوب شتوتز بعد الظهر . وقد قال له ذات مرة :

- اتدري ؟ عندما توفي الولدان ظننت اني وصلت الى ذروة الهول . ثم ، وفيما كنت افكر بذلك ، تحول الهول الى غم وتضاءل الغم الى حزن . واظن اني لم اعرف زوجتي والولدين جيدا . ربما كانا قريبين جدا مني . ان هذه المعرفة امر غريب ، انها ليست سوى ادراك للتفاصيل . هناك عقول بعيدة النظر واخرى قصيرته . اني مثلا اشعر « بالبارتينون » اكثر من شعوري بمنزلي هناك .

وفجأة بدا كأن وجه جونيوس يرتجف احساساً ولمعت عيناه حماسة وقال :

- جاكوب ، هل رأيت يوماً صورة لافريز البارتينون الذي تقوم عليه تماثيل رائعة لعربات بديعة تجرها جياد متوثبة .

واجاب جاكوب :

ـ اجل . وانه جميل ايضا .

ووضع جونيوس يده على ركبة خادمه وقال :

ـ تلك الجياد ، تلك الجياد الجميلة المتوثبة المنطلقة الى مرعى سماوي . وهؤلاء الشبان المتحمسون الساعون الى مهرجان لا يدركه العقل يحتفل به خلف الافريز . ترى كيف يستطيع المرء ان يعرف ما هو شعور الجواد عندما يكون سعيدا ؟ لا شك بان ذلك النحات كان يعرف ذلك والا لمـــا استطاع نحتها بهذه البراعة .

هكذا كان الوقت يمر . ولم يكن جونيوس يتقيد بموضوع وغالبا ما جاع الرجلان لانهما لم يجـــدا طعاماً جاهزا في موعد العشاء .

واطلق على ابن جونيوس اسم روبرت لويس . وقد اختار جونيوس هذا الاسم حالمـــا خطر له ولكن جاكوب شتوتز اعترض على ما اعتبره هوساً ادبيا . وقال :

ـ يجب تسمية الاولاد كالكلاب . ان لفظة واحدة كافية للاسم . وحتى روبرت طويل يجب ان ندعوه بوب .

وقد وصل جاكوب الى هدفه تقريبا اذ قال جونيوس :

ـ سوف اتساهل معك . سندعوه « روبي » ان روبي اقصر من روبرت ، الا تظن ذلك ؟

وغالباً ما تراجع جونيوس امام جاكوب لان هذا الاخير كان يكافح قليلا ضد اعشاش العناكب التي تحاك حوله في كل مكان . وكان بين مدة واخرى يشعر بثورة مدفوعة بحمى

وروعة وينظف المنزل .

وكبر روبي في جو جاد . وكان يتبع الرجلين ويصغي الى احاديثهما ، ولم يعامله جونيوس يوماً كصبي لانه لم يكن يعرف كيف يجب ان يعامل الصغار . فاذا ما ابدى روبي ملاحظة اصغى الرجلان اليه بمجاملة واحترام وادرجا الملاحظة في حديثهما بل حتى استخدماها كموضوع يستحق التحقيق فيه . وكانا يقومان بعدة غارات على موسوعة جونيوس .

ومدت شجرة جميز ضخمة فرعاً افقياً فوق الجدول يجلس عليه الثلاثة . وكان الرجلان يدليان باقدامهما في الماء ويحدثان الفقاقيع باصابع اقدامهما بينما يحاول روبي جاهدا ان يقلدهما . وكان الوصول الى الماء احد مقاييس رجولته وكان جاكوب حينئذ في المرحلة التي تخلى فيها عن حذائه ولذا لم ينتعل روبي اي حذاء في حياته .

كانت المناقشات بين الرجلين لوذعية راقية اللغة ولذا لم يكن باستطاعة روبي ان يكون صبيانياً في حديثه لانه لم يسمع حديثاً صبيانياً .

لم يكونوا يتحدثون بل كانوا يتركون الفكرة تنمو ويراقبونها وهي تتسع . وكانوا يدهشون للثمار الغريبة التي تحملها احاديثهم لانهم لا يوجهون تفكيرهم او يشذبونه كما يفعل اناس كثيرون .

على فرع الشجرة كان الثلاثة يجلسون وكانت ثيابهم اسمالا اما شعرهم فلم يقص إلا لكي لا ينزل على عيونهم . وكان

للرجلين لحيتـــان طويلتان غير مشذبتين . وكانت الشجرة التي تظللهم ، تتمايل قليلا مع الريح في بعض الاحيان وتسقط منها ورقة تشبه منديلا بني اللون .

كان روبي في الخامسة من عمره عندما لاحظ بان ورقة قد سقطت في حجره فقال :

ـ اعتقد بان اشجار الجميز طيبة .

والتقط جاكوب الورقة وعراها من كسائها النباتي وقال :

ـ اجل ، انها تنمو قرب الماء . ان الاشياء الطيبة تحب الماء . وتبقى الاشياء السيئة دائما جافة .

وقال جونيوس :

ـ ان اشجار الجميز كبيرة وطيبة . ويبدو لي ان الشيء الطيب او اللطيف يجب ان يكون كبيرا جـــدا ليعيش . فالاشياء الشريرة الصغيرة تقضي دائما على الاشياء الطيبة الصغيرة . وقلما تجد شيئا كبيرا ساما او غادرا . ولهذا السبب يمثل الكبر الخير والصغر الشر بالنسبة للتفكير البشري . هـــل فهمت ذلك يا روبي ؟

وقال روبي :

ـ نعم ، فهمت ذلك . مثل الفيلة .

ـ ان الفيلة شريرة غالبا ولكننا عندما نفكر بهـــا تبدو لطيفة وطيبة .

وقاطعه جاكوب قائلا :

ـ وماذا عن الماء ... هل تفهم شيئاً عن الماء ؟

فاجابه روبي :

ـ كلا .. لا افهم شيئا عن الماء .

وقال جونيوس :

ـ لقد فهمتك . انك تعني ان الماء هو بذرة الحياة . وفي العناصر الثلاثة يشكل الماء المني والارض الرحم واشعة الشمس طينة النمو .

وهكذا كانا يعلمانه الهذر .

ابتعد سكان « حقول الفردوس » عن جونيوس مولتبي بعد وفاة زوجته وولديها . وتضخمت الروايات عن قسوته خلال الوباء الى حد جعلها اثقل من ان تحتفظ بها ذاكرة الناس الذين نسوها تقريبا . ولكن رغم ان جيران جونيوس نسوا انه يقرأ فيما كان الوالدان يفارقان الحياة فانهم لم يكونوا يستطيعون نسيان المشكلة التي يتطور اليها هذا الجار . فقد كان يعيش بفقر مفزع في هذا الوادي الخصب . وفيما كانت العائلات الاخرى تجمع ثروات صغيرة وتشتري سيارات الفورد واجهزة الراديو وتمدد الكهرباء وتذهب مرتين في الاسبوع الى السينما في مونتيري وساليناس ، كان جونيوس يزداد تدهورا ويتحول الى متوحش يرتدي الاسمال . ونفر رجال الوادي من ارضه الطيبة التي تغطيها الاعشاب البرية ، واشجاره المثمرة غير المشذبة واسواره المنهارة . وكانت النساء يفكرن بقرف في منزله القذر ذي المدخل المحفر والنوافذ القذرة . وكان الرجال والنساء يكرهون كسله وافتقاره التام الى عزة النفس .

وقد زاروه مدة املا بان تخرجه نظافتهم عن كسله . ولكنه استقبلهم بصورة طبيعية وبود من يشعر بتساويه معهم . ولم يكن يخجل البتة من فقره او اهماله . واخذ الجيران تدريجيا يعتبرون جونيوس منبوذا . ولم يعد اي كائن يجتاز الطريق الخاصة المؤدية الى منزله. لقد اقصوه عن المجتمع اللائق وقرروا عدم استقباله اذا زارهم .

ولم يعرف جونيوس شيئاً عن نفور جيرانه . فظل سعيدا بل راتعا في امجاد السعادة . كانت حياته غير واقعية وكانت توازي تفكيره من حيث كونها شاعرية وعديمة الاهمية فقد يقنع بالجلوس في الشمس ومد رجليه الى الجدول . واذا لم تكن لديه ثياب جميلة ، فلم يكن لديه على الاقل مكان تتطلب زيارته ثيابا جميلة .

ورغم ان الناس كانوا يكرهون جونيوس تقريبا فقد كانوا يشفقون على روبي . وراحت النساء يتحدثن عن فظاعة ترك الطفل ينمو في هذه القذارة ، ولكنهم امتنعوا عن التدخل في شؤون جونيوس لانهم كانوا قبل كل شيء اناسا طيبين .

وقالت السيدة بانكس لفريق السيدات في قاعة استقبالها :

ـ لننتظر حتى يبلغ سن الذهاب الى المدرسة . فلو اردنا عمل شيء الآن لما استطعنا . انه ملك لوالده . ولكن حالما يبلغ الطفل السادسة من العمر سيصبح للمقاطعة الحق بالتدخل .

وهزت السيدة الن رأسها واغمضت عينيها وقالت :

ـ اننا ننسى باستمرار انه ابن مامي كويكر بقدر ما هو

ابن مولتبي واظن انه كان علينا ان نتدخل قبل مدة طويلة . وسنعطي هذا الطفل المسكين ، عنـدما يذهب الى المدرسة ، بضعة اشياء لم يحصل عليها ابدا .

وقالت امرأة اخرى :

ـ ان اقل مـــا يمكن ان نفعله هو ان نضمن حصوله على ثياب كافية لتغطيته .

وبدا كأن الوادي قبع ينتظر موعـــد ذهاب روبي الى المدرسة . وعنـدما بدأ الفصل الدراسي ، بعد عيـــد ميلاده السادس ، ولم يحضر كتب جون هوايتسايد ، امين سر مجلس ادارة المدرسة ، رسالة الى جونيوس مولتبي .

وقال جونيوس عندما قرأها :

ـ لم يخطر لي ذلك. اظن ان عليك ان تذهب الى المدرسة.

وقال روبي :

ـ لا اريد ان اذهب .

ـ اعرف ذلك ، وانا لا اريدك ان تذهب . ولكن لدينا قوانين . وللقانون ملحق يحميه يسمى العقاب ويجب ان نوازن بين لذة خرق القانون وبين العقاب . وقد كان ابناء قرطاجنة يعاقبون حتى عـلى سوء الحظ فاذا خسر قائد معركة بسبب سوء حظه اعدموه . وفي هـذا العصر نعاقب اشخاصا بجريرة الصدف التناسلية والظروف التي هي اقوى منهم بالطريقة ذاتها .

وفي المناقشة التي تلت ذلك نسوا كل مـا يتعلق بالرسالة . وكتب جون هوايتسايد رسالة اخرى قاسية جدا .

وقال جونيوس عندما استلمها :
ـ اظن ان عليك ان تذهب يا روبي . انهم سيعلمونك طبعا اشياء كثيرة مفيدة .
فتوسل روبي قائلا :
ـ لماذا لا تعلمني انت ؟
ـ لا استطيع ذلك . لقد نسيت الاشياء التي يعلمونها .
ـ انني لا اريد الذهاب. ولا اريد أن اتعلم تلك الاشياء.
ـ اعرف ذلك ولكنني لا استطيع ان اجد مخرجا .
وهكذا وصل روبي ذات صباح الى المــــدرسة . وكانت سراويله القديمة ممزقة عند الركبتين والمؤخرة . وكان يرتدي قميصاً ازرق دون قبة . وكان شعره الطويل يتدلى فوق عينيه الرماديتين مثل ناصية الجواد .
واحاط الاولاد به في باحة المدرسة وراحوا يحدقون به بصمت . وكانوا جميعاً قد سمعوا بفقر عـائلة مولتبي وكسل جونيوس . وكانوا متشوقين لهذه اللحظة التي يستطيعون فيها تعذيب روبي . وحانت هـذه اللحظة فوقف بينهم ولكنهم اكتفوا بالتحديق به . ولم يقل احد « من اين جئت بهــــذه الثياب» او « انظروا الى شعره » كما كانوا ينوون ان يفعلوا . وقد احتار الاولاد بعجزهم عن تعذيب روبي .
اما روبي، فقد اخذ ينظر الى الدائرة حوله بعينين جادتين. ولم يكن يشعر باي خوف . وسأل من حوله :
ـ الا تلعبون العابا ؟ لقد قال لي ابي انكم تلعبون .

وانفرط عقد الدائرة في هرج !
- انه لا يعرف اية لعبة .
- لنعلمه لعبة بيوى .
- لا ، لعبة الطفل الزنجي .
- اسمعوا ! اسمعوا ؟ قاعدة السجين اولا .
- انه لا يعرف اية لعبة .

ووجدوا ، رغم جهلهم السبب . انه لبديع الا يعرف المرء العابا . وبدا التفكير على وجه روبي . واخيراً قرر :
- سنجرب بيوى اولا .

وقد كان غير بارع باللعبات الجديدة ولكن معلميه لم يهزأوا به . وبدلا من ذلك تخاصموا ليعلموه كيف يمسك بالعصا . وكانت هناك عدة طرق لتعليم هذه اللعبة . ووقف روبي برهة يصغي ثم اختار مدربه .

وكان تأثير روبي على المدرسة فوريا . فقد تركه الاولاد الاكبر منه سنا وشأنه ولكن الصغار اخذوا يقلدونه في كل شيء حتى بتمزيق سراويلهم عند الركبتين . وعندما كانوا يجلسون تحت الشمس، وقد اسندوا ظهورهم الى جدار المدرسة وهم يتناولون غداءهم، كان روبي يحدثهم عن والده وعن شجرة الجميز . وكانوا يصغون اليه بانتباه ويتمنون لو كان والد كل منهم كسولا ولطيفا كذلك .

ومرة عصي عدد من الاولاد اوامر ذويهم وتسللوا الى مزرعة مولتبي في ايام السبت حيث كان جونيوس، بالطبع، جالساً على

فرع الجميز فراح يقرأ لهم قصة « جزيرة الكنز » او يصف حروب الغال او معركة ترافلغار ، بينما جلسوا الى جانبيه .
وبمدة قصيرة جـــدا اصبح روبي بمساعدة ابيه ، ملك باحة المدرسة . وقد ظهر هذا في عدة امور هي انه لم يكن لديه صديق يحميه وانهم لم يطلقوا عليه لقبا وانه كان الحكم في جميع الخصومات . وبلغ مركزاً من الرفعة بحيث لم يحـاول ابدا احد منهم ان يقاتله .

وتدريجيا فقط شعر روبي بانه زعيم الصغار في المـدرسة . وقد دفع نضجه رفاقه الى اعتباره زعيا لهم ونشدان زعامته . ولم تمر مـــدة طويلة حتى اصبح هو الذي يقرر اللعبة التي سيلعبونها . وكان الحكم الاعلى في لعبة البيسبول لانه لم يكن هناك اي صبي يستطيع اصدار حكم دون اثارة معركة . ورغم انه كان لا يجيد اللعب فقد كانت قضـــايا الانظمة تحال اليه دائماً .

وبعد مناقشة طويلة مع جونيوس وجاكوب اخترع روبي لعبتين شعبيتين جدا دعـا الاولى « ابن آوى المتخفي » وهي شبيهة بلعبة « الارنب والكلاب » ودعـــا الثانية « الساق المكسورة ». وقد وضع لهاتين اللعبتين الانظمة التي يحتاج اليها .
ولفت روبي انتباه الآنسة مورغان لانه كان مدهشا في قاعة الصف بقدر ما كان مدهشا في الباحة. فقد كان يستطيع القراءة بصورة ممتازة كما كان يستخدم عبارات لا يستخدمها سوى الرجال ولكنه لم يكن يستطيع الكتابة . وكان

يعرف الارقام مهما كانت كبيرة، ومع ذلك رفض ان يتعلم حتى قواعد الحساب البسيطة . وتعلم روبي الكتابة بصعوبة كبيرة . ورسمت يده احرفا مشوّهة في دفتره . وفي النهاية حاولت الآنسة مورغان مساعدته فقالت له :

ـ خذ جملة واكتبها مرارا الى ان تجيد كتابتها . واعتن جدا بكل حرف .

وفتش روبي في ذاكرته عن شيء واخيراً كتب : « ليس هنالك افظع مما نستطيع ان نظنه بانفسنا . » وقد احب كلمة افظع اذ انها بدت كأنها تضفي رنة وعمقا على الجملة . واذا كانت هناك كلمات تستطيع بقوة صوتها انتزاع الجن من الارض فمن المؤكد ان كلمة « افظع » هي واحدة منها . وكتب الجملة مرارا مبديا عناية كبيرة برسم كلمة .. « افظع » وبعد ساعة جاءت الآنسة مورغان لترى ما يفعله . وهتفت :

ـ روبرت ، اين سمعت هذه الجملة ؟

ـ انها من ستيفنسون يا آنسة . ان والدي يعرفها عن ظهر قلبه .

وكانت الآنسة مورغان قد سمعت ، طبعا ، جميع الروايات البشعة عن جونيوس واقرت تصرفه رغم ذلك . ولكنها الآن اخذت تشعر برغبة قوية في مقابلته .

وكانت الالعاب في ساحة المدرسة قد بدأت تفقد اهميتها . وشكا روبي الامر لجونيوس صباح احد الايام قبل ان يذهب الى المدرسة . وحك جونيوس لحيته واستغرق في التفكير

وقال في النهاية :

ـ ان لعبة التجسس جميلة . انني اذكر اننا كنا نحب لعبة التجسس .

ـ ولكن على من نتجسس ؟

ـ على اي كان . لا فرق في ذلك . كنا نتجسس على الايطاليين .

واسرع روبي وهو متحمس الى المدرسة . وفي بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد مراجعات عديدة لقاموس المدرسة ، شكل « م . ا . ص . ا . ت . ع . ي . » وكان هذا يعني «مكتب استخبارات الصبيان الاحتياطي للتجسس على اليابانيين» وكان اسم هذه المنظمة وحده يجعلها تبدو كقوة يحسب لها حساب . واخذ روبي الاولاد الواحد بعد الآخر الى تحت شجرة باحة المدرسة وجعلهم يقسمون على الكتمان بقسم شديد يصلح لحفل ماسوني . وجمع الاولاود بعد ذلك وشرح لهم ان اميركا ستشتبك دون شك في حرب مع اليابانيين يوما ما . وقال :

ـ يتحتم علينا ان نكون مستعدين . وكلما ازداد ما نكتشفه من الاعمال الشريرة التي تقوم بها هذه السلالة الشريرة ازدادت المعلومات الجاسوسية التي نستطيع تقديمها لبلادنا عندما تنشب الحرب .

وذهل المرشحون امام هذا المنطق المجيد . وقد أذهلتهم خطورة الحالة التي تتطلب عبارات كهذه . اما وقد اصبح

التجسس شغل المدرسة الشاغل فلم يعد تاكاشي كاتو ، الطالب في الصف الثالث ، يقضي لحظة واحدة على انفراد . فاذا رفع تاكاشي اصبعه في المدرســـة وجه روبي نظرة ذات معنى الى احد صبيان المنظمة وسرعان ما ترتفع يد اخرى في الهواء .
وعندما يعود تاكاشي الى منزله بعد المدرسة كان خمسة اولاد على الاقل يزحفون وراءه عبر الدغل المحاذي للطريق . الا ان السيد كاتو اطلق اخيرا النار في الهواء في احدى الليالي بعد ان رأى وجهاً أبيض يتطلع عبر نافذة بيته . واضطر روبي لدعوة افراد المنظمة وأمرهم بايقاف التجسس عند الغروب . وشرح قراره قائلا :

ـ انهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً هاماً في الليل .

وفي المدى الطويل لم يقـــاس تاكاشي من التجسس الذي يتعرض له لان اضطرار افراد المنظمة لمراقبته جعلهم لايذهبون في رحلة هامة دون اصطحابه . ووجد نفســـه يدعى الى كل مكان لانه لم يكن هناك من يوافق على التخلف لمراقبته .

وتلقت المنظمة ضربتها القاضية عندما قدم تاكاشي ، الذي علم بوجودها بطريقـــة ما طلباً للانضمام اليها . وشرح له روبي بلطف :

ـ انني لا أجد طريقة نضمك بها الينا . فأنت ياباني ونحن نكره اليابانيين .

وكاد تاكاشي ان يبكي . وقد صاح مجيباً :

ـ لقد ولدت هنـــا مثلـكم تماماً . وانني اميركي بقدر ما

انتم اميركيون . الست كذلك ؟

وفكر روبي ملياً . لم يكن يريد أن يقسو على تاكاشي . ثم انفرجت اساريره . وسأله :

ـ هل تتكلم اليابانية ؟

ـ طبعاً ، وبصورة ممتازة .

ـ اذن تستطيع ان تكون مترجماً وان تتولى كتابة وحل الرسائل السرية .

وبدت السعادة على وجه تاكاشي وقال :

ـ من المؤكـــد اني استطيع ذلك . واذا شئتم فسوف نتجسس على والدي .

ولكن المنظمة انهارت ، اذ لم يعد هناك من تحاربه سوى السيدة كاتو ، فقد كانت الســـيد كاتو بالغ العصبية فكان يلجأ كثيرا الى بندقيته .

ومر عيد « هالووين » وعيد الشكر . وظهر تاثير روبي على الاولاد بازدياد ما يعرفونه من مفردات اللغة وبكرههم لجميع انواع الاحذية والثياب الجيدة . وانشأ روبي ، دون ان يدري ذلك ، اسلوبا غير جديد ولكنه اقسى مما كان عليه في الماضي . فقد ساد الاعتقاد بأنه ليس من الرجولة ارتداء ثياب جيلة بل ان ان ارتداء الملابس الجيلة كان يعتبر اهانة لروبي .

وفي بعد ظهر احد ايام الجمعة ، كتب روبي اربع عشرة مذكرة ووزعها سرا على اربعة عشر صبياً في باحة المدرسة . وكانت المذكرات كلها تتضمن الشيء ذاته . وقد جاء فيها :

« سيقوم كثيرون من الهنود باحراق رئيس الولايات المتحدة على السفود في منزلي في الساعة العاشرة غدا . تسللوا الى هناك وانبحوا كالثعالب عند حقلنا الادنى ، سوف آتي واقودكم لانقاذ ذلك المسكين . »

وكانت الآنسة مورغان تنوي منذ عدة شهور زيارة جونيوس مولتبي . فقد اثارت الروايات المحكية عنه واتصالاتها بابنه اهتمامها الى اقصى حد . وكان بعض الاولاد يظهر ، بين وقت وآخر ، بمعلومات مدهشة . فمثلا قال لها ولد مشهور بغباوته ان هنغست وهورسا قاما بغزو بريطانيا . وعندما الحت عليه بالسؤال أقر بان جونيوس مولتبي قال ذلك وان هذا يعتبر نوعاً من السر . وكانت قصة المعزى القديمة قد اضحكتها كثيرا حتى انها كتبتها وارسلتها الى احدى المجلات ولكن ما من مجلة ابتاعتها . وقد ارجأت مرارا المواعيد التي كانت تحددها للذهاب الى مزرعة مولتبي .

وقد استيقظت في صباح ذات يوم سبت من كانون الاول (ديسمبر) وكان الهواء مفعما بالصقيع رغم اشعة الشمس الساطعة . وبعد الفطور ارتدت تنورتها المخملية وانتعلت حذاء الركوب وغادرت المنزل . وحاولت في الباحة ان تقنع كلاب المزرعة بمرافقتها ولكن الكلاب اكتفت بهز اذيالها وعادت للنوم في الشمس .

تقع مزرعة مولتبي على بعد حوالي ميلين في الوادي الصغير المسمى « غاتو اماريلو » ويمر جدول بجانب الطريق كما يحيط

السرخس بجذوع اشجار الحور . وكان الطقس باردا في الوادي لان الشمس لم تكن قد ارتفعت فوق الجبل بعد . وخيل الى الآنسة مورغان مرة انها سمعت وقع اقدام واصوات امامها ولكنها عندما اسرعت بالالتفاف حول المنعطف ، لم تشاهد احدا . الا ان غصون الاشجار المحاذية للطريق ظلت تفرقع بصورة غامضة .

وقد عرفت الآنسة مورغان مزرعة مولتبي عند وصولها اليها ، رغم انها لم تزرها ابدا . كانت حواجزها محنية تحت عبء العليق . وكانت اشـــجار الفاكهة تمد اغصانها العارية من غابة الاعشاب البرية ، بينما تسلقت غصون ثمر العليق اشجار التفاح . وقفزت السناجيب والارانب من تحت قدميها وهربت حمامات رقيقة الصوت وهي تضرب باجنحتها . وفي شجرة كمثرى طويلة رأت مجموعة من العصافير تزقزق ، ثم رأت الى جانب شجرة دردار قرميد سطح منزل مولتبي . وكان الهدوء يسود المكان بحيث بدا كأنه مهجور منذ مائة سنة . وقالت لنفســـها : « كم هو مهمل ومهترىء ! وكم هو جميل ورث ! »

ودخلت الى الباحة من بوابة متداعية . وكان تقلب الطقس قد خلف ابنية المزرعة رمادية اللون . ودارت الآنسة مورغان حول زاوية المنزل وجمدت في مكانها ، وارتخى فكها الاسفل ومرت موجة باردة في عروقها . فقد رأت في وسط البـــاحة عمودا منصوبا وقد ربط اليه رجل عجوز رث الثياب . وكان هناك رجل اصغر سناً ، يرتدي ثيـــابا اكثر تمزيقاً ، يقوم

بتكديس الاعشاب عنـــد قدمي الاسير . وارتجفت الآنسة مورغان وتراجعت الى وراء زاوية المـــنزل . وراحت تردد لنفسها : « هذه الامور لا تحدث ! انك تحلمين . هذه الامور لا تحدث . ولا يمكن ان تحدث »

ثم سمعت حديثاً بين الرجلين ربما كان من اكثر الاحاديث ودا فقد قال الجلاد :

ـ الساعة تقارب العاشرة .

واجاب الاسير :

ـ اجل ، انتبه كيف تشعل النار في العشب . وتأكد من انهم آتون قبل ان تشعله .

وكادت الآنسة مورغان تصرخ ولكنها تنفست الصعداء. وتقدمت ببطء الى « المذبح » فالتفت الرجل الطليق ورآها وبدت الدهشة عليه لحظة ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وانحنى لها . على ان انحناءة تصدر من رجل ملتح رث الثياب ممزقها كانت انحناءة ساحرة وساخرة . وقالت الآنسة مورغان مبهورة الانفاس :

ـ انني معلمة المدرسة . لقد خرجت للنزهة فشاهدت هذا المنزل . وقد خيل لي لفترة ان هذه المحرقة حقيقية .

وابتسم جونيوس وأجاب :

ـ ولكنها حقيقية فعلا . انها اكثر مما تظنينه . وقد خيل لي لحظة انك النجدة ، لانها ستأتي في الساعة العاشرة .

وانطلق عواء ثعالب تحت المنزل بين الصفصاف . وتابع جونيوس قائلا :

ـ هذه هي النجدة . عفوا يا آنسة مورغان ، الست هي ؟ انني جونيوس مولتبي ويدعى هذا السيد ، في الايام العادية ، جاكوب شتوتز . ولكنه اليوم رئيس الجمهورية الامريكية الذي يحرقه المنود . وقدفكرت بان نجعله الجنرال الاسكتلندي « غوينفير » ولكنه يصلح رئيساً اكثر ، الا تعتقدين ذلك ؟ ثم انه رفض ارتداء تنورة .

وقال « الرئيس » المقيد الى المحرقة بلطف :

ـ هذا جنون ملعون .

وضحكت الآنسة مورغان وقالت :

ـ هل استطيع مشاهدة النجدة يا سيد مولتبي ؟

ـ انني لست السيد مولتبي . انني ثلاثغاثة هندي .

وعاد عواء الثعالب ينطلق . وقال « الثلاثغاثةهندي » للمعلمة :

ـ اذهبي الى حيث الدرج فلن يعتبروك هندية ويقتلوك هناك .

وتطلع صوب الجدول . كان هناك غصن يهتز بعنف . وحك جونيوس عود ثقاب على سراويله واشعل الاعشاب عند المحرقة . وعندما ارتفع اللهب بدت أشجار الصفصاف كما لو كانت تتمزق ويتحول كل جزء منها الى صبي يصيح . وانطلق الاولادوهم مسلحون بأسلحة تشبه أسلحة الفرنسيين عندما اجتاحوا الباستيل . وما كاد اللهب يرتفع نحو الرئيس حتى كان الاولاد يركلون النار بعنف . وحل المنقذون الحبال

بسرعة ووقف جاكوب شتوتو حرا سعيدا . ولم يكن الاحتفال التالي اقل جمالا من عملية الانقاذ . ففيما وقف الصبيان يؤدون التحية اخذ الرئيس يتنقل بينهم ويعلق على صدر كل منهم قطعة رصاص حفرت عليهـــا كلمة « بطل » . وانتهت اللعبة . واعلن روبي :

ـ يوم السبت المقبل ، سنشنق الاشرار المذنبين الذين حاولوا تنفيذ هذه المؤامرة النذلة .

وهتف الاولاد :

ـ لم لا نشنقهم الآن ؟ لنشنقهم الآن !

ـ لا يا رجالي ، هناك امور كثيرة يجب عملها . يجب ان نعد مشنقة .

والتفت الى والده وقال له :

ـ اظن اننا سنضطر لشنقكما كليكما .

وتطلع بجشع برهة الى الآنسة مورغان ثم عدل عنها مكرهاً .

وكان بعد ظهر ذلك اليوم من اجمـــل ما قضت الآنسة مورغان في حياتها . ورغم انها احتلت مركز شرف على فرع الجميز فقد كف الاولاد عن النظر اليها كمعلمة .

وقد قال روبي :

ـ سيكون الامر ألطف لو خلعت حذاءك .

وقد تحققت الآنسة مورغان من ذلك عندما خلعت حذاءها وادلت بقدميها في الماء .

وفي أصيل ذلك اليوم تحدث جونيوس عن جمعيات اكل

لحوم البشر بين هنود الالوشيان وروى للاطفال كيف تحول الجنود المرتزقة ضد قرطاجنة . ووصف قيام اللاسيدامونيين بتسريح شعورهم قبل موتهم في ترموبيلي . وشرح اصل المعكرونة وتحدث عن اكتشاف النحاس كما لو كان شاهد عيان لعملية الاكتشاف . واخيرا ، عندما عارض جاكوب فكرته الخاصة بطرد آدم وحواء من جنة عدن نشب خصام حاد وعادالاولاد الى بيوتهم . وسمحت الآنسة مورغان لهم بان يسبقوها لانها كانت تريد ان تفكر بهدوء بذلك الرجل الغريب .

وكانت المعلمة وتلاميذها يترقبون بهلع اليوم الذي يزور فيه مجلس الادارة المدرسة . كان ذلك اليوم يوماً رسمياً متوترا وكانت الدروس تتلى باضطراب بينما كان خطأ التهجئة يبدو ذلك اليوم جريمة عظمى وما كان هناك من يوم مثله يخبط فيه التلاميذ خبط عشواء وتتوتر فيـــه اعصاب المعلمة كمثل ذلك اليوم .

وقد جاء اعضاء مجلس الادارة لزيارة مدرسة حقول الفردوس بعد ظهر ١٥ كانون الاول « ديسمبر » ودخلوا المدرسة في شكل طابور بعد الغداء مباشرة وقد ارتدوا ملامح الوجوم الجنائزي مشفوعة ببعض الاستحياء . وكان في طليعتهم جون هوايتسايد الكهل الذي كان متساهلا حيال قضية التعليم الامر الذي كان يتعرض من اجله للانتقاد احيانا في الوادي . ودخل

بعده بات هبرت . وكان بات قد انتخب لانه اراد ذلك .
فقد كان رجلاً وحيدا لا يعرف كيف يلتقي بالناس وكان
يغتنم كل فرصة للاتصال بهم . وكانت ثيـــابه عادية وفاقة
كالثوب البرونزي على تمـثال لنكولن في واشنطن . وتبعه
ت . ب الن وهو يتدحرج في الممر . ولما كان التاجر الوحيد
في الوادي فقد كان مقعده في مجلس الادارة من حقه . وجاء
وراءه ريموند بانكس الضخم المرح والاحمر اليدين والوجه .
وكان برت مونرو ، العضو المنتخب حديثاً ، آخر من دخل .
ولما كانت هذه اول زيارة المدرسة يقوم بها فقــــد بدا عليه
بعض الارتباك وهو يتبع الاعضاء الآخرين الى مقاعدهم في
صدر القاعة .

وعندما جلس اعضاء مجلس الادارة بعظمة جاءت زوجاتهم
وجلسن في آخر القاعة ، خلف الأولاد واخذ الاولاد يتلوون
بارتبـــاك . وقد شعروا بانهم محاصرون وان طريق الهرب
مسدودة ، اذا احتاجوا للهرب . وعندما التفتوا في مقاعدهم
رأوا النساء يبتسمن لهم . وشاهدوا ربطة كبيرة من الورق على
ركبتي السيدة مونرو .

وبدأ الدرس فرحبت الآنســـة مورغان ، وعلى وجهها
ابتسامة متوترة ، بمجلس ادارة المدرسة . وقالت :
ـ لن نفعل شيئاً غير عادي ايها السادة . اظن انه سيهمكم
اكثر ان تشاهدوا بصفتكم الرسمية المدرسة كيف تعمل كل يوم .
وبعد قليل تمنت لو انها لم تقل ذلك . اذ انها لم تذكر انها

رات يوماً اولادا بمثل هذا الغباء . فقد ارتكب الذين حاولوا انتزاع الكلمات من افواههم المتجمدة اشنع الاخطاء . وكانت تهجئتهم مخيفة في اخطائها كما كانت قراءتهم شبيهة بهذيان مجنون. وحاول اعضاء مجلس الادارة الاحتفــاظ بهيبتهم ولكنهم لم يستطيعوا الامتناع عن الابتسام وتصورت مجلس الادارة وهو يطردها من وظيفتها غاضباً . وظلت النساء في المؤخرة يتنسمن بعصبية . ومر الوقت . وبعد ان انتهى تشويه الحساب نهض جون هوايتسايد من مقعده وقال :

ـ اشكرك يا آنسة مورغان . اذا سمحت لي سأقول بضع كلمات للاولاد ثم يصبح بامكانك صرفهم . يجب ان يحصلوا على بعض التعويض عن تحملهم ايانا .

وتنفست المعلمة الصعداء وقالت :

ـ اذن فقد تبينتم انهم لم يكونوا في حالة طبيعية ! انني سعيدة لانكم تعرفون هذا .

وابتسم جون هوايتسايد . فقـــد رأى معلمين كثيرين مضطربين في ايام زيارة مجلس الادارة . وقال :

ـ لو ظننت انهم كانوا يبذلون اقصى ما يستطيعون لاغلقت المدرسة .

ثم تحدث الى الاولاد خمس دقائق وقال لهم ان عليهم ان يدرسوا كثيرا ويحبوا معلمتهم . وقد كان هذا الخطاب هو ذاته الذي اعتـــاد القاءه منذ سنين وقد سمعه التلاميذ الكبار مرارا . وبعد ان انتهى من الكلام طلب من المعلمة صرف

التلاميذ . وخرج الاولاد بهدوء ولكن ما ان اصبحوا في الهواء الطلق حتى شعروا بان خلاصهم اكبر من أن يكتموه ، فانطلقوا يصيحون ويبذلون اقصى جهدهم لقتل بعضهم بعضاً طعناً في بطونهم او بقطع رؤوسهم بسكاكين وسيوف وهمية .
وصافح جون هوايتسايد الآنسة مورغان وقال لها بلطف:
ـ لم نحظ بمعلمة حفظت نظام المدرسة أحسن منك . وأظن انك لو عرفت كم يحبك الاولاد لشعرت بالحرج .
وأجابت باخلاص :
ـ انهم اولاد طيبون . انهم اولاد طيبون جدا .
ووافق جون هوايتسايد قائلا :
ـ طبعاً . على فكرة ، كيف حال مولتبي الصغير ؟
ـ انه صبي مجتهد مثير الفضول . واظن انه يتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء .
ـ لقد تحدثنا عنه في اجتماعات المجلس ، يا آنسة مورغان . انك تعرفين ان حياته في المنزل ليست كما يجب ان تكون . لقد لاحظته بعد ظهر اليوم بصورة خاصة . ان المسكين يكاد يكون دون ثياب .
وشعرت الآنســـة مورغان بان عليها أن تدافع عن جونيوس فقالت :
ـ انه يقيم في منزل غريب . وهو ليس من نوع البيوت المعتاد ولكنه ليس شيئاً .
ـ لا تسيئي فهمي يا آنسة مورغان . اننا لن نتدخل

لقد فكرنا باعطـــائه بعض الاشياء . انك تعرفين ان والده فقير جدا .

ـ اعرف ذلك .

ـ لقد ابتاعت له السيدة مرنرو بعض الالبسة . فهل الك في دعوته الى القاعة حتى نعطيه اياها .

وردت قائلة :

ـ لا... افضل ألا . . .

ـ لمَ لا ؟ لدينـــا له بضعة قمصان وزوج من السراويل وبعض الاحذية .

ـ ولكن هـــذا قد يحرجه يا سيد هوايتسايد . انه صبي ذو كبرياء .

ـ ايحرجه ان تكون لديه ثياب لائقة ؟ هذا هراء ! اعتقد انه سيحرجه اكثر ان لا تكون لديه هذه الثياب . والطقس فوق ذلك ، بارد ولا يجوز معه ان يظل حافياً في هذا الوقت من السنة ، فمنذ اسبوع والجليد يقبع عـــلى الارض كل صباح .

فأجابته المعلمة بيأس :

ـ أود الا تفعل ذلك . انني اود حقاً الا تفعل .

ـ الا تعتقدين يا آنسة مورغان بانك تبالغين في الامر ؟ لقد تلطفت السيدة مونرو وابتاعت له هذه الاشياء . ارجوك ان تستدعيه حتى تعطيه اياها .

وبعد برهة كان روبي واقفاً امامهم . وكان شعره يتدلى

على وجهه بينما كانت عيناه لا تزالان تلمعان بحماسة اللعب في الباحة . وتطلع الاشخاص المحتشدون في مقدمة القاعة اليه بلطف وهم يحاولون عدم التحديق بثيابه الممزقة . وراح روبي ينظر اليهم بارتباك .

وقالت الآنسة موورغان :

ـ لدى السيدة منرو شيء ستعطيك اياه يا روبرت .

ثم تقدمت السيدة مونرو ووضعت الحزمة بين ذراعيه وقالت :

ـ يا له من صبي لطيف !

ووضع روبي الحزمة بعنـــاية على الارض ووضع يديه خلف ظهره .

وقال ت.ب. آلن بعبوس :

ـ افتحها يا روبرت . اين تهذيبك ؟

وحدق به روبي بنفور وقال :

ـ نعم يا سيدي .

ثم حل عقدة الخيط . وانفردت القمصان والسراويل امامه واخذ ينظر اليها دون فهم . وفجأة بدا انه يدرك ما هي . فتضرج وجهه بالدم الحار . واخذ يتطلع حوله برهة باضطراب كالحيوان الواقع في الفخ ثم قفز الى الباب مخلفاً كومة الملابس على الارض . وسمع مجلس الادارة وقع خطوتين على المدخل واختفى روبي .

والتفتت السيدة مونرو بيأس الى المعلمة وسألتها :

ـ ماذا به ؟

فقالت الآنسة مورغان :
ـ اظن انه احس بالحرج .
ـ ولكن لماذا ؟ لقد كنا لطفاء جدا معه .
وحاولت المعلمة ان تشرح لهم الامر وحنقت عليهم بعض الشيء وهي تقول :
ـ اظن ... لا اظن انه عرف انه فقير قبل اللحظة الماضية.
وقال جون هوايتسايد معتذرا :
ـ كان الذنب ذنبي . انني آسف يا آنسة مورغان .
وسأل برت مونرو :
ـ ما الذي نستطيع ان نفعله لاجله ؟
ـ لا اعرف . انني لا اعرف حقاً .
والتفتت السيدة مونرو الى زوجها قائلة :
ـ برت ، اظن انه من المفيد ان تذهب وتحدث السيد مولتبي في الامر . واريدك ان تكون لطيفاً معه . قل له انه لا يجوز ان يسير الاولاد حفاة على الجليد . قد تفيد مجرد كلمة كهذه . وقد يدعو السيد مولتبي روبرت الصغير الى قبول الثياب . ما رأيك يا سيد هوايتسايد؟
ـ انني لا احب ذلك . وعليكم ان تقرروا الامر بالتصويت وتسجلوا اعتراضي على هذه المهمة فقد احدثت ما فيه الكفاية من الاذى .
واصرت السيدة مونرو قائلة :
ـ اظن ان صحته اهم من مشاعره .
واغلقت المدرسة اسبوع الميلاد في ٢٠ كانون الاول ،

واعتزمت الآنسة مورغان ان تقضي اجازتها في لوس انجلوس . وفيا كانت تنتظر ، عند مفترق الطرق ، سيارة تقلها الى ساليناس رأت رجلا وصبياً يسيران على طريق حقول الفردوس باتجاهها. وكانا يرتديان ثيابا رخيصة جديدة ويسيران كأن اقدامهما تؤلمها . وعندما اقتربا منها امعنت الآنسة موورغان النظر في الصبي وتبينت أنه روبي . وكان وجهه كئيباً تعيساً . فهتفت:

ـ روبرت ! ماذا هنالك ؟ الى أين انت ذاهب ؟

وتكلم الرجل فقال :

ـ اننا ذاهبان الى سان فرنسيسكو يا آنسة مورغان .

ورفعت رأسها بسرعة . فقد كان الرجل جونيوس نفسه دون لحيته . ولم تكن قد انتبهت الى أنه متقدم في السن الى هذا القدر . وحتى عينيه ، اللتين كانتا تتألقان بالشباب ، بدتا مسنتين . وقد كان شاحب اللون طبعاً لان لحيته كانت قد حمت جلده من ان تلوحه الشمس وكانت معالم الحيرة العميقة مرتسمة على وجهه . فسألته الآنسة موورغان :

ـ هل انتما ذاهبان لقضاء العيد ؟ انني احب كثيرا مخازن المدينة في موسم عيد الميلاد . وانني استطيع التفرج عليها اياماً دون ملل .

واجاب جونيوس ببطء :

ـ لا ، اظن اننا سنبقى هنــاك باستمرار . انني محاسب يا آنسة مورغان . او بالاحرى كنت محاسباً قبل عشرين سنة . وسوف احاول العثور على عمل .

وكان الالم باديا في صوته فسألته :

ـ لماذا تفعل ذلك ؟

واجابها شارحاً :

ـ لم اكن اعرف اني اسيء الى الصغير هنـــا . لم افكر بذلك ابدا . اظن انه كان علي ان افكر بذلك . يمكنك ان تري أنه يجب الا ينمو في الفقر . انك تدركين ذلك ، اليس كذلك ؟ لم اكن اعرف ما يقوله الناس عنا .

ـ لمـــاذا لا تبقى في المزرعة ؟ انها مزرعة خصبة اليس كذلك ؟

ـ ولكنني لا استطيع العيش منها يا آنسة مورغان . انني لا اعرف شيئاً عن الزراعة . سيحاول جاكوب العمل بالمزرعة ولكنك تعرفين ان جاكوب كسول . وبعد مدة ، عندما استطيع ذلك ، سأبيع المزرعة حتى يستطيع روبي الحصول على بعض الاشياء التي حرم منها .

راود الغضب الآنسة مورغان ولكنها في الوقت ذاته شعرت بانها توشك ان تبكي . وقالت له :

ـ هل تصدق كل ما يقوله لك الحمقى ؟

ونظر اليها بدهشة ، واجاب :

ـ طبعاً لا . ولكنك تستطيعين ان تري بنفسك انه لا تجوز تربية الولد كالحيوان الصغير ، اليس كذلك ؟

وبدت السيارة على الطريق واخذت تقترب منهم . وأشار جونيوس الى روبي وقال :

ـ لم يرد أن يأتي . وقد هرب الى التلال . لقد امسكنا به الليلة الماضية انا وجاكوب . لقد عاش طويلا كالحيوان الصغير . ثم انه بجانب ذلك يجهل كم ستكون الحياة جميلة في سان فرنسيسكو .

وتوقفت السـيارة . وصعد جونيوس وروبي الى المقعد الخلفي ، وكادت الآنسة مورغان ان تجلس بجانبهما ، ولكنها دارت فجأة وجلست بجانب السائق . وقالت لنفسها :

ـ لا شك بانهما يريدان الانفراد .

عندما وافت المنية نورمو لوبيزلم يكن نمو بنيتيه قد اكتمل، ولم يترك لهما من حطام الدنيا سوى اربعين فدانا على سفح جبل من الارض الصخرية التي لا ينبت فيها الا الشوك والعوسج . وكانت البنتان تقيمان في في بيت صغير مصنوع من الالواح الخشبية المبيضة بالكلس ، وللبيت سقيفة وبئر وزريبة . وقد ذهبت اتعاب البنتين لتحويل جزء من تلك الارض الجرداء الى بستان صغير ادراج الرياح، الا أنهما نجحتا بعض النجاح في زراعة الشيء



القليل من البقول والخضار . وكان هـــذا لا يكفي للقيام باودهما ، فمضها الجوع ، ولكنهما صمدتا له صمود الشهداء الى ان تغلب الجسد في النهاية . كانتا بدينتين وكانتا مرحتين ، ومن كانت هذه صفاتهن فلا يستشهدن في سبيل امر عادي كالطعام، لا يمت للدين بصلة .

وخطر يوماً على بال روزا أن تسأل اختها ماريا :

ـ السنا امهر من صنع الفطائر في هذا الوادي ؟

فأجابت ماريا بورع وخشوع :

ـ لقد اخذنا هذا الفن عن المرحومة امنا .

فقالت روزا :

ـ اذا فقد نجونا . سنعمد الى صنع ثلاثة انواع من الفطائر نبيعها الى اهل حقول الفردوس .

فسألت ماريا والشك يعتمل في نفسها :

ـ انظنين ان هؤلاء الناس يشترون فطائرنا ؟

فأجابتها :

ـ اصغي الي ياماريا . يوجد في مونتيري عدة امكنة لبيع الفطائر التي هي دون ما نصنعه نحن منها . ومع ذلك فدلائل الثروة والغنى من مزايا هؤلاء الباعة وهم دائما يرفلون بالثياب الجديدة . ثم ايمكن ان تقارن فطائرهم بفطائرنا ؟ اوجه اليك هذا السؤال وذكرى امنا لا يبرح من مخيلتي .

فاغرورقت عينا ماريا بالدموع لمـــا اهتاج في قلبها من العاطفة وقالت بحدة :

ـ كلا ، لا يمكن مقارنة ما يصنعه اولئك الباعة بما نصنعه نحن من الفطائر. لا يوجد في العالم باسره مثل الفطائر التي كانت تصنعها امنا بيدها الطاهرة .

فقالت روزا :

ـ حسناً اذاً . طالما انها جيدة لهذه الدرجة فسوف يقبل الناس على شرائها .

وعقب هذا الحديث اسبوع مفعم بالاستعداد المصحوب بالحماسة، كانت الفتاتان خلاله لا تنقطعان عن التنظيف والزخرفة والعرق يتصبب منها . وعندما انتهتا من عملها كان بيتها الصغير قد لبس حلة قشيبة من بياض الكلس من الخارج ومن الداخل ايضاً. وزرعت بعض الزهور قرب مدخل البيت وجمعت النباتات الجافة والاوساخ التي تراكمت على مر السنين واحرقت. وحولت الغرفة الامامية من البيت الى مطعم يحتوي على مائدتين يغطيها مفرشان من المشمع الاصفر وارتفعت على السياج القريب من الطريق العام لوحة خشبية كتب عليها ما يلي :

« يوجد عندنا ثلاثة أنواع من الفطائر الشهية وبعض الطعام المطهي على الطريقة الاسبانية ر . و . م . لوبيز »

لم يكن الاقبال في بادىء الامر كبيراً . بل كان قليلاً جداً في الواقع . وكانت الاختـــان تجلسان الى مائدتيها الصفراوين في انتظار ما يأتيها به الحظ كطفلتين طروبتين لا هم لها سوى بيع الفطائر . ولكن ما ان يدخل احد الزبائن حتى تهبا واقفتين لخدمته وكانتا تضحكان بسرور لكل ما يقوله

الزبون ولم يكن يفوتها الافتخار باجدادها وبما صنعتاه من الفطائر.
كانتا تلفان اكمامها الى اعلى الذراع لاظهار بياض بشرتها الصافي الاديم الدال على نقاوة دمها وخلوه بتاتا من دم الهنود ولكن الزبائن كانوا قليلين جدا ، الامر الذي جعل الشقيقتين تقاسيان المتاعب الجمة . فلم تكونا تتمكنان من صنع كمية كبيرة من الفطائر لئلا تفسد اذا بقيت مدة طويلة .
وبما ان احد انواع الفطائر يحتاج الى اللحم الطازج فقد اخذتا تنصبان الفخاخ للطيور وللارانب . وكانتا تحتفظان بصيدها من الطير داخل الاقفاص الى حين الحاجة اليها لصنع الفطائر . ومع ذلك ما فتيء العمل في ركود .
وفي صباح احد الايام جابهت روزا اختها ماريا بقولها :
ـ عليك ان تسرجي الحصان يا ماريا . فلقد نفدت نخالة الذرة من عندنا ، فاشتري قليلا الآن من مونتيري ومتى ازدهر العمل سنشتري الكثير .
قالت هـــذا ووضعت في يد اختها قطعة فضية من النقود واضافت :
ـ اذا زاد شيء عن الثمن فهاتي معك قطعة من الحلوى ، لي ولك . . اعني قطعة كبيرة .
فاطاعت ماريا وقبلت اختها ثم سارت نحو الزريبة .
عندما عادت ماريا الى البيت بعد ظهر ذلك اليوم ،وجدت اختها ساكنة هادئة بصورة تبعث على الاستغراب . فلقد افتقدت منها ما اعتادت سماعه من الزعيق والصياح والالحاح على معرفة

كل تفاصيل الرحلة عقب عودتها الى البيت . كانت روزا جالسة الى احدى المائدتين وقد ارتسمت على وجهها معالم التفكير العميق . اقتربت منها ماريا بفتور قائلة :

ـ اشتريت نخالة الذرة بثمن رخيص جدا وهاك يا روزا الحلوى وهي من اكبر نوع وباربعة سنتات فقط .

اخذت روزا ما قدمته لها اختها من الحلوى وراحت تمضغها وهي ما زالت غارقة في تفكيرها بينما جلست ماريا قريباً منها وعلى وجهها ترتسم ابتسامة كلها لطف ودعابة مشفوعة برجاء صامت ان تشاطرها اختها عبء همومها .

ولكن روزا مكثت في جلستها كالصخر الاصم وهي تمضغ قطعة الحلوى وفجأة حدقت في عيني ماريا وقالت بعبوس ورزانة :

ـ اليوم . اليوم وهبت نفسي لاحد الزبائن .

فأخذت ماريا تبكي ، وقد غلب عليها التأثر . بينما تابعت روزا حديثها قائلة :

ـ تخطئين اذا حسبت انني اخذت منه ثمن ما وهبت . ولكن الرجل اكل ثلاث فطائر ـ اكل ثلاثا .

فانفجرت ماريا منتحبة وهي تعول بعصبية حادة كالاطفال فانتهرتها روزا بقولها :

ـ كفى عويلا وانتحابا . ما الذي ترتئين ان افعله الآن ؟ علينا ان نشجع زبائننا اذا اردنا النجاح . وقد اكل ثلاث فطائر يا ماريا ، ثلاثا . ودفع ثمنها . فما رأيك يا ماريا ؟

فزفرت ماريا واستعانت بما عندها من الشجاعة الادبية

واجابت اختها قائلة :

ـ اظن ان امنا ستكون سعيدة ، يا روزا ، كما اظن ان روحك ستسعد ايضاً اذا طلبت المغفرة من امنا العذراء ومن القديسة روزا .

فابتسمت روزا ابتسامة عريضة وعانقت اختها وهي تقول:

ـ هذا هو عين ما فعلت عقب خروجه . لم يكد يخطو خطوة خارج البيت حتى كنت راكعة على ركبتي اطلب الغفران.

فاختطفت ماريا نفسها من بين ذراعي اختها مسرعة الى غرفة نومها حيث ركعت مدة عشر دقائق تحت ايقونة العذراء المعلقة على الجدار ثم نهضت وارتمت في حضن اختهـــا روزا وهي تصيح بسرور :

ـ روزا ، اختي ، اظن . . اظن بأنني ســـأشجع الزبائن انا ايضاً .

وتعانقت الشقيقتان وامتزجت دموعها الفرحة .

كان ذلك اليوم نقطة تحول في شؤون الفتاتين . حقاً ان العمل لم يزدهر كثيرا . ولكنهما اخذتا منذ ذلك اليوم تبيعان من الطعام المطهي على الطريقة الاسبانية ما يكفي لاشغال المطبخ وللقيام بأود مأكلهما وملبسهما من الثياب الفاتحة الالوان المتهدلة على جسميهما السمينين المستديرين . ولقد ثابرت الفتاتان على التدين والورع . فكلما ارتكبت احداهما خطيئة امرعت الى تمثال العذراء ، المصنوع من البورسلين والموضوع في مكان مناسب من قاعة البيت ليكون قريب المنال من غرفتي النوم،

تصلي طالبة الغفران . فما سمعتا للخطايا بأن تتراكم ، فقد كانتا تعترفان بكل خطيئة عقب ارتكابها بسرعة . وكانت ارض القاعة تحت تمثال العذراء تلمع لكثرة ما ركعت الفتاتان هناك بالبسة النوم .

لقد اصبحت الحياة بهيجة وسارة لدى الشقيقتين لوبيز ، لا تشوبها حتى ولا شائبة المنافسة بينهما . اذ انه بالرغم من ان روزا كانت اكبر واشجع من ماريا فانهما كانتا متشابهتين تماماً . كانت ماريا اكثر سمنة من روزا قليلا ، بينما كانت روزا اطول من اختها بقليل .

اخذ البيت يضج بالضحك والقهقهة وبصرخات الحماسة . فكانت الفتاتان ترفعان صوتهما بالغناء اثناء صنع الفطائر بايديهما السمينة القوية. وما ان يتفوه احد الزبائن بنكتة وعلى الاخص توم بريان وهو يأكل فطيرته الثالثة حتى تستغرقان في الضحك المغناج نصف ساعة . وكلما تذكرتا تلك النكتة في اليوم التالي عادتا للضحك من جديد. فقد كانت الفتاتان تتقنان حفظ النكت وترديدها حتى تتشرباها الى الثمالة . فكان السيد توم على حد تعبيرهما ، رجلا لطيفا وظريفا وغنيا ايضاً . لقد اكل مرة خمسة اطباق من الطعام دفعة واحدة . ولكنه كان علاوة على ما تقدم رجلا شديد القابلية الجنسية وهذا ما يندر في الاغنياء . اجل كان قويا جدا . وعندما كانتا تتفوهان بهذه الملاحظات اثناء صنع الفطائر كانتا تنكسان رأسيهما بلتلذذ كما يفعل الخبير بالخمور وهو يتذكر خمرة جيدة معتقة .

لا يجب ان تظن ايهـــا القارىء الكريم ان الفتاتين كانتا تسرفان في تشجيع الزبائن ذلك انهما ما كانتا تتقاضيان الا ثمن ما تقدمانه من الطعام. ولكن قلبيهما الرقيقين كانا يمتلآن عرفانا كلما شاهدتا زبونا يأكل ثلاثة اطباق او اكثر مـــن طعامهما ويصبح الزبو ن والحالة هذه مرشحا للتشجيع .

وفي احدى الليالي السيئة الطالع جاء رجل تعجز معدته عن ازدراد ثلاثة اطباق وقـــدم لروز نقود العار . وكان هناك عـدة زبائن حينئذ في البيت · التقطت اسماعهم ذكر العرض المالي في الحديث بينها وبينه وفي الحـــال توقف اللغط وساد المكان بغتة سكوت مخيف فغطت ماريا وجهها بيديها . امـا روزا فاصفر وجهها ثم تورد ملتهبا بما تدفق اليه من دم الغضب واخذت تلهث من التأثر والانفعال وقدحت عينـاها شررا . وارتفعت يداها السمينتان القويتان واستقرتا عـــلى ركبتيها . وعندمـــا تكلمت فعلت ذلك بضبط عجيب لجماح عاطفتها . قالت بصوت اجش :

ـ عملك هذا يعد اهانة لي . انك قد لا تدري بان الجنرال « فاليجو » يكاد يكون جدنا . ان قرابته لنا شديدة وفي عروقنا تجري دمـاء نقية . فما كان الجنرال فاليجو يقول لو سمع هذه الاهانة توجه الى سيدتين من افراد عائلته ؟ لا شك بان يمناه كانت ستبادر الى قبضة سيفه لغسل هـــذه الاهانة بالدم . انك تقول لنـا « لستما سوى امرأتين شائنتين » تقول ذلك لنا نحن اللتين نصنع اطيب الفطائر والذها في كل كاليفورنيا.

وعادت تلهث نتيجة ما تبذله من مجهود لكبح عنان اعصابها . فاخذ المعتدي يتمتم :

ـ انني لم اعن شيئاً . اقسم بالله يا روزا انني لم اعن شيئاً مسيئاً .

هدأت سورة غضبها عندئذ ورفعت احدى يديها عن وركها واشارت بها الى الباب وهي تقول له بلطف وكآبة :

ـ اذهب ، انني لا اظن بانك عنيت شيئاً مسيئا . ولكن الاهانة مع ذلك باقية .

وما ان غادر المذنب البيت حتى صاحت :

ـ والآن هل يرغب احد منكم في طبق من الطعام الخاص المطهي على الطريقة الاسبانية ؟ طعام لا نظير له في العالم .

درجت الشقيقتان على ان تكونا سعيدتين وكانت ماريا ذات الطبيعة الرقيقة الحلوة تزرع المزيد من زهور الجيرانيوم حول البيت وشجيرات الخبيزي حول السياج . وفي رحلة الى ساليناس اشترت وتهادت كل من الاختين قبعة نوم اشبه ما تكون بعش عصافير مقلوب فقد كانت مصنوعة من الشرائط الزرقاء والقرنفلية اللون وقد جعلها هذا التهادي في منتهى السعادة ، فوقفتا امام المرآة جنبا الى جنب ، ثم ادارتا رأسيهما وابتسمتا بشيء من الحزن في وجه بعضهما وهما تقولان في سرهما :

ـ ان هذا ليوم عظيم . وسنذكر هذه الفترة دائماً كاسعد ايامنا . أليس من العار ان لا تدوم .

وخشية من ان لا تدوم وضعت ماريا آنية كبيرة مملوءة بالزهور امام تمثال العذراء . ولكن تشاؤمها لم يكن له ما يبرره فلم يحدث لها الا القليل مما يعتور سعادتها . واشترت ماريا حاكيا « فونوغراف » صغيرا مع عدة اسطوانات للموسيقى الراقصة من التانجو والفالس . وكانت الاختان كلما انهمكتا بصنع الفطائر ادارتا الحاكي فتزيد الانغام من نشاطهما .

ولكن في وادي « حقول الفردوس » لم يكن ثمة مندوحة عن التهامس بين النساء بانالشقيقتين لوبيز هما امرأتان جانحتان . ولذا اخذت سيدات الوادي يخاطبنهما عند مرورهما ببرود . اما كيف عرفت هؤلاء السيدات باخبار الفتاتين فليس في وسعنا ادراكه . فمن المؤكد ان رجالهن لم يخبروهن ومع ذلك فقد عرفن . انهن دائما يعرفن كل شيء .

وفي صباح احد ايام السبت وقبل انبثاق الفجر حملت ماريا جهاز الحصان القديم المصلح والمرقع بالخيطان القوية ووضعته على ظهر حصانها « ليندو » الهزيل المسن . وراحت تخاطبه وهي تبكل حزام كفله .

ـ تشجع يا صديقي . اعطني فمك لاضع اللجام يا ليندو .

ثم ارجعته القهقرى حتى اوقفته بين عامودي عريش العربة العتيقة ، وعندما اتمت ماريا ربطه الى العربة التفت اليها بحزن فلسفي شديد . لم يعد ليندو يهتم باية وجهة سيتجه فقد بلغ من الكبر عتيا بحيث لم تعد تثيره حتى العودة من رحلاته الى البيت .

ورفع الحصان شفتيه فكشف عن اضراسه الصفراء الطويلة، وصر عليها بيأس ، فاخذت ماريا تعزيه بقولها :

ـ ليست الطريق بعيدة . سنسير الهوينا فلا يجب ان تخشى هذه الرحلة يا ليندو .

ولكن ليندو لم يكن يخشى الرحلة الى مونتيري فحسب بل كان يعافها وينفر منها كذلك .

عندما تسلقت ماريا العربة مالت هـــذه بصورة تبعث على الخوف والفزع فامسكت المقود بيديها بحذر بالغ وصاحت بالحصان ، وهي تضرب ظهره بحبال المقود :

ـ سر يا صاحبي اتسمع ؟ يجب ان نذهب الى مونتيري لشراء بعض اللوازم .

ارتجف الحصان ودار رأسه نحوها ولم يتحرك من مكانه فعادت الى مخاطبته صائحة غاضبة :

ـ قلت يجب ان تذهب . انني ثابتة في عزمي وغاضبة منك ايضا .

واخذت ترفرف حبال المقود بضراوة وتضرب بها ظهره . فدلى ليندو رأسه نحو الارض حتى كاد يلمسها كما تفعل الكلاب مقتفية الاثر وخرج ببطء من ساحة الدار . كان عليه ان يسير تسعة اميال الى مونتيري ومثلها في العودة . وكان ليندو يعرف ذلك تماماً ولذلك كان قانطاً . اما ماريا فبعد ان زال غضبها وتبخر حزمها راحت تغني بعض الحان التانجو .

كانت التلال تتلألأ بما عليهــا من الطل والندى . وكانت رئتا ماريا تمتلئان بالهواء النقي الرطب المنعش فتزداد غناء حتى

ان ليندو وجد في منخريه ما يكفي من الشباب للشخير . بينما اخذت قبرة تطير من عمود هاتفي الى آخر وهي تكثر من التغريد . واطلت ماريا فرأت رجلا يسير في الطريق من بعيد وقبل ان تصل بعجلتها الى قربه عرفت من مشيته المتثاقلة التي تحاكي مشية القرود انه الن هوينكر اقبح رجال الوادي واشدهم استحياء .

ولم يكن الن هوينكر يحاكي القرود بمشيته فحسب بل كان يشبه القردة تماما حتى ان الصبية ان شاء احدهم اهانة صاحبه اشار الى الن قائلا :

ـ هوذا اخوك .

وكان هذا اقسى ما يستطيعه الصبية من الهجو. اما الن فان خجله وفزعه من منظره المخيف دفعه لمحاولة اطلاق لحيته، عساها تغطي وجهه ، ولكن الشعر الخشن المتباعد المشتت نما في غير المواضع المطلوبة فزاد من قبح هيئته . اما زوجته فقد قبلت الزواج به لان عمرها كان سبعا وثلاثين سنة ولانه كان الرجل الوحيد بين معارفها الذي لم يكن يقوى على حماية نفسه . ولقد تبين فيما بعد انها امرأة ذات طبيعة تتطلب الغيرة لكي تعمل كطبائع النساء واذ لم تجد في حياة الن من اسباب الغيرة ما تتحدث عنه راحت تؤلف القصص عنه للجيران ، فتحكي لهم عن جرأته مع النساء وعن عدم استقامته وعن زلاته وآثامه التي يحيط بها الغموض . ولقد اكثرت من ترديد هذه القصص الوهمية حتى صارت تصدقها في حين ان الجيران كانوا يضحكون

منها وراء ظهرهـــا عندما كانت تتحدث عن خطايا الن اذ لا يوجـد في كل انحاء وادي حقول الفردوس مـن يجهل مبلغ استحياء هذا الرجل البشع القميء وذعره .

تعثر الحصان قرب هوينكر فشدت ماريا اللجام كما لو كان ليندو جوادا قويا جموحا وهي تصيح :

ـ قف يا ليندو . اهدأ .

اما ليندو فان اقل ضغط من اللجام كان يجعله يجمد في مكانه كالصخر مرخيا قوامه ينشد الراحة من السير والجر . والقت ماريا التحية على الن بلطف :

ـ صباح الخير .

فابتعد الن بخجل نحو جانب الطريق وهو يتكلف التطلع باهتمام الى سفح الجبل واجاب ماريا على تحيتها باقتضاب :

ـ صباح الخير :

فاردفت ماريا تقول :

ـ انني ذاهبة الى مونتيري فهل ترغب في الركوب ؟

فراح الن يفتش في السماء عن غيوم او عقبان ثم اجـاب بشكاسة :

ـ لست ذاهباً الا الى موقف السيارات العمومية .

ـ وماذا في ذلك ؟ سفرة صغيرة تقطعها راكبـا اليس كذلك ؟

فاخذ الرجل يحك وجهه وهو يحاول ان يقرر شيئا.واخيرا تسلق العربة بغية انهاء المشكلة فجلس قرب ماريا البدينة التي

اوسعت له مكانا وصاحت بالحصان :

ـ سر يا ليندو ! اتسمعني ? سر قبل ان تثير غضبي .

ورفرفت حبال اللجام فوق رقبة ليندو ، فادلى برأسه الى الارض وسار على مهله .

سارت العربة والصمت مستحوذ على من فيها الا ان ماريا سرعان ما تذكرت انه من الكياسة فتح باب الحديث فابتدرت الن بقولها :

ـ اذاهب في رحلة ?

فحدق الن بسنديانة كبيرة وقريبة ولم يجب فاردفت ماريا :

ـ انني لم اركب القطار بعد ولكن اختي روزا فعلت ذلك. فقد ركبت القطار مرة الى سان فرانسيسكو ذهابا وايابا . وقد سمعت عدداً من الاغنياء يتمدحون السياحة والسفر . واختي روزا ايضا توافقهم على ذلك .

ـ انا ايضا لم اسافر الا الى ساليناس .

ـ آه ، طبعاً لقد ذهبت انا اليها مرات كثيرة ، فلنا وروزا في هذه البلدة افضل الاصدقاء كما ان امنا جاءت من هناك . اما ابي فكثيراً ما كان يذهب اليها لبيع الاخشاب والحطب .

فاجتهد الن للتغلب على حيرته وارتباكه ثم قال :

ـ لم اتمكن من تسيير الفورد القديم والا كنت سافرت به .

فتأثرت ماريا من كلامه وقالت :

ـ اذا عندك سيارة فورد ?

ـ ليست سوى فورد قديمة .

ـ لقد قلنا ، اخي واناً، انه يجب علينا ان نقتني يوما مـا سيارة فورد. عندئذ يصبح باستطاعتنا السفر الى اما كن عديدة. لقد سمعت الاغنياء المثرين يقولون ان السفر ممتع .

وحدث في تلك اللحظة ان ظهرت سيارة فورد قديمة تنحدر باتجاههم من اعلى التل كما لو ان الصدفة شاءت ان تعزز الحديث عن السفر فقبضت ماريا على اللجام بقوة وصاحت بالحصان :

ـ اهدأ يا لنيدو .

أما ليندو فلم يأبه لها او للفورد التي كان يستقلها بيرت مونرو وزوجته ولقد اجتازتهما السيارة ولكن بيرت ظل ينظر الى الوراء ثم صاح ضاحكاً .

ـ يا الله ارأيت ما رأيت؟ارأيت زئر النساء مع ماريا لوبيز؟

فابتسمت زوجته ولم تجب فعاد بيرت للكلام صائحاً :

ـألا تظنين انها تكون دعابة طريفة ان نخبر السيدة هوينكر باننا رأينا زوجها يفر هاربا مع ماريا لوبيز ؟

ـ لا تفعل شيئاً من هذا يا بيرت .

ـ ولكنها تكون دعابة في غاية الطرافة فانت تعرفين كيف تتحدث عنه .

ـ كلا لا تفعل ذلك يا بيرت .

وفي اثناء ذلك استمرت ماريا تسوق العجلة وهي تتحدث ببساطة مع ضيفها المنزوي المنكمش فقالت :

ـ انك لا تأتي الى بيتنا لتناول الفطائر .فما من فطائر تماثل فطائرنا ذلك لاننا تعلمنا صنع الفطائر من امنا التي ذهب صيتها

في صنع الفطائر الى مدينة سان جوان بل ابعد من ذلك اذ وصل الى مدينة غيلوري فكان يقال ان ما من مخلوق يضاهيها في صنع الفطائر المتناهية في الرقة والتسطح .

اعلم ان الفن في الصناعة يكاد ينحصر في رقها ولم يكن يوجد من يتقن رق الفطائر كأمنا ولم يجارهـا أحد حتى ولا اختي روزا. وها انا ذاهبة الآن الى مونتيري لشراء دقيق لانه هناك يباع بسعر بخس .

وغرق الن في مقعده وهو يرجو سرعة الوصول الى موقف السيارات .

كان الاصيل قد شارف على نهايته قبل ان اقتربت ماريا من البيت عائدة من مونتيري . فخاطبت ليندو قائلة :

ـ بعد قليل سنصل الى البيت يا ليندو تشجع يا صديقي لم يبق من الطريق سوى مسافة قصيرة .

وكانت ماريا تضحك في سرها توقعاً لما سيحدث في البيت عند وصولها. اذ انها في ثورة من ثورات التبذير اشترت اربع قطع من الحلوى بدل اثنتين . وليت الامر وقف عند هذا الحد بل انها اشترت هدية لروزا هي زوج رباط الجورب من الحرير ، عريض ومزين بوردتين حمراوين من كل جانب . ورأت بعين الخيال اختها وهي ترتدي ربطة الساق ، ثم وهي ترفع طرف ثوبها ـ بالطبع قليلا ـ فتظهر الربطة . وتصورت كيف ستقف كلتاهما امام المرآة يضعانها على الارض وينظران فيها الى الربطة وسيبكيان من الغبطة والسرور .

حلت ليندو من العجلة في باحة الدار وهي تكتم ما يعتلج في نفسها من الحبور لانها تدرك ان الكتمان يزيد من شدة الفرح. كان السكون مخيماً على البيت ولم يكن خارج البيت عربات تنبيء بوجود الزبائن . فعلقت جهـاز الحصان واطلقت سراحه فذهب الى المرعى ثم حملت قطع الحلوى الاربع وربطتي الساق وسارت ببطيء نحو المنزل ولما دخلته وجدت روزا تجلس الى احدي الموائد ساكنة صامتة وآثار الألم والحزن على وجههـا المتجهم وقد التمعت عيناها كما لو كانتا قد فقدتا قوة البصر . وضمت قبضتيها ووضعتها على المائدة . ولم تلتفت الى اختهـا عندما دخلت ، ولم يبد عليها انها عرفتها فوقفت ماريا وراحت تحدق النظر فيها ثم قالت باستحياء :

ـ روزا ! لقد عدت للبيت يا روزا ؟

فدارت اختها وجهها ببطء وقالت :

ـ اجل !

ـ امريضة انت يا روزا ؟

ولكن العينين المتألقتين عـادتا للتحديق بالمائدة واجابت اختها بقولها :

ـ كلا

ـ عندي هدية لك يا روزا . انظري يا روزا .

قالت هذا ورفعت ربطة الساق البديعة بيدها . فراحت عينا روزا تزحفان بنظرهما رويداً رويدا نحو ربطة الســاق والوردتين الجملتين الحمراوين اللتين تزينانها ثم تحولتا الى وجه

ماريا . كانت ماريا متأهبة للاندفاع في غمرة حماسها ، ولكنها امتنعت اذ شاهدت دمعتين تهطلان من عيني روزا وتسيلان على خديها . فعادت لمخاطبة اختها بقولها :

ـ الا ترين الهدية يا روزا؟ الا تحبينها يا روزا؟ الا تلبسينها يا روزا ؟

ـ انت اختي الصغيرة الطيبة .

ـ بالله عليك اخبريني يا روزا ما بك . انت مريضة . يجب ان تخبري اختك ماريا . هل جاء احد ؟

فاجابتهـا ماريا بخبث :

ـ اجل جاء الشريف « مدير البوليس »

فاخذت ماريا تثرثر متحمسة :

ـ جاء الشريف اذن لقد سار معنا دولاب الحظ .. الآن اقتربنا من الغنى والثروة . كم فطيرة اكل يا روزا ؟

نفضت روزا عنها جمودها وقامت الى اختها وعانقتهـا بحنو الام ثم خاطبتها قائلة :

ـ يا اختي الصغيرة المسكينة . لم يعد باستطاعتنا بعد الآن بيع الفطائر . علينـا الآن ان نعود الى سابق حياتنا محرومتين من الثياب الجديدة .

ـ هل جننت يا روزا ؟ ما معنى اقوالك هذه ؟

ـ هذه هي الحقيقة يا ماريا.لم يأت الشريف ليأكل من فطائرنا بل ليقول « لدي شكوى ضدكما . وصلني شكوى بانكما تديران بيتا للدعارة » وعندما صحت في وجهه « هذا كذب .

هذا كذب وبهتان واهانة لامنا والجنرال فاليجو » اجاب «الدي شكوى فاما ان تغلقا بيتكما او اضطر للقبض عليكما بتهمة ادارة بيت للدعارة » فعدت للصياح «ولكن هذا كذب فاضح» وحاولت ان اجعله يفهم الحقيقة ولكنه اصر على قوله « لقد وصلتني شكوى بعد ظهر اليوم وعندما تصلني الشكوى لا استطيع عمل اي شيء » ثم اردف بلطف « انظري يا روزا . لست الا خادما للجمهور الذي يقدم الشكاوي » والآن ارأيت يا عزيزتي ماريا كيف انه يتحتم علينا العودة الى حياتنا القديمة ؟

قالت هذا وتحولت عن اختها التي كان وقع الصدمة عليها شديد الاثر وعادت للتحديق بالمائدة . ولقد حاولت ماريا برهة ان تدرك مغزى الامر فلما ادركت عظم المصاب راحت تنشج بالبكاء . وعادت روزا الى الحديث فقالت :

ـ كفى بكاء يا ماريا . لقد فكرت في الامر كثيراً . وانك لاشك مدركة بان الجوع سيعضنا اذا لم نستطع الاستمرار في بيع الفطائر . اذا فلا تلوميني لما سأقول. لقد اتخذت قراري النهائي . . لقد عولت يا عزيزتي ماريا على السفر الى سان فرانسيسكو حيث احترف حرفة المرأة الشائنة .

احنت روزا رأسها فوق يديها السمينتين وتوقفت ماريا عن البكاء وزحفت نحو اختها وهمست في اذنها مرتعبة :

ـ لاجل النقود ؟

فاجابتها روزا بمرارة باكية :

ـ اجل لاجل النقود . لاجل الكثير من المال . وعسى ان

تغفر امي خطيئتي ؟

فتركتها ماريا عندئذ واسرعت تعدو الى القاعة حيث وقفت امام تمثال العذراء البورسليني وهي تصيح :

ـ لقد قدمت لك الشموع وكنت كل يوم اضع الزهور امامك . فما هو ذنبنا حتى تسمحي بما حصل ؟

ثم هبطت على ركبتيها تصلي . فكررت « السلام عليك يا مريم » خمسين مرة . ثم رسمت على وجهها علامة الصليب ونهضت واقفة على قدميها وقد توتر وجهها الا انه تكشف عن حزم وتصميم .

دخلت ماريا الغرفة حيث كانت روزا ما تزال مكبة على المائدة وصاحت بصوت جهوري :

ـ روزا انا اختك وانا مثلك تماما . سأرافقك الى سان فرانسيسكو لانني ايضا سأكون امرأة شائنة .

لم تعد روزا تستطيع ضبط عواطفها فوقفت وقد فتحت ذراعيها لاختها وراحت الاختان في عناق طويل مصحوب بالبكاء والتنهدات . . .

ترجلت مولي مورغان من القطار وانتظرت ثلاثة ارباع الساعة في محطة سالبناس بانتظار سيارة نقل الركاب الكبيرة لتنقلها الى حقول الفردوس .
لم يكن بالسيارة غير سائقها ومولي التي قالت :

ـ هذه هي المرة الاولى التي ازور فيها حقول الفردوس فهل تبعد كثيرا عن الطريق العام .

فاجاب السائق :

ـ حوالي ثلاثة اميال .

ـ وهل اجد سيارة تنقلني الى الوادي؟



ـ كلا الا اذا كان هنالك احد بانتظارك .
ـ اذاً فكيف يصل اليها الناس ؟
ومر السائق بعجلات سيارته فوق جسد ارنب بري بارتياح ظاهر ثم اردف معتذرا :
ـ لا ادهسها الا عندما تكون ميتة . انني احاول دوماً ان اخطئها عندما تبهر انظارها انوار السيارة قليلا .
ـ نعم... ولكن اخبرني كيف اصل الى حقول الفردوس؟
ـ لست ادري ، ربما عليك ان تمشي فاكثر الناس يسيرونه الى الوادي اذا لم يكن ثمة احد بانتظارهم .
وعندما انزلها عند بداية الطريق الجانبي القذر حملت مولي مورغان حقيبتها متجهمة الوجه وسارت نحو الممر عبر التلال .
ووقفت قربها سيارة شحن فورد قديمة فسأل سائقها :
ـ اتذهبين الى الوادي يا سيدتي ؟
ـ آه . . نعم . . نعم .
ـ اذن فهيا اصعدي . لا داعي لخوفك مني فأنا بات همبرت صاحب مزرعة في الوادي .
وتفحصت مولي الرجل المتجهم وهي تقول :
ـ انا المعلمة الجديدة ... اعني باني ارجو ان اكون ذلك .
اخبرني هل تعرف اين يقطن السيد هوايتسايد ؟
ـ طبعاً فهو على طريقنا . انه امين سر مجلس الادارة وانا ايضاً من اعضاء مجلس الادارة وقد كنا نتساءل كيف تكونين .
وشعر بالارتباك لما قاله فاحمر وجهه وهو يستطرد مبررا :

ـ اعني طبعاً كيف ستكون شخصيتك ؟ . . فالمعلمة السابقة قد اتعبتنا كثيرا . كانت صالحة ولكنها كانت دوماً مريضة . مريضة وعصبية جدا . فاضطرت الى تركنا اخـــيرا بسبب مرضها .

وأمسكت مولي قفازها وهي تقول :

ـ تقولون بالرسالة انه علي الاتصال بالسيد هوايتسايد فهل هو مأمون ؟ لا اعني ذلك بل اعني . . . هل هو . . . اعني من أي نوع من الناس هو ؟

ـ ستتفقين معه بكل سهولة فهو رجل مسن طيب . لقد ولد في البيت الذي يعيش فيه الآن وقـــد درس في الجامعة ايضاً . انه رجل طيب وقد ظل امين سر مجلس ادارة المدرسة اكثر من عشرين سنة .

وعندما انزلها امام منزل جون هوايتسايد الكبير شعرت فعلا بالخوف والرهبة وقالت تحدث نفسها :

ـ ها قد حان الوقت . ولكن ليس هناك ما يخيف حقاً . فلن يقدر ان يؤذيني .

كانت مولي في التاسعة عشرة من عمرها وكانت تحس بأن هذه المقابلة التي تتوقف عليها اول وظيفـــة لها نقطة حاسمة في حياتها .

لم تشعر بالاطمئنان وهي تســـير الى البيت في ممر ضيق طويل بين احواض الازهار التي تدل العناية بها على ان زارعها قد امرها وهو يبذر البذار بقوله : « انمي وتكاثري ولـــكن

حذار من أن تتعالى بالنمو وحذار من ان تتكاثري بوفرة . وفوق كل شيء حذار من التجاوز على هذا الممر . كانت هناك يد تقود نمو هذه الازهار وتقوم ما اعوج من أمرها .

كان البيت الكبير رزين المظهر وكان خشب النوافذ الاصفر شبه مغلق لرد شمس الظهيرة . وعندما وصلت الى منتصف الممر رأت امامها مدخل البيت بشرفته الواسعة وكأنها تود معانقة الزائر مرحبة ، وخامرت ذهن موللي فكرة : « يمكن للانسان الاستدلال على مدى وقار البيت من مدخله .. كم يكون الامر سيئاً لو كان لهذا البيت باب صغير ولم يكن له أي شرفة »

ولكن على الرغم من ان درجات المدخل كانت واسعة والباب كان كبيرا فقد لاصقها استحياؤها وهي ترن الجرس . وفتح الباب وبدت منه امرأة بدينة تبدو الراحة على وجهها فابتسمت للزائرة وهي تقول :

ـ آمل الا تكوني بائعة متجولة فاني عادة لا اود شراء أي شيء ولكني دوماً اشتري كل شيء . . ثم اشعر بالحنق لما فعلت .

واذ قالت السيدة هوايتسايد ذلك ضحكت موللي وشعرت فجأة انها سعيدة . لم تكن تعرف حتى تلك اللحظة كم كان الخوف مستولياً عليها فهتفت :

ـ آه كلا فأنا المعلمة الجديدة . وتقول الرسالة التي تلقيتها انه

علي" مقابلة السيد هوايتسايد فهل اقدر ان اراه ؟

ـ لم يزل الوقت ظهرا وهو ما يزال يتناول طعامه . هل تغديت ؟

ـ آه طبعاً . اعني لا .

وضحكت السيدة هوايتسايد وافسحت لها سبيلا لتدخل قائلة :

ـ اني سعيدة لتأكدك من ذلك .

وقادتها الى غرفة طعام واسعة محاطة بخزائن خشب الماهوغاني المليئة بالصحاف الزجاجية اما مائدة الطعام المربعة فقد انتثرت عليها بغير انتظام صحاف الطعام ، وقالت لها :

ـ يبدو ان جون قد انتهى من الاكل وترك الغرفة فاجلسي يا فتاتي وسأجلب لك الطعام حالا .

ـ كلا ارجوك . . شكراً . . سأكلم السيد هوايتسايد ثم اذهب .

ـ اجلسي فأنت بحاجة الى التغذية لتتمكني من مقابلة جون .

ـ هل هو جد شديد مع المعلمات الجديدات ؟

ـ ان ذلك يتوقف عليهن ، فاذا كن لم يتناولن غذاءهن فهو كالدب معهن ، يصرخ بهن . اما اذا كن قد تركن اتوهن مائدة الطعام فهو قاس فقط .

وضحكت مولي بغبطة وقالت :

ـ عندك اولاد . . اوه ارى انك قد ربيت عددا كبيرا من الاولاد وانك لتحبينهم .

فزمجرت السيدة هوايتسايد قائلة :

ـ الواقع ان طفلا واحدا قد رباني . . بل شيب شعر اجفاني وكان عبئاً اثقل من أن احمله ، وها هو الآن ، هذا الشيطان ، يربي البقر ولست اعتقد اني احسنت تربيته .

وعندما انتهت مولي من تنـــاول الطعام فتحت السيدة هوايتسايد باباً جانبياً ونادت :

ـ هاك من يريد ان يقابلك يا جان .

قالت ذلك ودفعت مولي الى غرفة تشبه غرف المكتبات فالرفوف المليئة بالمجلدات السميكة المذهبة الجوانب منتشرة في ارجائها ولكنها كانت كذلك شبه غرفة جلوس على حافتها زهريات غريبة الاشكال وقد علق على مسمار في حافة المدفأة غليون قديم ، بينما انتثرت المقاعد الجلدية المريحة في انحاء الغرفة وكلها من الكراسي الهزاز ذات الرفاسات التي تزقزق عندما تهز الكراسي واخيرا كانت الغرفة شبه مكتب فقد كانت تحوي مكتباً قديماً وقـــد جلس جان هوايت سايد خلفه . وعندما رفع نظره اليها رأت مولي في آن واحد فورا ان له، أرق وأحد عينين شهدتهما في حيـــاتها كما رأت أن له انصع مشيب كذلك .

وبدأت حديثها بصفة رسمية :

ـ انني ماري مورغان .

ـ آه نعم يا مس مورغان فقد كنت بانتظارك هلا جلست؟

وجلست على احدى الكراسي الهزازة المريحة فصاحت رفاساته

بألم رفيق بينما قالت :

ـ احب هذه الكراسي فقد كنا نملك بعضا منها عندما كنت طفلة .

وشعرت بسخف ما تقول فاستطردت :

ـ لقد جئت لمقابلتك من اجل الوظيفة كما اشارت بذلك رسالتكم !

ـ لا تضطربي يا مس مورغان . فرغم اني استجوبت كل المعلمات اللواتي عملن هنا ما زلت حتى الآن لا اعرف كيف الامر .

ـ آه كم انا مسرورة لذلك يا سيدي فهذه اول مرة اطلب فيها عملا وقد كنت جد خائفة من الامر .

ـ حسناً يا مس مورغان . اظن ان هدف هذه المقابلة هو اعطائي بعض المعلومات عن ماضيك وتعريفي بشخصيتك فالمفروض ان اعرف شيئاً عنك عند انتهاء هذه المقابلة. اما وقد علمت غايتي فاظن بانك ستحاولين جهدك لتتركي اثراً طيباً. ربما يصبح كل شيء على ما يرام اذا اخبرتني قليلا عن نفسك . تكفي كلمات قليلة تصف اي نوع انت من الفتيات ومن اين اتيت .

وهزت مولي رأسها بسرعة قائلة :

ـ سأحاول ذلك يا سيد هوايتسايد !

وعادت بذاكرتها الى الماضي ! ورأت بعين الخيال بيتها :

كان البيت متداعياً قديماً يفتقر

الى الدهان بشرفته الخلفية الواسعة واحواض الغسيل المستديرة المستندة الى الحائط. وشقيقاها جو وتوم في اعالي شجرة الصفصاف يصرخان مرحين : « ها انا نسر الآن » . . او « انني ببغاء!.. انا دجاجة .. كبيرة انظروا الي » .

وينفتح باب المطبخ فتتكيء عليه امها المتعبة بشعرها المنبوش الذي عبثا تحاول اسباله بالتمشيط. كانت عيناها حمراوين دائما ويداها تؤلمان بصورة دائمة وكذلك معصماها .

وتصرخ الام :

ـ سيصيبكما الاذى في اعالي الشجرة يا توم وجو فلا تشغلا بالي . الا تحبان امكما ؟

وتصبح الاصوات في اعالي الشجرة همسا . فالندم قـــد اخرس « النسر والببغاء والدجاجة الهرمة» . اما موللي فكانت جالسة فوق التراب وهي تلف عصاً طويلة بخرقة بالية وهي تحاول جهدها تخيل هذه العصا كسيدة طويلة

ترتدي فستانا انيقا .

وفجأة هتفت بها امها .

- تعالي يا موللي وامكثي مع امك فانا جد تعبة اليوم .

وركزت موللي العصا في التراب وهمست بضراوة : سأجلدك على قفاك العاري يا انستي عندما اعود » . ثم دخلت البيت باستسلام .

كانت امها تجلس على احد كراسي المطبخ فقالت لها :

- اسحبي كرسيا واجلسي بقربي قليلا . يا حبيبتي موللي امنحي امك بعض الحب فانت طيبة ، فتاة امك ، اليس كذلك ؟ الا تحبين امـــك يا موللي ؟

وتململت موللي في كرسيهـا . كانت طفلة تعسة فقد كانت تشعر ان امها على وشك البكاء وان عليها في هذه الحالة ان تمر بيدها فوق شعر والدتهـــا المنبوش . كانت تعرف واخوتها ، ان عليهم ان يحبوا امهم فقد كانت تفعل كل شيء من اجلهم.

وكانوا يشعرون بالخجل لكرههم
الاقتراب منهـــا ولكن ذلك كان
اقوى منهم فاذا ما نادتهم وهم بعيدون
عن نظرها، تظاهروا بعدم سماع ندائها
وتسللوا بعيداً وهم يتحدثون همسا .

عادت موللي الى عالم الواقع تحدث هوايتسايد :

ـ لقد كنا فقراء بل جد فقراء. كان لي شقيقان يكبرانني سنا. ورغم ان والدي كان بائعاً متجولا فقد كان على والدتي ان تعمل . وقد شقيت كثيراً من اجلنا .

قالت هذا وانكفأت من جديد الى عالم الذكريات :

مرة كل ستة شهور تقريباً كان
يقع حدث عظيم فكانت الام تتسلل
بهدوء من غرفة النوم وقد رققت
ورتبت شعرها حسبما يسمح لها تجعيده
وبرقت عيناها وبدت سعيدة بـــل
كادت تبدو جميلة وكانت تهمس
قائلة :

ـ اهدأوا يا اولاد فوالدكم هنا !

ويخرج الاولاد من البيت ولكنهم
يظلون يتحدثون بهمسات انفعالية
حتى عندما يبلغون الحديقة . وينتقل
الخبر سريعاً الى الجوار فسرعان ما

تمتلىء الحديقة باولادهم الهامسين :

ـ يقولون ان والدكم قد عاد !

ـ هل حقاً عاد والدكم الى البيت ؟

ـ اين كان متغيباً طيلة هذه المدة ؟

وما ان يحين وقت الظهيرة حتى تكون الحديقة قد امتلأت باطفال يقفون جماعات صغيرة منبهين بعضهم البعض الى التزام الهدوء .

وحوالي الظهر يفتح باب المطبخ بقوة حتى يضرب بحائط الشرفة بينما يطل منه والدهم صارخاً :

ـ مرحباً . . مرحباً يا اولاد ! .

وترتمي موللي وشقيقاهـا عليه يحتضنون ركبتيه بينما يرفع كلا منهم بدوره ويرميه في الهواء ليعود فيمسك به كما لو كان هرة صغيرة .

وكانت والدتهم تحوم حولهم تنقنق منفعلة قائلة :

ـ يا اولاد! انتبهوا الى ثياب والدكم فلا تدعكوها !

ويرفع اولاد الجيران ايديهم

ويضمونها الى صدورهم ويتصارعون صارخين فرحا فقد كان هذا المشهد اجمل من اي عطلة !

ويصرخ الوالد :

- انتظروا حتى تروا ما جلبت لكم ! ان الامر ما يزال سراً حتى الآن !

وبعد ان تهدأ الهستيريا قليلا يحمل الاب حقيبته الى الشرفة ويفتحها . وتكون الحقيبة ملأى بهدايا لم ير احد مثلها من قبل فمن لعب ميكانيكية لم تكن معروفة قبل ذلك الى حيوانات معدنيه تزحف على الارض وزنوج خشبية راقصة ورفوش بخارية تعمل في الرمل فالى لوحات زجاجية بديعة تحوي على رسوم كلاب ودببة . . وكان هنالك هدية او اكثر لكل شخص . فقد كان قدوم الوالد يماثل جميع العطل والمواسم مجموعة في عيد واحد .

ويمر نصف بعد الظهر عادة قبل ان يهدأ الاطفال فلا يصرخون بين

الحين والآخر . واحيانا كان جورج
مورغان ـ والدها ـ يجلس على درج
الشرفة ويتجمع الاطفال حوله صاغين
الى مغامراته فقد كان في هذه الرحلة
في المكسيك وحضر احدى ثوراتها
وقد ابحر ثانية الى هونولولو ورأى
البركان وركب الامواج الى الشاطيء
على لوح عائم . كان يتخلل احاديثه
دائما اسماء مدن كثيرة واناس عديدين
غريبي الاطوار ، ومغامرات ومئات
من الحوادث الطريفة، بل اكثر طرافة
من اي شيء سمعوه قبلا .

ولم يكن بوسعه ان يخبرهم كل
شيء دفعة واحدة . فكانوا يتجمعون
حوله بعد المدرسة، المرة تلو الاخرى،
ليسمعوا المزيد والمزيد فقد دار جورج
مورغان حول العالم خائضاً المغامرات
الجديدة .

وعادت المس مورغان الى عالم الواقع وتابعت حديثها :

ـ اما بالنسبة لحياتنا البيتية فاكاد اقول انه لم يكن لي والد
لانه رحلات عمله نادراً ما سمحت له بالعودة الى البيت .

وهز جون رأسه بوقار وكانت يدا مورللي تحفان ثوبها فوق

الركبة وقد غشّى الدمع بصرها وعاد بها الخيال الى الماضي :
في احدى المرات جلب ابوها معه
جروا مشردا وضعه في صندوق فبال
على الارض في الحال . وهنا سأل توم
بأكثر ما يكون تحذلقا :
ـ اي نوع من الكلاب هو هذا؟
وضحك والدهم عاليا . لقد كان
شابا يبدو و كأنه يصغر والدتهم بعشرين
عاماً . وقال شارحاً الامر :
ـ انه كلب بدولار ونصف ويمكنكم
الحصول على انواع كثيرة من الكلاب
بدولار ونصف . . . لنفترض ان
احدكم دخل دكان حلوى وقال :
« اريد بقرش اقراص نعناع وسكرا
مطعما وعلكة فواكه . » هكذا فعلت،
فقد دخلت الدكان وقلت : « اعطني
بقيمه دولار ونصف كلبا مخلوطاً» هذا
نوع الكلب وهو يخص موللي وعليها
انه تجد له اسماً .
فقالت موللي :
ـ سأدعوه جورج !
وانحنى والدها امامها بطريقة غريبة

قائلا :

ـ اشكرك يا موللي .

مع ذلك شعر الجميع انه لم يكن يسخر منها .

استيقظت موللي مبكرة في صباح اليوم التالي وصحبت جورج معها الى الحديقة لتعرفه اسرارها ، وفتحت مخبأ كانت قد طمرت فيه درهمين وزراً عسكريا مذهباً ثم علقت قائمتي الكلاب فوق حاجز الحديقة الخلفي لتمكنه من رؤية المدرسة عبر الشارع . واخيراً تسلقت شجرة الصفصاف حاملة جورج تحت ابطها . وخرج توم من البيت وتلكأ تحت الشجرة صارخاً :

ـ احذري من ان يقع منك .

وفي تلك اللحظة تلوى الجرو من بين ذراعيها فوقع واحدث صوتا منفراً وهو يخبط بالارض الصلبة . وانثنت احدى ساقيه بزاوية حادة وكان الجرو يصرخ ، يصرخ صرخات طويلة فظيعة يتخللها العويل عندما يلتقط انفاسه . فنزلت موللي ذاهلة من الشجرة ورأت

توم منحنيا على الجرو وقد أصفر وجهه وتقلصت عضلاته من الالم بينما كان الجرو « جورج » يعوي ويصرخ .

وبكى توم قائلا :

ـ لا يمكننا ان نتركه هكذا !
لا يمكننا ان نتركه هكذا !

ثم ركض الى كومة الحطب في الزاوية وعاد وبيده بلطة. كان الذهول مسيطراً على موللي فلم تزح رأسها ولكن توم اغمض عينيه ثم هوى بالبلطة فتوقف الصراخ فجأة . ورمى توم البلطة بعيداً وقفز من فوق الحاجز الخلفي ورأته موللي يركض كأن احداً ما يطارده .

وفي تلك اللحظة اطل والدها مع جو من الباب الخلفي . تذكرت موللي كم بدا وجه والدها شاحباً تائها مخيفاً مدلهماً عندما تطلع الى الجرو . كان في وجه والدها ما جعلها تشرع بالبكاء قائلة :

ـ لقد اوقعته من الشجرة فأصيب بأذى وضربه توم ثم ولى هاربا .

كان التجهم يملأ صوتها فحضنها والدها قائلا :

ـ مسكين توم اتذكري يا مولي ان لا تقولي لتوم شيئاً عن الحادث وان لا تنظري اليه نظرة تدل على انك تذكرين ما حدث .

ثم رمى بكيس فارغ فوق الجرو وقال :

ـ يجب ان نحتفل بجنازته . . .

هل اخبرتك عن الجنازة التي حضرتها في الصين وكيف كانوا يرمون الاوراق الملونة ويفرقون الخنازير المشوية قرب القبر ؟

وازداد جو اقترابا منه بينما بدا بريق من الانتباه في عيني مولي والاب يتابع قوله :

ـ بدأ الامر هكذا ...

ورفعت مولي نظرها الى جون هوايتسايد وقد عادت الى الى عالم الواقع فرأته كمن يفحص رقعة من الورق فوق مكتبه فقالت :

ـ عندما كنت في الثانية عشرة من عمري توفي والدي اثر حادث جرى له !

قالت هذا وعادت الى ذكرى والدها :

كانت زياراته العظيمة هذه تستغرق عادة مدة اسبوعين وكان دائمـــاً ثمة اصيل يخرج فيه جورج مورغان من بيته الى المدينة فلا يعود الا في ساعة متأخرة من الليل . كانت والدتهم ترسلهم الى فراشهم باكراً ولكنهم كانوا يتمكنون من سماعه عند عودته الى البيت وهو يتعثر بالاثاث كما انهم كانوا يتمكنون من سماع صوته عبر الجدار . وكانت هذه هي المرات الوحيدة التي كانـ صوته يبدو فيها حزيناً يائساً . وكان الاولاد وهم في فرشهم يكتمون انفاسهم فهم يعلمون ماذا كان يعني ذلك ، ففي الصباح سيكون قد فارقهم ومعه قلوبهم .

وكان جدلهم يطول عادة حول ما كان يفعله فقد كانـ والدهم كالفارس النبيل المقدام بالنسبة اليهم وقد تمثلت فيه جميع المزايا من فضيلة وشجاعة وجمال . وكان الصبيـــان يقولان :

.. عندما سنكبر سنذهب معه
ونرى كل تلك الاشياء . وكانت
موالي تصر قائلة :
ـ وسأذهب انا ايضاً !
ـ انك فتاة وكما تعلمين لا يمكنك
ذالك .
ـ ولكنه سيدعني اذهب وانتما
تعرفان ذلك بل انه سيأخذني ذات
مرة معه وستريان اذا لم يفعل ذلك ؟
وكانت والدتهم تعود الى تذمرها
ويعود الاحمرار الى عينيها بعد ذهابه
فتطالب بحبهم بلهجة مخاصمة وكأن
حبهم رزمة يمكنهم ان يضموها بين
يديها .
ومرة ذهب والدهم ولم يعد ابداً.
لم يكن يرسل لهم عادة اية دراهم او
يكتب اليهم ولكنه في هذه المرة
اختفى نهائياً، ولمدة عامين بقوا بانتظاره.
ثم اخبرتهم والدتهم انه لا بد وقد
مات . وارتجف الاولاد للفكرة
ولكنهم رفضوا ان يصدقوها لانه من
المحال ان يموت انسان له مثل ما كان

لوالدهم من جمال ورقة وطيبة. لا بد انه
كان يغامر في مكان ما في العالم! لا بد
ان سبباً قاهراً يمنعه من العودة اليهم!
وسيزول هذا السبب في يوم ما فيعود
اليهم محملا بهدايا اجمل وقصص افضل
من اي قصة اخبرهم بها سابقاً.

ولكن والدتهم قالت بأن حادثاً
لا بد وقع له ولا بـــد انه مات.
واصبحت امهم سارحة الفكر واخذت
تقرأ تلك الاعلانات التي تعرض عليم
العون على كسب المال وهي في بيتها،
بيـــنما صنع الاولاد ازهاراً ورقية
وحاولوا بيعها على استحياء، وجرب
الصبيان تجارة البسطة. وكادت العائلة
تموت جوعاً.

اخيراً عندما لم يعد بامكانها احتمال
هذا الكرب هرب الصبيان من البيت
والتحقا بالبحرية وبعد ذلك بدأت
مولي تراهما نادراً كما كان الامر مع
والدها وقد تغيرا كثيراً اذ اصبحا بالغي
الخشونة والصخب ولكن الامر لم
يهمها كثيراً فقد اصبحا غريبين عنها.

تابعت موللي حديثها :

ـ انهيت دروسي الثانوية ثم التحقت بدار المعلمات في سان جوزيه وهناك عملت في بيت مسز الان موريت لاقوم بمصاريف دراستي وحياتي . وقبل الانتهاء من الدراسة الثانوية توفيت والدتي فانا كما ترى يتيمة نوعاً ما !

وتمتم جون برقة قائلا :

ـ آسف جداً !

واحمرت وجنتا موللي وهي تقول :

ـ لم اقصد استجداء عاطفتك يا مستر هوايتسايد فانك قلت انك تود معرفة كل شيء عني كما ان كل انسان لا بد وان يصبح يتيما !

ووافقها جون بقوله :

ـ اجل اظن اني انا الآخر يتيم !

ومرة اخرى شرد ذهنها :

عملت موللي في بيت موريت مقابل الاكل والمأوى . كانت تقوم بكافة اعمال الخدمة ولكنها لم تكن تتقاضى اجراً . وكانت تعمل صيفاً في احد المتاجر لتوفر ثمن ثيابها . كانت السيدة موريت تدرب الفتيات على الخدمة فتقول :

ـ يمكنني اخذ فتاة جاهلة لا تسوى

شيئاً وبعد ان تعمل عندي مدة ستة اشهر يصبح بامكانهـــا الحصول على راتب شهري قدره خمسون دولاراً ، فجميع النساء هنا يعرفن هذا ويتخاطفن الفتيات اللواتي عملن عندي. وهذه هي اول تلميذة جربتها ولكنها تبدي تحسناً ملموساً. انها تقرأ كثيراً مع اني اقول دوماً ان على الخادمة ان تنام في الساعـــة العاشرة والا فلن تتمكن من القيام باعمالها كما يجب !

كانت الطريقة التي تتبعها السيدة موريت هي طريقة الانتقاد والتذمر الدائم بلهجة حازمة قائلة :

ـ اسمعي يا موللي لا اريد البحث عن اخطائك ولكنك اذا لم تنشفي الفضية جيداً فسيتخللها الصدأ » .

او : يجب ان تضعي سكين الزبدة هكذا ثم تضعين بعد ذلك الاقداح هنا » .

وكانت تقول لاصدقائها دوماً :

ـ اني اعطي لكل امر سبباً !

وكانت موللي بعد ان تنتهي من

غسيل الصحون مساء تجلس فوق فراشها وتبدأ بأعداد دروسها وعندما تطفيء النور كانت تستلقي على سريرها وتفكر بوالدها . وإن كانت تعرف ان هذا سخف ومضيعة للوقت .

كانت تتصور والدها داخلا من الباب لابساً بدلة جميلة مقلمة وقبعة رسميه عالية وحاملا بيده باقة زهور حمراء فيقول لها :

ـ لم اتمكن من القدوم قبل الآن يا مولي . هيا ارتدي معطفك بسرعة فسنذهب اولا ونشتري لك ثوب السهرة المعروض في واجهة محلات براشيا . . ولكن علينا الاسراع فمعي بطاقتان لقطار الليلة الى نيويورك . هيا اسرعي يا مولي ولا تقفي هذه الوقفة الخرقاء .

كان ذلك سخيفاً فوالدها ميت . كلا . انها لم تعتقد انه توفي . لا بد وانه يحيا حياة جميلة في مكان ما من العالم ولا بد انه سيعود اليها في يوم ما .

وحدثت مولي يوما صديقة لها في

المدرسة قائلة :

ـ الحقيقة اني لا اصدق الخبر حقاً كما اني لا اكذبه فلو عرفت انه ميت لكان الامر فظيعاً ولست ادري ما سأفعله اذ ذاك فأنا لا اريد ان اتصور اني اعرف بانه ميت !

وعندما توفيت والدتها لم تشعر بجانب الخجل الا بقليل من الحزن . كانت والدتها ترغب رغبة شديدة في ان تُحب ولكنها لم تكن تعرف كيف تستميل هذا الحب. وقد ازعج الحاحها اولادها فأبعدهم عنها .

استأنفت مولِّي حديثها مع هوايتسايد :

ـ حسناً اظن ان هذا كل شيء فقد نلت شهادتي وقد ارسلوني اليكم .

فقال جون هوايتسايد :

ـ كانت هذه اسهل مقابلة اجريتها مع احد .

ـ هل تظن اذاً باني سأحصل على الوظيفة ؟

ونظر الرجل المسن نظرة سريعة لامعة الى غليونه المعلق على حاجز المدفأة ، فقالت مولِّي لنفسها : « هذا صديقه فهو يشاطر الغليون اسراره . » بينما قال هو :

ـ نعم ، اظن انك ستحصلين على الوظيفة . بل اظن انك

قد حصلت عليها فعلا .. والآن يا مس مورغان اين ستقطنين؟ يجب ان تجدي مكاناً للأكل والسكن .

وقبل ان تعرف موللي ما كانت ستقول تفوهت قائلة :

ـ اود ان اعيش هنا .

وفتح جون هوايتسايد عينيه دهشة وهو يقول :

ـ ولكننا لا نقبل نزلاء ابداً .

ـ آه ... آسفة لاني قلت ذلك ولكني احببت هذا المكان كثيراً .

ونادى جان :

ـ ويللا !

ولما وقفت زوجته في باب الغرفة استطرد قائلا :

ـ ان هذه الشابة تود ان تقطن معنا وهي المعلمة الجديدة .

وقطبت السيدة هوايتسايد حاجبيها وقالت :

ـ لا يمكنني التفكير بهذا مطلقاً فلم نقبل نزلاء ابداً . وهي اجمل من أن تظل على مقربة من بيل الاحمق فما الذي سيحدث لبقراته ؟ سينطوي الامر على مشقة كبرى .

والتفتت الى موللي قائلة :

ـ يمكنك النوم في الغرفة الثالثة من الطابق الاعلى الا ان الشمس لا تدخلها كثيراً .

وتغيرت الحياة بالنسبة الى موللي فقد وجدت نفسها فجأة وقد اصبحت ملكة فمنذ اليوم الاول عبدهـــا التلامذة ذلك لانها تفهمت نفسياتهم وفوق ذلك تركتهم يفهمونها . واقتضاها

بعض الوقت لتدرك بانها اصبحت شخصية هامة فاذا ما اختلف رجلان في المخزن حول موضوع تاريخي او ادبي او حسابي ووصل نقاشهما الى مأزق انهياه بالقول : « سنسأل المعلمة فاذا لم تكن تعرف الجواب فانها ستجده حتما ! » وكانت مولي تشعر بفخر شديد لاستطاعتها حل هذه النزاعات . وكانت في الحفلات تساعد في ترتيب الزينة واعداد المرطبات فكانت تقول اذ تقضي المناسبة :

ـ اظن باننا سنضع اغصان الصنوبر في كل مكان فهي جميلة ورائحتها ذكية جداً .. ان رائحتها تتمم جو الحفلات .

كان المفروض فيها ان تعرف كل شيء وتساعد في كل شيء وكانت تحب هذا .

وكانت في بيت آل هوايتسايد تعمل بجد في المطبخ على دمدمة السيدة هوايتسايد. وبعد مرور ستة اشهر قالت السيدة هوايتسايد لزوجها متذمرة :

ـ لو كان لبيل بعض الادراك ولكن ...

واستطردت :

ـ ولو كان لها اي ادراك ...

وهنا توقفت عن الحديث .

وفي الليل كانت مولي تكتب الرسائل للصديقات القليلات اللواتي صادقتهن في دار المعلمات وكانت رسائلها مليئة باخبار الجيران التافهة ومفعمة فرحاً فكان عليها حضور جميع الحفلات نظراً لمكانة مركزها الاجتماعي وكانت تقوم نهار السبت

بجولات بين التلال فتجلب معهـــا نبات السرخس وشتلات الزهور البرية لتزرعها حول المنزل .

اما بيل فقد القى نظرة واحدة على مولي ثم عاد الى العناية بقراته ومضى عليه وقت طويل قبل ان استجمع شجاعته ليتحدث معها طويلا. كان شاباً بسيطاً ضخم الجسم ينقصه اتزان والده ومرح والدته . وتدريجياً بدأ يلاحق مولي ويتابعها باهتمام من بعيد .

وذات مساء وكان شعور الامتنان من السعادة يغمر مولي أخبرت بيل عن والدها وكانا يجلسان فوق كراسي الشرفة المريحة بانتظار طلوع القمر . اخبرته عن زيارات الوالد المتقطعة وعن اختفائه النهائي وقالت باكية :

ـ اترى ما اقاسي يا بيل ؟ ان والدي الظريف في مكان ما وهو يخصني وحدي . اتظن انه حي يا بيل ؟

فأجاب بيل :

ـ ربما . ولكن من حديثك يلوح لي انه نذل لا مبال . اعذريني يا مولي لقولي هذا. فعدم كتابته لك يبدو غريباً اذا كان لا يزال حيا .

وشعرت مولي بقشعريرة باردة فقد كان هذا المنطق هو ما نجحت حتى الآن في تحاشيه وقالت بلهجة جافة :

ـ طبعاً اعرف ذلك . . . والآن سأذهب لانهي بعض الاعمال يا بيل .

قام فوق احدى التلال في طرف حقول الفردوس كوخ

قديم يشرف على كل المنطقة وعلى جميع الطرق المجاورة . وقيل ان قاطع الطرق فاسكيز قد بنى الكوخ وعاش فيه لمدة عام كانت الدوريات خلاله تجوب المنطقة بحثاً عنه. كان الكوخ مكاناً شهيراً فقد قام كل من سكان الوادي بزيارته في مناسبة ما . ولذا سأل جميع السكان تقريباً اذا ما كانت موللي قد زارت المكان بعد فقالت :

- كلا ولكني سأصعد اليه يوماً . سأذهب في سبت ما فأنا اعرف الطريق المؤدية اليه .

وارتدت ذات صباح ثوباً مخملياً وانتعلت حذاء يصلح للسير في الوعر فحاذاها بيل وعرض عليها ان يرافقها ولكنها قالت :

- كلا فلديك عمل تنجزه ولا يسعني ان ابعدك عنه .

- لعنة الله على العمل .

- ولكني افضل لو ذهبت وحيدة . لا اود جرح شعورك يا بيل ولكني اريد ان اذهب لوحدي .

شعرت بالحزن لانها لم تتركه يصحبها ولكن ملاحظته عن والدها قد اخافتها وقالت لنفسها :

« اود القيام بمغامرة فلو اصطحبني بيل لما كان هنالك من مغامرة بل لكانت رحلة عادية »

ومضى عليها ساعة ونصف وهي تتسلق الدرب الشديد الانحدار المظلل باشجار السنديان . كانت الارض مغطاة باوراق الشجر الزلقة كالواح الزجاج وكانت الشمس قائظة وقد امتلأ

الجو برائحة الاعشاب المنعشة . وعندما وصلت مولي الى آخر مرتفع كان العرق يتصبب منها وقد تسارع نفسها .

كان الكوخ منتصباً فوق ارض قفراء وسط الاعشاب وكان عبارة عن غرفة خشبية مربعة لا نوافذ لها . وبدا المدخل الذي لا باب له كظـــل اسود . وكان المكان هادئاً ، ذلك الهدوء الذي يبدو في الاماكن الطبيعية النائية حيث لا صوت الا اصوات الحشرات والذباب والنحل فبدا سفح التلة كما لو كان يغني برقة في سعير الشمس للشمس .

واقتربت مولي منه على رؤوس اصابعها وكان قلبها يخفق بشدة وهمست لنفسها : « ها اني ابدأ بمغامرة ، ها اني اعيش مغامرة وسط كوخ فاسكيز ! »

واطلت من الباب فرأت سحلاية تهرب من نظرها واعترض طريقها نسيج عنكبوت علق في جبينهـــا وكأنه يحول بينها وبين الدخول .

كان الكوخ فارغاً الا من الغبار والاقذار المتراكمة فوق الارض وفوق الجدران الخشبية المهترئة والا من رائحة الارض التي تبقى طويلا محجوبة عن الشمس .

كان الانفعال يملأ نفس مولي وهي تحدث ذاتها :

« في الليل كان يجلس هناك . واحيانا عندما كان يسمع اصواتا تشبه زحف الرجال نحوه كان يخرج من الباب كالشبح او كالظل ويختفي في الظلام »

ودارت ببصرها نحو وادي حقول الفردوس حيث كانت

البساتين في مربعات خضراء داكنة والحبوب في مربعات صفراء والتلال خلفها ذات لون بني فاتح يتخلله مسحات ليلكية وبين المزارع تشعبت الطرق وتلوت محاذرة المرور في حقل وملتفة حول شجرة ضخمة ودائرة حول سفح تلة ، بينما امتـــد فوق ارجاء الوادي برقع من النور البراق فهمست موللي :

« شيء خيالي ! وهمي ! انه قصة . . قصة حقيقية . . وانا اعيش مغامرة ممتعة »

وارتفع نسيم خفيف من الوادي يشبه تنهد النائم ثم همد كما بدأ . وقالت لنفسها :

« اثناء النهار كان فاسكيز الشاب يتطلع الى الوادي كما افعل الآن . لقد وقف في هذا المكان بالذات وتطلع الى تلك الطريق وقد لبس صدرية ارجوانية مطرزة بخيطـــان ذهبية وسروالا يتسع كلما نزل على ساقيه النحيفتين حتى ليبدو كطرف البوق عند القدمين وقد لف مهاميزه بشريط حريري ليمنعهما من الرنين . وكان احيانا يرى الدوريات تسير عبر الطريق الاسفل ولحسن حظـــه كان الجنود ينحنون فوق رقاب خيولهم ولا يتطلعون الى قمم التلال . وكان فاسكيز يضحك منهم ولكنه كان يخاف كذلك . واحيانا كان يغني وكانت اغنيـــاته ناعمة حزينة لانه كان يعلم انه لن يستطيع ان يعيش طويلا »

جلست مولي فوق المنحدر واسندت رأسها الى راحتيها . وخيل اليها ان فاسكيز يقف بقربها . وان له وجه والدها المرح وعينيه اللامعتين عندما يخرج الى الشرفة صارخاً :

ـ مرحباً يا اولاد !

فهذه المغامرة من نوع مغـــامرات والدها . وانتفضت ووقفت قائلة :

«سأعود الى اول القصة وافكر بها من جديد مرة اخرى »

في ساعة متأخرة من بعد الظهر ارسلت السيدة هوايتسايد ابنها بيل ليبحث عن موللي قائلة :

ـ قد تكون قدمها التوت .

ولكن عندما وصل بيل الى منعطف الدرب ظهرت موللي امامه فقال لها :

ـ بدأ الشك يخامرنا في أن تكوني قد اضعت الطريق . . هل صعدت الى الكوخ ؟

ـ نعم .

ـ انه علبة قديمة غريبة اليس كذلك ؟ كوخ خشبي فقط ويوجد منه عدة دستات في المنطقة ولكنك قد تستغربين كثرة الاشخاص الذين يصعدون التلة لرؤيته . والغريب في الامر ان احداً ما ليس متأكدا من ان فاسكيز قد قطن هذا الكوخ اطلاقاً .

ـ اظن انه لا بد قد سكنه ؟

ـ ما الذي يجعلك تظنين هذا ؟

ـ لست ادري .

ارتدى بيل مسحة الجد وهو يقول :

ـ يظن الجميع ان فاسكيز كان بطلا بينما كان في الواقع

مجرد لص . لقد بدأ بسرقة الخراف والخيـــل وانتهى بقطع الطرق على العربات المسافرة واضطر الى قتل بعض الناس ليتمكن من ذلك . يبدو لي يا مولي ان علينا تعليم الناس ان يكرهوا اللصوص لا ان يقوموا بعبادتهم .

فاجابت تعبة :

ـ طبعاً يا بيل فأنت محق تماماً . هل عندك مانع اذا لم نتكلم الآن فاني تعبة نوعاً وعصبية المزاج ايضاً .

ودارت عجلة الايام وغطت الزهور البرية والتلال . ووجدت مولي أن الوادي بحاجة اليها حتى انها بدأت تحضر اجتماعات مجلس ادارة المدرسة . وكانت هذه الاجتماعات الرفيعة والسرية تعقد بعض المرات خلف ابواب مغلقة ، مـــا يغلق فهمه على الجميع ويرهبهم ولكن بعد ان طلب من مولي دخول غرفة جلوس جون هوايتسايد ، وجـــدت ان مجلس الادارة يبحث امور المحاصيل ويسرد القصص وينشر الشائعات .

كان بيرت مونرو قـــد انتخب لعضوية المجلس في مطلع الخريف ، فما ان اطل الربيع حتى اصبح بيرت اكثر اعضاء المجلس نشاطاً فقد كان هو الذي يقوم باعداد الحفلات الراقصة في المدرسة وهوالذي يصرعلى القيام برحلات وتمثيليات للمدرسة بل انه قدم الجوائز للمتفوقين من الطلاب فاذا بالمجلس يعتمد عليه اكثر فأكثر .

وذات امسية نزلت مولي متأخرة من غرفتهـــا وكانت السيدة هوايتسايد ، كعادتها عندما ينعقـــد المجلس في بيتها ،

تجلس في غرفة الطعام فقالت لها مولي :

ـ لا اظن باني سأحضر هـــذا الاجتماع حتى ينفردوا مرة لانفسهم لاني اشعر احيانا بانهم خليقون بان يسردوا في غيابي نوعاً من القصص يختلف عن النوع الذي يسردونه اثناء حضوري.

ـ هيا ادخلي يا مولي فلن يتمكنوا من عقد الاجتماع بدونك فقد اعتادوا على وجودك بينهم وسيضيعون بدونك هذا بالاضافة الى اني لست متأكدة من اني ارغب في ان يسردوا ذلك النوع من القصص .

واطاعت مولي فنقرت باب غرفـــة الجلوس ثم دخلت . وتوقف بيرت مونرو من قبيل اللياقة في القصة التي كان يرويها ثم قال :

ـ كنت اتحدث عن مساعدي الجديد يا مس مورغان وسأعيد القصة نظرا لطرافتها . كنت بحاجة الى مساعد وقد التقطت هذا الرجل في سالينـــاس مشردا تحت احد قواعد الجسور وكان ثملا مخمورا غير أنه كان يطلب عملا فاصطحبته معي وسرعان ما اتضح لي انه لا يسوى شروى نقير ولكني لا اتمكن من التخلص منه . ان ذلك اللعين قد زار كل مكان وعليك بالاستماع اليه وهو يتحدث عن الاماكن التي زارها . لن يسمح لي اولادي بالتخلص منه لو اردت ذلك . . آه . . انه يأخذ أتفه الاشياء التي رآها فينسج حولها قصة رائعة ويجلس اولادي حوله مصغين اليه . . وهو يذهب مرتين كل شهر الى ساليناس فيسكر ويعربد هناك لانه من هؤلاء السكارى القذارى

المدمنين . وفي كل مرة يجده فيها رجال شرطة ساليناس مخمورا مرمياً في الاقنية يتصلون بي فاضطر للذهاب لاحضاره. أتعرفين انه في كل مرة يعود فيها من سكره يجلب معه لابني ماني هدية ما في جيبه . لا يمكنك فعل شيء مع رجل من هـــذا النوع فانه يستهويك حالا . انه لا يقوم بأي عمل ولم استفد منه شيئاً .

وشعرت موللي بخوف ينتابها بينما ضحك الرجال من القصة قائلين :

ـ انك اكثر لينا مما يجب يا بيوت . وانت تعلم أنه ليس بقدرتك الاحتفاظ بمهرج في مزرعتك فلو كنا مكانك لتخلصنا منه بأسرع ما يمكن .

ووقفت موللي . كانت مرتاعة من أن يسأل احدهم عن اسم الرجل وقالت بسرعة معتذرة :

ـ اشعر باني لست على ما يرام الليلة فأرجوكم يا سادة ان تعذروني لاني سآوي الى فراشي .

ووقف الرجال احتراماً لها وهي تغادر الغرفة . وارتمت على فراشها فدفنت رأسها في وسادتها وهي تحدث نفسها قائلة :

ـ ان هذا لجنون فليس هنالك أي احتمال بان يكون هو ذاته . . سأنسى الامر حالا .

ولكنها ، في قنوطها ، اكتشفت انها كانت تبكي .

كانت الاسابيع القليلة التالية عذابا شديدا لموللي فقد كانت تتردد في الخروج من البيت . وكانت في طريقها من المدرسة

واليها تنظر أمامها فقط محدثة نفسها :

« لو رأيت أي رجل غريب فسأهرب . ولكن هذا جنون فأنا اتصرف كالمجانين »

ولم تكن تشعر انها بامان الا في غرفتها . واستولى عليها الخوف فشحب لونهـــا وبدأ بريق عينيها يخبو فكانت مسز هوايتسايد تصر عليها قائلة :

ـ عليك ان تأوي الى فراشك يا موللي فلا تكوني بلهاء . اتريدين مني ان اضربك علقة كما افعــــل مع ابني بيل لادخله فراشه ؟

ولكن موللي كانت ترفض التزام فراشها فقد كانت الافكار تتضارب برأسها كلما آوت الى فراشها .

لم يحضر بيرت مونرو اجتماع المجلس الاداري التالي وشعرت موللي بالاطمئنان و كانت شبه سعيدة لتغيبه فقال لها بعض الاعضاء :

ـ انك تشعرين بالتحسن اليس كذلك يا مس مورغان ؟

ـ نعم ، كان شيئاً بسيطاً عابرا من انواع الرشح فلو لزمت فراشي لربما كنت مرضت حقاً .

كان قد مضى ساعة على بدء الاجتماع عندما دخل بيرت مونرو الغرفة معتذرا بقوله :

ـ آسف لتأخري ولكن التاريخ يعيد نفسه فمساعدي المزعوم وُجد نائماً في احد شوارع ساليناس، يا لها من ورطة فهو يكمل نومه في السيارة الآن وغدا علي ان اغسلها لازيل آثار سكره.

وغصت موللي فزعاً وظنت ، لبرهة ، بانه سيغمى عليها فصرخت :

ـ اعذرني فيجب ان اذهب .

وركضت هاربة من الغرفة وسارت في الرواق المعتم ثم استندت الى حائطه تستجمع شتات نفسها . ثم سارت ببطء وبحركة آلية فعبرت الباب الخارجي وهبطت درجات سلم البيت . كان الليل مليئاً بالهمس واستطاعت ان ترى ، في ظلمة الطريق ، البقعة السوداء التي كانت سيارة بيرت مونرو . وتعجبت وهي تشعر بقدميها يتهاديان فوق ارض الممر من تلقاء ذاتهما وقالت لنفسها :

« اني اقتل نفسي الآن . اني اتخلى عن كل شيء الآن ولست ادري لماذا »

كانت يدها على الباب ولوت ذراعها لتفتحه عندما هبت ريح خفيفة فحمل النسيم الى انفها رائحة عفنة من القيء وسمعت همهمة شخير سكرى . وللتو شعرت بشيء يدور في رأسها فقفلت راكضة بسرعة جنونية الى البيت . ولما وصلت الى غرفتها اوصدت الباب وجلست جامدة وهي تلهث اعياء من مجهود ركضها . وخيل اليها ان ساعات عديدة مرت قبل ان سمعت الرجال يتركون البيت وهم يتمنون لبعضهم البعض ليلة سعيدة . ثم سمعت محرك سيارة بيرت يدور وابتعد صوتها الى آخر الشارع . واذ همت موللي بالتحرك شعرت بنفسها مشلولة .

كان جون هوايتسايد جالساً يكتب الى مكتبه عندما دخلت مولي الى غرفة الجلوس فنظر اليهامتسائلا وهو يقول :
ـ لستِ على ما يرام يا مس مورغان وانت بحاجـــة الى طبيب .
وتثبتت مولي بوقفتها متخشبة قرب المكتب وتساءلت :
ـ هل بامكانك ان تجلب معلمة عوضاً عني ؟
ـ طبعاً هذا بامكاني فهيا الآن الى فراشك بينما ادعو الك الطبيب .
ـ ليس هذا ما اعني يا سيد هوايتسايد فأنا اريد الرحيل الليلة ؟
ـ ما هذا الذي تقولين ؟ انك لست على ما يرام .
ـ لقد اخبرتك ان والدي ميت . لست ادري ان كان ميتاً ام لا . اني اخاف ان . . . اريد الذهاب الليلة .
وحدق بها متعمداً وهو يقول بلطف :
ـ اخبريني ما تعنين .
ـ لو صدف ورأيت الرجل السكير لدى بيرت مونرو . .
وتوقفت فجأة فقد اخافها ما كانت على وشك ان تقوله .
وهز جون هوايتسايد رأسه ببطء فصرخت مولي :
ـ لا . . . لا اظن ذلك . . . اني واثقـــة من انني لا اظن ذلك .
ـ اود لو فعلت شيئاً من اجلك يا مولي .
ـ لا اود الذهاب فأنا احب هذا المكان . . . ولكني

خائفة . ان القضية بالغة الاهمية بالنسبة لي .

ووقف جون هوايتسايد واقترب منها فلف ذراعه حول كتفها قائلا :

ـ لست افهم تماماً ولا اريد ان افهم فليس هذا مهما .

وتابع كلامه وكأنه يحدث نفسه :

ـ لن يكون من اللائق تماماً ان افهم .

وانتحبت مولي قائلة :

ـ اذا ما غادرت هذا المكان فلن يكون باستطاعتي ان اصدق الامر .

وضغط بذراعه على كتفها ضغطة سريعة ثم قال :

ـ هيا اصعدي الى غرفتك ورتبي حقائبك فسأنقلك بسيارتي الى ساليناس فوراً .

كانت مزرعة ريموند بانكس اكثر المزارع مدعاة للاعجاب من بين جميع مزارع حقول الفردوس فقد كان ريموند يحتفظ بخمسة آلاف من الفراخ البيضاء وبالف بطـــة بيضاء وكانت المزرعة تمتد عـــلى الكتف الشمالي وهو احلى المواقع في الريف كلـــه . وكان ريموند قد قسم أرضه الى مربعات من المرج والكرنب . وكانت اقنان الدجاج المنخفضة الطويلة تدهن بالكلس مرارا وتكرارا بحيث كانت تبدو براقة بهيجة وجديدة . ولم يكن



حواليها اكوام الاقذار المألوفة عند مزارع الدجاج .

اما للبط فقد حفر ريموند بركة فسيحة مستديرة ينهمر اليها الماء باستمرار من انبوب بقطر بوصتين وكان الماء الفائض من البركة يصب في السواقي المتفرعة عبر سهوم الكرنب والعشب فكان منظرا مبهجاً ان يرى الانسان في الصباح الوضيء اسراب الفراخ البيضاء النظيفة تأكل وتنقر وتنبش المرج الاخضر الداكن. بل انه لمن الابهج ان يرى الانسان الالف بطة الناصعة البياض وهي تمخر مياه البحرة بخيلاء وعظمة فالبط يسبح بخيلاء وجبروت كما لو كان يسامق الحيتان ضخامة .

اما المزرعة بالذات فكانت جنباتها تترنم طيلة اليوم بنقيق الفراخ .

وكنت تستطيع ان ترى من قمة التل المجاور مربعـــات المرج التي تتبختر فوقها الوف الديكة البيضاء التي تتماوج وتهتز كموجة من الغبار على بركة داكنة الاخضرار . ولقد ينهب الفضاء فوقك صقر احمر الذيل يرقب بعناية بيت ريموند . وفي الحال تتوقف الوف الدجاجات عن حركاتها العديمة المعنى وتهرع الى حماتها من الديكة فتأتي اليك من حقول المزرعة صيحات الفراخ ونقيقها الذي تطلقه برنة يائسة ذعرا من الصقر . وينصفق الباب الخلفي من بيت المزرعة ويبرز ريموند حاملاً بندقيـــة الصيد فيندفع الصقر مائة قدم الى الاعلى وينفلت بعيدا فتنتشر من جديد موجات الفراخ وتسمع نقيقها وخربشتها وصفق اجنحتها .

كانت مراعي الدجاج مسيجة معزولة عن بعضها بعضاً بحيث يستطيع المرعى منها ان يستريح ويستعيد بعض ما فقده ، بينما تكون الفراخ تعمل نقرا في المرعى الآخر . وكنت تستطيع من التـــل ان ترى بيت ريموند المدهون بالكلس الابيض وقد قام على حافة خميلة من اشجار السنديان . وكانت تنتثر حول البيت الكثير من خمائل الازهار ووراء البيت تمتد حديقة الازهار الجديرة باسم « حديقة في وادي الفردوس » .

وكان الســكان المجاورون يعتبرون ذلك المكان مزرعة الوادي النموذجية .

كان ريموند بانكس رجلا قويا عتيـــاً . وكانت ذراعاه القصيرتان المجدولتان المنحدرتان من كتفين عريضتين قائمتين على عجز ضخم وساقين قويتين تساعدان مع معدته البارزة على اظهاره بمظهر الرجل البالغ القوة والقوى القادر على الدفع والجر والحمل . وكانت الشمس قد لوحت واحرقت باللون القاني المسمر كل جزء مكشوف من جسمه . اجل لقد لوحت الشمس ذراعيه حتى المرفقين وعنقه ووجهه وخاصة اذنيه وانفه وامعنت فيها احراقاً . وما كان شعره الاشقر الرقيق يستطيع ان يحمي صلعته من الاحمرار تحت لظى الشمس . وكانت عينا ريموند تثيران الانتباه فقد كانتا سوداوين كالقار بينما كان جفناه شاحبي الصفار ، ذلك الصفار الشاحب الذي ينسجم عادة مع العيون الزرقاء البراقة . وكان فمه متسما بشفتين مليئتين وقسمات مرحة بحيث كان فمه يتكامل مع انفه الافنى الذي يعطي طابع الخبث .

وكما سبق فان الشمس كانت قد صبت جام غضبها بقسوة على انف ريموند واذنيه بحيث كادت لا ترى خلال العام كله وهي غير مشققة او منتفخة .

كان ريموند بانكس في الخامسة والاربعين وكان بالغ الطيبة ولكنه ما تكلم مرة بنعومة بل كان دائماً يتكلم بصوت مرتفع مفعم بالعنفوان الساخر . وعندما كان يتحدث باكثر الكلام ابتذالا فانما كان يفعل ذلك كما لو كان كلامه دعابة سائغة لان الناس كانوا يضحكون كلما تكلم . وفي حفلات عيد الميلاد التي تقام في بناء المدرسة كان ريموند يُختار ليقوم بدور بابا نويل بسبب صوته المتصاعد من قلبه وبسبب وجهه الاحمر وحبه للاطفال فكان يعنف الاولاد بنوع من القسوة الشديدة الوطأة التي تجعلهم يواصلون الضحك . وسواء ارتدى ثياب بابا نويل ام نضاها فقد كان اطفال الوادي يعتبرونه نوعاً من بابا نويل . فقد كانت له طريقة في ارجحتهم وشقلبتهم تثير بهجتهم ورضاهم . وكان بين الحين والآخر ينقلب جادا ويروي لهم كلاما له جلال الدروس العظمى .

واحيانا في صباح ايام السبت كان فريق من الاولاد الصغار يتوجه الى المزرعة لمشاهدة ريموند وهو يعمل فكان يتركهم يحدقون بنوافذ الحاضنات الكهربائية وكانوا يرون في بعضها احيانا الفراخ وهي خارجة من البيضة بعد ان نقرت قشرتها وقد اخذت تراوح اجنحتها المبتلة وتتأرجح يمنة ويسرة على قوائم هزيلة . وكان يسمح للاطفال بازاحة اغطية الحاضنات

وان يملأوا ايديهم بالفراخ الصغيرة ذات الزغب الاشقر التي كانت تصدر ضجيجاً يماثل ضجيج مائة آلة تفتقر مفاصلها الى الزيت . ثم كانوا يتجهون الى البركة ويقذفون بفتات الخبز الى البط السابح بعظمة . الا ان الاطفال كانوا يحبون اكثر من كل شيء ساعة الذبح . والعجيب في الامر ان هذه الساعة هي الساعة التي يتخلى فيها ريموند عن مرحه ولهوه ويصبح بالغ الجد والرزانة .

وكان ريموند يلتقط ديكا صغيرا من الحظيرة ويعلقه من قادمتيه على دعامة خشبية ويربط بوحشية جناحيه المصفقين بشد فولاذي . وكان الديك يضج بالصياح بينما يتناول ريموند من صندوق بجانبه مدية الذبح ذات النصلة التي تشبه في شكلها الرمح وكم كان الاطفال يتصايحون اعجاباً بالمدية وبشكلها المخيف وبلمعانها وبرأسها الحاد كالابرة .

وكان ريموند يقول :

ـ والآن أيها الديك اللعين لقد قضي عليك .

عند ذلك كان الاطفال يتجمهرون مضيقين الحلقة عليه فيمسك ريموند بيدين سريعتين دربتين برأس الديك ويجبره على فتح منقاره بينما تومض المدية وتنحدر بسرعة البرق من المنقار الى داخل دماغ الديك وتخرج من الطرف الآخر فكان جناحا الديك يهتزان ويصطفقان وكانت رقبته تتطاول بحنين الحياة من هذه الناحية الى تلك بينما ينحدر خيط رفيع من الدم من اعلى المنقار .

وهنا كان ريموند يهتف :

ـ والآن انظروا .

ثم يمد قبضته ويمشط بها صدر الديك ويجذبها وقد امتلأت بكل ما كان على صدره من ريش . وبكرة اخرى كان يعري ظهر الديك . وعند ذلك لا يكون جناحا الديك ينافحان بشدة فيأخذ ريموند الريش عنهما تاركاً نهاية الجناحين . ثم كان يجرد الساقين من الريش بنتفة واحـــدة لكل منهما . وكان يشرح الامر للاطفال وهو يعمل قائلا :

ـ أرأيتم ؟ يجب ان تقوموا بالامر بسرعة فليس هناك غير دقيقتين يظل الريش خلالهما سهل الاقتلاع فاذا ترك فانه يشتد التصاقاً .

ثم ينزل الديك من الدعامة الخشبية ويسحب مدية اخرى ويشق بضربتين بطن الديك ويصب احشائه في طنجرة ثم يمسح يديه الداميتين بخرقة .

وفي هذه الاثناء يتصايح الاطفال :

ـ انظر ما هذا ؟

ـ انه القلب .

ـ ولكن انظر فانه لا يزال يتحرك . . انه لا يزال حياً .

فيطمئنهم ريموند قائلا :

ـ كلا انه ليس بحي فلقد مات الديك منذ اللحظـــة التي مست المدية فيها دماغه . اما هذا القلب فانه يواصل خفقانه الهوينا ولكن الديك يكون قد شبع موتا .

وكان بعضهم يسأله :
ـ ولماذا لا تذبح الديكة وتقطع رؤوسها كما يفعل ابي ؟
فيجيب :
ـ لان هذه الطريقة انظف واسرع لا سيا وان القصاب يريدها برؤوسها . ان القصابين يبيعون الديكة مع رؤوسها لتزداد وزنا .
كان يقول ذلك ويمد يديه الى الحظيرة ويلتقط ديكاً آخر وهو يقول :
ـ والآن تعال انت ايها الديك اللعين !
وعندما تنتهي « المذبحة » كان ريموند يأخذ احشاء الديكة من الطنجرة ويوزعها على الاطفال وكان يعلمهم كيف ينظفون امعائها وينفخونها في شكل بالونات .
كان ريموند دائماً بالغ الجد عندما يشرح للاطفال عمله في المزرعة ولكنه كان يرفض عروضهم لمساعدته في الذبح رغم الحاحهم فكان يقول معتذراً :
ـ قد تهتاجون وتخطئون الدماغ وهذا من شأنه ان يؤذي الديك اذا لم تنخزه المدية في المكان المناسب من دماغه .
اما مسز بانكس فكانت امرأة ضحوكة تطلق ضحكات صافية عذبة تشير الى مرح معتدل بل ربما الى غفلتها . كان منهجها هو الضحك تقديرا لكل ما يقال فكان الناس كيا يستحقون تلك التحية الضاحكة منها يحاولون ان يرووا الكلام المضحك كلما صادفوها .

وكانت بعد ان تنهي عملها في البيت تهرع الى الحديقة لتحفر وتشذب نباتها فلقد كانت من بنات المدينة ولهذا السبب كانت تهوى الازهار (كما يقول الجيران) . وكانت ضحكات السيدة كليو بانكس الرائقة الصافية ترحب بالضيوف الذين يتوجهون الى البيت فكانوا يقهقهون مغتبطين عندما يسمعونها .

كانت كليو بانكس بمراحة تجعل الناس يشعرون معها بالارتياح . وما من احد يدّعي انه يتذكر انها قالت شيئاً ولكن كل زائر كان يستطيع ان يتذكر حتى بعد مضي شهور رنين ضحكاتها .

اما ريموند بانكس فنادراً ما يضحك . بل انه على العكس كان يدعي بلادة مبالغا فيها يقبلها الناس كنكتة . وهكذا كان الزوجان اكثر المضيفين شهرة وشعبية في الوادي . وكانا بين الحين والحين يدعوان كل انسان في حقول الفردوس ، الى تناول الشرائح المشوية في خميلة السنديان قرب منزلهما فيشويان الفراخ الصغيرة على فحم السنديان ويفتحان مئات من زجاجات البيرة المقطرة في منزلهما .

وكان سكان الوادي يتطلعون بشغف الى هذه الحفلات ويتذكرونها بلذة عظيمة .

عندما كان ريموند بانكس في المدرسة الثانوية كان زميله فتى اصبح في ما بعد سجانا في سجن سان كوينتن . ولقـد استمرت الصداقة بينهما فهما لا يزالان يتبادلان في اعياد الميلاد الهدايا الصغيرة ويتكاتبان عندما يعرض لأي منهما حدث هام .

وكان ريموند فخوراً بمعرفته السجان وكان يتلقى منـــه سنويا دعوتين او ثلاث دعوات لكي يكون شاهداً في عملية اعدام . وكان دوماً يقبل الدعوات . والواقع ان رحلاته الى السجن كانت الاجازات الوحيدة التي يأخذها لنفسه .

كان ريموند يحب ان يصل الى بيت السجان في عشية يوم الاعدام فكان يجلس ورفيقه فيستعرضان ذكريات ايام الدراسة ويتذاكران الاحداث التي يذكرها كلاهما بالضبط فكانا دائماً يتذاكران ويتحدثان عن النوادر نفسها . وكان ريموند يروي ما يراه في اليوم الثاني من انفعال الشهود الآخرين ومن الهستيريا التي تغمرهم وهم في مكتب السجان . وكان مسير المحكوم بالاعدام وهو يمشي الهوينا يثير مشاعره الدراماتيكية ويجره الى انفعال عاطفي مبهور فلم تكن عملية الشنق بالذات شيئاً هاماً فقد كان الشيء الذي يثيره ويعجبه هو ذلك الجو الحاد المرهف الذي يهيمن على العملية كلها .

كان الامر كله يجعله يشعر بأنه يعاني تجربة تامـــة فكان ينفعل بشعور قدسي لا يدانيه شيء ما في كل حياته . وما كان ريموند ليولي بتفكيره المحكوم باكثر ممـــا يفكر بالديك وهو ينحر دماغه برأس المدية . فما كان يجره صوب المشنقة ضغط نزعة القسوة او ضغط التلذذ برؤية العذاب ولكنه كان قد انمى في نفسه شهية الى الانفعال العميق، وما كان خياله السقيم المزيل ليستطيع ان يغذي تلك الشهية ، غير انه كان يستطيع وهو في السجن ان يشاطر الآخرين اعصابهم المرهفة النابضة .. ثم انه

ما كان خليقاً بان يتأثر ويغير من موقفه حتى لو كان وحده في غرفة الاعدام دون ان يشاطره المنظر الا السجين والجلاد.

كان ريموند يهوى حضور الاجتماع الذي يعقد في مكتب السجان بعد ان يلفظ حكم الاعدام بينما كان غيره من الرجال المنهوكة اعصابهم يحاولون ان يستخدموا معين بأسهم ليجمعوا شتات لبهم فيصبحون في هذه الحالة اكثر مرحاً وضجيجاً مما هم عليه عادة يحدقون بنظرات حادة في الشاهد المستجد ويكون عادة صحفيا شاباً يغمى عليه او يخرج من غرفة الاعدام باكياً. كان ريموند يتمتع بالعملية كلها فقد كانت تشعره بانه حي وكان يبدو في خلالها اكثر انفعالا بالحياة من اي وقت آخر.

وبعد ان ينتهي الامر كان يشاطر السجان عشاء دسما قبل ان يقفل عائداً الى بيته. وكان الانفعال ذاته ولكن الى مدى محدود يطرأ على ريموند عندما كان الاطفال يأتون لمشاهدته وهو يذبح الفراخ ففي تلك اللحظات كان يستطيع ان يقبس قبساً ضئيلا من انفعالهم.

لم يمض وقت طويل على عائلة مونرو في حقول الفردوس قبل ان سمعت عن مزرعة ريموند بانكس الرائعة وعن زياراته للسجن. فلقد كانت رحلاته لرؤية تنفيذ احكام الاعدام تثير اهتمام سكان الوادي وتبهرهم دون ان تثير فيهم الرهبة.

وقبيل ان تقع عيناه على ريموند كان بيرت مونرو يتصوره جلاداً بالسحنة المألوفة عن الجلادين:

هزيل الجسم قاتم البشرة بعينين بليدتين يبرق الموت منهما

وبشخصية باردة لا اعصاب فيها فكان مجرد التفكير بريموند يملأ بيرت بنوع ما من اللهفة الفضولية .

واخيراً عندما قابل ريموند بانكس ورأى عينيه السوداوين المرحتين ووجهه الصبوح وقد لفحته الشمس اصيب بيرت بخيبة امل وشعر في الوقت ذاته بشيء مـــن الاستياء فقد بدت له مظاهر حيوية ريموند ومرحه ، مظاهر قبيحة مخادعة مخاتلة لا تنسجم مع فكرته الرهيبة عنه اذ ان التناقض الظاهري بين خلقه الدمث وحدبه على الاطفال وبين ما يتصوره عنه كان يبدو شيئاً غير مألوف .

في اول يوم مـــن ايار « مايو » اولم آل بانكس احدى ولائمهم تحت ظلال السنديان قرب منزلهم وكان ذلك في اجمل مواسم العام، اذ تفتقت هنا وهناك الازاهير والورود وطرزت بساط العشب الاخضر الذي مدته الطبيعة على سفوح التلال . وكانت اشجار السنديان قد ارتدت ثوباً جديداً من الوريقات الخضراء النظيفة اللامعة وكانت الشمس تبعث في الجو دفئاً لذيذاً جعل الطيور تمضي في تغريدها كما لو كانت في اجازة هي الاخرى ! وبالاضافة الى ذلك كانت تأتي من اقنان الدجاج زمجرة من حفيف الاجنحة والنقر والخربشة ، مشفوعة بصراخ البط المعبر عن السخرية والكبرياء .

وحول موائد الطعام الطويلة الممدودة تحت الاشجار وقف ما لا يقل عن الخمسين مدعواً بينما كانت المئات من زجاجات البيرة محشوة في احواض مليئة بالملح والثلج اللذين يؤلفان مزيجا

هو من البرودة بحيث يجمد البيرة عند اعنـــاق الزجاجات .
وكانت المسز بانكس تتجول بين الضيوف وهي تضحك اما تحية واما جواباً على تحية فنادراً ما كانت تتلفظ بكلمة .
وعند مواقد النار كان ريموند يشوي الفراخ الصغيرة بينما التف حوله فريق من المعجبين وهم يقدمون له النصح المضحك .
وكان ريموند يصيح فيهم قائلا :
ـ اذا كان فيكم من يشويها احسن مني فليتقدم اوسأضع الآن على المشواة شرائح اللحم لكل احمق لا يريد الفراخ .
وقف بيرت مونرو عن كثب يرقب يدي ريموند الحراوين وكان يحتسي زجاجة من البيرة القوية وقد بهرته القضبتان الحراوان القويتان وهما تقلبان باستمرار الفراخ على المشواة .
وعندما حملت زوارق الفراخ المشوية الى الموائد عاد ريموند الى الموقد ليشوي المزيد لاولئك الضيوف الممتازين الذين قد يتطلبون فرخاً ثانياً بل ثالثاً. وعندئذ بقي ريموند لوحده ذلك لان جمهوره قد هرع الى الموائد .
تطلع بيرت مونرو عبر صحنه فرأى ريموند وحيداً عند الموقد فوضع شوكته وتوجه نحوه . فسأله ريموند بقلق اصيل:
ـ ماذا في الامر يا مستر مونرو ؟ الم يكن فرخك شهياً ؟
فقال له بيرت :
ـ لقد اكلت شرحة وكانت لذيذة ولعلني قد اكلت بسرعة فانت تعلم بانني لا اقرب الفراخ .
ـ اهو كذلك ؟ ما استطعت ابدا ان افقه كيف يستطيع

اي انسان ان لا يحب الفراخ،على انني اعرف كثيرين من الناس لا يحبون الفراخ ولكن دعني اضع الك قطعة اخرى صغيرة من الشرائح .

ـ اوه .. كلا . . اعتقد اني اكتفيت كما وانني اظن بان الناس يأكلون اكثر مما يجب واری ان على المرء ان ينهض عن الطعـــام ولا يزال يشعر ببعض الجوع فعند ذلك يظل قويا كالحيوانات .

فأجابه ريموند :

ـ اعتقد ان ذلك صحيح .

قال هذا وقلب هياكل الفراخ الصغيرة على النار ثم استطرد يقول .

ـ اجل انني الاحظ بانني احسن عندما لا آكل اكثر مما يجب .

ـ بالطبع . . بالطبع . . وهكذا انا! وهكذا كل انسان يفعل ذلك ولكن كل الناس يفرطون في الاكل .

تبادل الرجلان الابتسامة الحارة لانهما اتفقا على هذه النقطة على الرغم من ان كلا منهما لم يكن يؤمن بما قال ايماناً قوياً .

قال له ريموند وهو يهدف الى تقوية صداقتهما النامية باتفاق ثان:

ـ ارى ان عندك ارضاً طيبة هنا !

ـ لست اعرف بالتأكيد اذ يقولون ان العوسج الطفيلي يغمرها ولكنني لم ار منه شيئاً بعد .

فضحك ريموند مجيباً :

ـ كانوا يقولون ان المكان مليء بالاشباح قبل ان تأتي وتجعله على خير حال . قل لي الم تر اي شبح ؟

ـ ولا أبداً . انني افزع من العوسج الطفيلي اكثر مما افزع من الاشباح اذ اني بالتأكيد اكره العوسج .

ـ لست اعرف شيئاً ولا الومك على ذلك ولكن العوسج لا يضايقني في تربيتي للدجاج ولكنه يسبب لكم ضيقاً شديداً انتم الذين تربون الماشية .

التقف بيوت غصناً من الارض ورماه برفق عـــلى الفحم الملتهب وقال لمضيفه :

ـ سمعت انك على معرفة بالسجان في سان كوينتن .

ـ انني اعرفه جيداً فلقد كنت و « إد » رفيقي دراسة في طفولتي . قل لي يا مستر مونرو هل تعرفه ؟

ـ ابدا . . كلا . . ولكنني اذكر اسمه اذ غالباً ما تردده الصحف فرجل في مثل مركزه يتردد اسمه كثيراً في الصحف .

فأجابه ريموند بصوت مليء بالجد والفخار :

ـ اجل انه يحظى بدعاية كبرى . ولكنه رجل طيب . انه طيب لدرجة تجعلك تهوى ان تقابله فعلى الرغم من كل اولئك المحكومين الذين يحتفظ بهم تراه مرحاً ودوداً بحيث لا تظن عندما تحادثه انه يمارس مسؤولية كبرى كهذه .

ـ اهو كذلك ! ان الانسان لا يظنه هكذا اي اني اعني بان المرء يظن بانه قلق مهموم من جراء كل اولئك المحكومين المسؤول عنهم . قل لي هل تراه كثيراً ؟

ـ اجل .. لقد قلت انني رافقته في الدراسة وكنت رفيق صباه وهو ما نسيني اذ انه بين الحين والحين يدعوني الى السجن عندما يكون هناك اعدام بالشنق .

ارتجف بيرت على الرغم من انه كان يسعى الى التحقق من ذلك وقال :

ـ اهو كذلك ؟

ـ اجل . . وانني اعتقد ان دعواته تشرفني فلا يشهد عملية الاعدام كثيرون من الناس باستثناء رجال الصحافة والشهود الرسميين والشريف ورجال البوليس . على انني كذلك اتمتع كل مرة بزيارتي لصديقي « اد » .

حدث شيء غريب لبيرت فقد بدا كما لو انفصل عن جسده وتصاعد صوته معزولا عن ارادته بحيث سمع نفسه يقول :

ـ لا اظن ان السجان سيحب ان تصطحب صديقاً معك .

اصغى بيرت الى كلماته بدهشة ذلك انه لم يرد اطلاقاً أن يقول ما قال :

وشعر ريموند بالحرج بينما كان في تلك الآونة يقلب النار بشدة وما ابث ان اجاب :

ـ لست اعلم بالتأكيد يا مستر مونرو فلم افكر في الامر . قل لي هل تشعر بالرغبة في ان تصحبني الى هناك ؟

ومرة اخرى انطلق صوت بيرت بمعزل عن ارادته فقال :

ـ اجل . .

ـ حسناً . . سأخبرك بما سأفعل في هذه الحالة . . سأكتب

لا بد . انني كثيرا ما اكتب له وسآتي في كتابي له عرضاً على ذكر رغبتك في الذهاب ولعله يرسل دعوتين في المرة التالية ولكنني بالطبع لست استطيع ان اعدك بذلك . قل لي الا ترغب في قطعة اخرى من الشواء ؟

كان بيرت في حالة غثيان عندما قال :

ـ كلا لقد اكتفيت ولست اشعر باني على ما يرام ولعلني سأذهب واتمدد تحت شجرة لبرهة ما .

ـ لعلك قد هززت كثيراً عناصر الخميرة في البيرة التي شربتها فقد كان يتوجب عليك ان تكون شديد الحذر إذ تصبها .

جلس بيرت على بساط من الاوراق الجـــافة تحت شجرة سنديان ورأى الى يمينه الموائد وقد اصطف حولهـــا ضيوف يكثرون من الضجيج ، على انضحك الرجال الاجش مصحوبا بصيحات النسوة كان يطرق اسماعه خافتاً عبر السور الذي بنته افكاره ، ومن بين جذوع الشـــجر استطاع بيرت ان يرى ريموند بانكس وهو لا يزال ناشطاًحول المشواة يشوي الفراخ لسد شهيات لا تصدق ، لم تسد بعد .

بدأ الغثيان الذي اجبره على الابتعاد يتبدد بسرعة وبدأ شعورالمرض الحاد فيه يتحول الى نوع غريب من الرغبة التي تملكته، لقد حيرت هذه الرغبة بيرت واقلقته فما اراد فعلا ان يذهب الى سان كوينتن ، ذلك ان منظر رجل يشنق خليق بأن يتعسه . ومع ذلك شعر بالسعادة لانه طلب الذهاب ، ولقد اقلقته هذه السعادة بالذات . واذ شـــاهد بيرت ريموند وهو

ابلف كامه على ساعديه المثلثين المحمرتين قبل أن ينظف المواقد ، نهض وتوجه نحوه وفجأة غمره الغثيان من جديد فدار قليلاً ثم هرع الى المائدة حيث كانت زوجته توزع الشكات حول هياكل الفراخ العارية وسمعها تصيح :

ـ ان زوجي لا يأكل الفراخ مطلقاً .

فقال لها بيرت .

ـ انا ذاهب الى البيت فلست على ما يرام .

وهنا القت زوجته هيكل الفرخة من يدها ومسحت اصابعها وفمها بمنديل من الورق قائلة :

ـ ماذا اصابك يا بيرت ؟

ـ لست اعلم ، كل ما في الامر اني لست على ما يرام .

ـ هل تريدني ان ارافقك في السيارة الى البيت ؟

ـ كلا ابقي انت وسيوصلك جيمي .

ـ حسناً . الافضل ان تودع السيد بانكس وزوجته .

ولكن بيرت تحول بعيداً قائلا :

ـ ودعيها بالنيابة عني فانا اشعر بتنغص شديد .

قال ذلك وسار بخطوات سريعة .

وبعد اسبوع من ذلك توجه بيرت مونرو بسيارته الفورد الى مزرعة آل بانكس واوقفها امام البوابة . . وظهر ريموند من وراء دغل كان يختفي فيه محاولا ان يصيب ببندقيته صقراً جارحاً فاندفع من الدغل وصافح زائره الذي قال له :

ـ لقد سمعت الكثير عن مزرعتك ففكرت في القدوم للتفرج عليها !

شعر ريموند بالحبور وبادر ضيفه قائلا :

ـ دعني اضع هذه البندقية جانباً وسأطوف بك بعد ذلك المكان !

ظلا لمدة ساعة يجولان في انحـــاء المزرعة وريموند يشرح وبيرت يبدي الاعجاب بنظافة وفعالية اقنان الدجاج . ولما انتهيا من الفرجة على كل المكان قال ريموند لبيرت :

ـ تفضل الى المنزل لنتناول قدحاً من البيرة فليس هناك ما يماثل البيرة الباردة في يوم قائظ كهذا !

ولما جلسا بدأ بيرت بشيء من الصعوبة قائلا :

ـ هل كتبت تلك الرسالة الى السجان يا مستر بانكس ؟

ـ اجل. لقد فعلت ولا بد ان يردني الجواب سريعاً الآن.

ـ ربما تعجب لما سألتك ! الواقع انني اعتقد بان على المرء ان يرى كل ما يستطيع ان يراه وذلك من قبيل التجربة . وكلما عانى المرء المزيد من التجارب كلما كان ذلك افضل له . اجل ان على المرء ان يرى كل شيء .

فوافق ريموند قائلا :

ـ اجل ان هذا صحيح . تماماً . صحيح .

جرع بيرت قدحه حتى الثمالة ثم مسح فمه قائلا :

ـ لقد قرأت بالطبع في الجرائد وصفاً عن تنفيذ احكام الشنق ولكن ليس من شاهد كمن قرأ . . يقال ان المحكوم بالاعدام يصعد ثلاث عشرة درجة الى المشنقة تأكيداً لسوء طالعه .

ارتدى وجه ريموند تعبيراً ينم عن التركيز وقال :

ـ الواقع اني لست اعرف يا مستر مونرو فلم اعـد ابدأ الدرجات .

ـ قل لي كيف يناضل المحكومون وينافحون بعد ان يتأرجحوا على المشنقة ؟

ـ اعتقد انهم يفعلون ذلك . انهم يربطون وتسدل عـلى رؤوسهم ملاءة سوداء فلست تستطيع ان ترى الكثير . واني لاميل الى وصف حركاتهم بالتململ والترنح اكثر مما اميل الى وصفها بالصراع والنضال .

احمر وجه بيرت وتجهم وبرقت عيناه باهتمام قائلا :

ـ تقول الصحف انهم يتعذبون من ١٥ الى ٣٠ دقيقة قبل ان يحل بهم الموت فهل هذا صحيح ؟

ـ اعتقد ان ذلك صحيح . ولكنك في الحقيقة تستطيع ان تقول عنهم انهم ماتوا في اللحظة التي ترفع فيها المنصة من تحت اقدامهم . ان الامر يشبه قطع رأس الديك فعندمـا تقطع رأس الديك يظل يترنح ويرفرف فترة ولكنه يكون ميتاً في الواقع .

ـ اجل اعتقد ان ذلك صحيح . انهم يدعون ذلك برد الفعل الذاتي . واعتقد ان بعض الناس يعانون الشيء الثقيل من رؤيتهم عملية تنفيذ الاعدام للمرة الاولى .

ابتسم ريموند ابتسامة اغتباط شاحبة قائلا :

ـ بالطبع . ففي كل مرة تقريباً يغمى على احد ما . بل ان مخبري الصحف الشبان يبكون كالاطفال احيانا بينما يصاب

بعضهم بالدوار ويمرضون فعلا ولا يستطيعون ان يقربوا طعاماً تلك الليلة. اجل ان معظم الذين يشاهدون العملية يصابون بهذه العوارض . . . ما قولك في تناول زجاجة اخرى من البيرة فهي مستساغة وباردة اليس كذلك ؟

فوافقه بيرت غائب الذهن :

ـ اجل انها بيرة لذيذة ! ولعله يجب ان انقل عنك وصفة صنعهـــا فعلى المرء ان يكون لديه بعض البيرة جاهزة لوقت القيظ ... الا ان علي ان اذهب الآن يا مستر بانكس وشكراً لتفريجك اياي على المكان. واعتقد انك تستطيع ان تسدى بعض الارشادات الى سكان مزرعة بيتالوما حول تربية الفراخ .

فتضرج وجه ريموند سروراً وقال :

ـ انني احاول دائماً ان انسجم مع التطورات الجديدة . وسأخبرك عندما اتلقى شيئاً ما من « إد » .

ظل بيرت مونرو طيلة الاسبوعين التاليين عصبياً سريع الاهتياج ، حاده ، وكان ذلك منه على غير المألوف قبلا ممـــا جعل زوجته تحتج قائلة :

ـ لست على ما يرام يا بيرت فلماذا لا تذهب وتفحص نفسك عند الطبيب ؟

فأجابها باصرار :

ـ ولم .. انني على ما يرام .

كان يمضي معظم وقته في العمل بالمزرعة ولكن عينيه كانتا تجوبان انحاء الطريق في كل مرة تظهر فيه سيارة ما .

كان ذلك يوم السبت عندما جاء ريموند بانكس بسيارته الخفيفة واوقفها امام بوابة آل مونرو فألقى بيرت الرفش من يده وتوجه لمقابلته .

عندما يتقابل مزارعان فانهما من النادر ان يتوجهـــا الى البيت بل انهما بدلا من ذلك يسيران بخطوات بطيئة جائبين الارض مقتلعين الحشائش من الحقول او بعض الاوراق من الاشجار فيجسانها باصابعها بينما يتجاذبان الحديث .

كان الصيف لا يزال في بدايته ولذا فقد كانت اوراق الاشجار المثمرة لم تضع رونقها الاخضر الرقيق الفاتح . ولكن البراعم كانت كلهـــا قد تساقطت وتعاقدت مكانها الثمار وقد اخذ الاحمرار يشوب ثمرات الكرز .

سار بيرت وريموند ببطء فوق الارض المزروعة وتحت الاشجار الظليلة .

كان بيرت يعلم تمام العلم لماذا اتى ريموند ولكنه اغفل الامر قائلا :

ـ ان العصافير كثيرة هذا العام وانها ستحظى بمعظم الكرز كما اعتقد .

ـ لقد تلقيت نبأ من « إد » انه يقول ان لا بأس اذا رافقتني وهو يقول انهم لا يدعون الكثيرين يأتون لانهـــم يحاولون ان يبعدوا الفضوليين الطفيليين على انه يقول انه لا بأس في استقبال اي من اصدقائي . وهكذا سنذهب معا يوم الخميس المقبل لان هناك عملية اعدام يوم الجمعة .

ظل بيرت سائراً بصمت وعيناه مثبتتان على الارض بينا تابع ريموند حديثه قائلا :

ـ ان « إد » دمث المعشر وستحبه . اننا سنبقى في ضيافته مساء الخميس .

التقط بيرت غصناً من الارض وقوسه كثيرا وبين يديه ثم قال :

ـ لقد كنت افكر في الامر . قل لي هل يهمك لو تخليت عن الذهاب في اللحظة الاخيرة ؟

حدق فيه ريموند مدهوشاً :

ـ لماذا ؟ كنت اعتقد انك تريد الذهاب . ماذا جرى ؟

ـ ستظنني خائرا اذا اخبرتك . الواقع انني قد فكرت ملياً في الموضوع وانني افزع من الذهاب . انني اخشى من ان لا استطيع ان انزع الصورة من رأسي بعد ذلك .

فاحتج ريموند قائلا :

ـ ليس الامر بمثل ما يبدو من السوء .

ـ لعله كذلك فلست اعرف شيئاً عن الامر . الا انني فزع من ان يؤثر علي تأثيراً سيئاً فالجميع لا يرون الشيء ذاته بمظهر واحد .

ـ اجل هذا صحيح .

ـ سأحاول ان اعطيك فكرة عن شعوري يامستربانكس . انت تعلم انني لا اتناول الفراخ وليست من عادتي ان اخبر احدا لماذا لا آكل الفراخ اذ اكتفي بأن اقول اني لا احبها .

لقد اثقلت عليك يا مستر بانكس ولكنني سأخبرك .

وهنا انكسر القضيب بين يديه فرمى بقطعتيه ودفن يديه في جيبه قائلا :

ـ عندما كنت طفلاً في حوالي الثانيـــة عشرة من عمري اعتدت ان اقوم بتوزيع الحاجيات لحساب المخزن قبل ذهابي الى المدرسة . وكان يعيش بجانب معمل التقطير عجوز كسيح فلقد قطعت احدى ساقيه من عند الورك فاستبدلها بعكاز من الطراز القديم ، ذلك العكاز المنتهي على شكل هلال يســـند الابط ولقد اعتاد ان يسير عليها تماماً ولكن سيره كان بطيئاً نوعاً ما . وذات صباح بينما كنت اسير حاملا سلة الخضروات كان الرجل العجوز قـــد خرج الى باحة داره ليذبح ديكا . وكان اكبر ديك رأيته أو لعله خيل لي ذلك لانني كنت من الصغر بحيث بدا الديك بالغ الضخامة . ورأيت الرجل العجوز وقد وضع عكازه تحت ابطه بينما امسك الديك من ساقيه .

توقف بيرت عن المسير والتقط غصناً آخر من الارض . طواه ايضاً بين يديه بينما كان وجهه يزداد شحوبا وهو يتكلم مستطردا :

ـ وكان الرجل العجوز يمسك بساطور في يده الاخرى واذ كان يهوي بالساطور على عنق الديك انزاح عكازه قليلاً وتشقلب الديك بين يديه فقطع جنحاً من جناحيه فجن جنونه واخذ يمعن ضربا وتقطيعـــاً بساطوره مرة في صدر الديك ومرة في معدته . ثم ما لبث العكاز ان انزلق المزيد فاختل توازن العجوز

بينما كان ينزل بساطوره بضربة أخرى فقطع احدى ســاقي الديك . وكانت الضربة من العنف بحيث فتــح جرحاً في اصبعه .

مسح بيرت جبهته بكمه بينما كان ريموند يكوم كومة من السماد بطرف حذائه .

وتابع بيرت حديثه قائلا :

ـ وعندما حــدث ذلك القى العجوز الديك على الارض وجرر نفسه الى البيت وهو يمسك باصبعه الجريح بينما مضى الديك يتخبط على الارض بكل قوة . . بل انه اطلق نوعاً من الصراخ المألوف مشفوعاً بالخرير .

كسر القضيب مرة اخرى بين يدي بيرت فقذف باجزائه بعنف هذه المرة مستطرداً :

ـ منذ ذلك الحين لم اذبح ديكا ولم اذق لحم الدجاج . ولقد حاولت ان آكل لحم الدجاج ولكني في كل مرة اقدم فيها على ذلك يتراءى لي ذلك الديك الاحمر الذبيح متخبطــاً بدمه .

تطلع بيرت لاول مرة في وجه ريموند وسأله :

ـ هل فهمت كيف يمكن ان يحدث ذلك ؟

اغضى ريموند ببصره جانباً قائلا :

ـ نعم . . . نعم يا سيدي . . لا بد ان ذلك كان فظيعاً للغاية .

مضى بيرت بكلمات متلاحقة قائلا :

ـ لقد فكرت ملياً في امر الشنق ويخيل الي انه يشبه ذبح الديك . ولقد رأيت في حلمي مرارا وتكرارا ذلك الديك التعيس عندما كنت طفلا . وفي كل مرة كنت اصاب بتلبك في المعـــدة يحدث لي كابوساً . والآن ، افترض انني ذهبت لمشاهدة عملية الشنق معك ، فلقد احلم بها كذلك . منذ امد ليس ببعيد شنقوا امرأة في اريزونا فبتر الحبل رأسها . تصور لو ان ذلك قد يحدث امامي الن يكون اسوأ مائة مرة من شبح ذبح ذلك الديك ؟ اجل لو حدث ذلك لما استطعت اطلاقاً ان ابعد عن مخيلتي هذه الصورة .

فقاطعه ريموند قائلا :

ـ ولكن هذا لا يحدث مطلقاً واني لاقول لك ان الامر ليس من السوء كما يبدو .

لم يبد على بيرت انه سمعه فقد كان وجهه مسرحاً للرعب الهائل الذي يلوكه في افكاره عندما اجاب صديقه قائلا :

ـ ثم انك قلت ان بعض الناس يصاب بالغثيان وبعضهم يغمى عليه واني لادرك لمـــاذا يحدث ذلك . انه يحدث لان اولئك النـــاس يتصورون عندئذ انهم فوق المشنقة والحبل ملتف حول اعناقهم فهم بالحق يشاركون المشنوق شعوره . ولقد ذقت بنفسي هذا الشعور فقد تصورت نفسي بأنني سأشنق بعد اربع وعشرين ساعة فكان هذا التصور يرقى الى مصاف ارهب كابوس في العالم . ولقد فكرت في الامر وتساءلت ما الجدوى من ذهابي الى هناك واخافة نفسي ؟ سيصيبني الدوار

اذا فعلت وانا متأكد من ذلك . وسأتعرض نفسياً لكل ما يتعرض له المشنوق فعلياً . بل لقد شعرت بالحبل حول عنقي وانا افكر بالامر في الليلة الماضية ثم نمت وعندما وقعت الملاءة حول وجهي حلمت بانها كانت القنـــاع الاسود الرهيب الذي يسدل على رأس المشنوق .

صرخ ريموند في وجهه بغضب :

ـ اني انصحك بالا تفكر بأشياء كهذه فليس لك اي حق في الذهاب معي اذا كنت تتصور اشياء كهذه . واقول لك مره اخرى بان الامر ليس من السوء بهذا القدر عندما تراه . انه لا شيء . لقـــد قلت لي انك تريد الذهاب وحصلت على اذن لك فماذا تهـــدف من المضي في حديث كهذا ؟ اجل لا داعي لمثل ذلك الكلام . . ثم بحق الجحيم اذا كنت لا تريد الذهاب لماذا لا تقول انك لا تريد ثم تطبق فمك دون تفسير ؟

اختفت نظرة الرعب من عيني بيرت والتهب بالغضب وهو يقول :

ـ لا داعي لان يجن جنونك يا مستر بانكس . لقد كنت اخبرك باسباب عدم رغبتي في الذهاب ولو كان عندك قطرة من الذكاء لما كانت لي ثمة حاجة لان اخبرك . ولو كان عندك بعض الذكاء لعرفت بنفسك ولما احتجت للذهاب لترى نفساً شقية تقتل شنقاً .

تحول ريموند بازدراء قائلا :

ـ انك جبان ليس الا .

قال هذا وسار بخطوات سريعة الى سيارته فساقها بعنف الى مزرعته . وعندما وصل غطى السيارة بالملاءة الخاصة وسار ببطء نحو بيته حيث كانت زوجته تقطف الزهور فصاحت به :
ـ ماذا بك يا راي ؟ انك تبدو مريضاً .
فدمدم ريموند قائلا :
ـ عندي صداع وهذا كل ما في الامر . وسيذهب سريعاً.
هل تعرفين بيرت مونرو الذي اراد الذهاب معي في الاسبوع المقبل؟
ـ اجل .
ـ حسناً . انه لا يريد ان يذهب .
ـ ماذا دهاه ؟
ـ لقد فقد اعصابه وهـــذا كل الامر . انه يخاف من ان يرى الشنق .
فضحكت زوجته وقالت :
ـ حسناً انني شخصياً لا اعرف اذا كنت اود ان ارى مثل ذلك .
ـ انك امرأة بينما المفروض فيه ان يكون رجلا .
في صباح اليوم التالي جلس ريموند فاقد الشهية الى مائدة الافطار فأكل قليلا جدا وبدا القلق على زوجته فقالت له :
ـ لا يزال الصداع متمكناً منك فلماذا لا تعالجه ؟
فتجاهل ريموند سؤالها وقال :
ـ يجب ان اكتب الى «إد» ولست ادري ما اقول له .
ـ ماذا تعني بقولك انك لا تعرف ماذا تقول له ؟

ـ الواقع انني اخشى ان اكون في بداية رشح بحيث لا اعلم اذا كنت في حال تمكنني من الذهاب يوم الخميس . ان الرحلة طويلة وموجة البرد تعبر الخليج .

وفكرت السيدة بانكس قليلا ثم قالت :

ـ لماذا لا تدعوه للقدوم الينا ذات مرة ؟ انه لم يزرنا اطلاقاً بينما ذهبت اليه كثيراً من المرات .

اشرق وجه ريموند وهتف :

ـ بحق الله هذه فكرة . اجل لقــــد ظللت اذهب لرؤيته خلال سنوات عــــدة والآن سأبعث اليه ببطاقـة ادعوه فيها لزيارتنا .

واجابته السيدة بانكس مقترحة :

ـ اننا نستطيع ان نولم له وليمة شواء .

تعكر وجه ريموند من جديد وقال :

ـ كلا . لا اظن ان ذلك مناسب فان صديقاً حميا مثل « إد » ليس خليقاً بأن يحب ضجيج الكثرة ولكننا سنقدم له البيرة ولعله يحب ان ترى كيف يهواها اجـــل سأبعث اليه البطاقة الآن .

سرعان ما اخرج قلماً وقرطاساً وقنينة حبر وبينما كان قلمه يمضي مترددا فوق القرطاس رمى برأســـه الى الخلف صائحاً بتقريع :

ـ لعنة الله على مونرو فلقد كابدت الكثير من الصعاب من اجله ولكن كيف كان لي ان اعرف بأنه سيتكشف امامي جبانا ؟



عنـدما شاهد بات همبرت النور كان والداه قد بلغا اوسط العمر ، وقبل ان يبلغ العشرين طعنا في السن واصبحا صعبي المراس مؤذيين حقودين. وهكذا عاش بات حيـــاته في جو الشيخوخة المشحون بالالم والمرض والتذمر والانطواء ، واذ كان ينمو ويترعرع كان والداه يوليـان آراءه بالاحتقار لانه كان حـــدثا وكانا يقولان له :

ـ اذا قـدر لك ان تعمر طويلا مثلنا فلا شك ان الاشياء ستبدو لك

مختلفة كل الاختلاف عما هي عليه الآن .

ثم اخذ والداه يجد ان شبابه باعثاً على الحقد لانه شباب يفتقر الى الالم وكانا يحسبان شيخوختهما اسمى بكثير من صباه لانها اقرب الى الله من حيث العصمة والكرامة .

فحتى الروماتيزم لم يعتبراه شيئاً مكروهاً كثمن لحكمة الشيخوخة العظيمة. وهكذا 'جر بات الى الاعتقاد بان لا فضيلة في الشباب ، وما هو سوى استعداد أخرق يهيء المرء لعهد الشيخوخة الممتاز وان على الشباب ان لا يفكر بشيء سوى بالواجبات المترتبة عليه نحو الشيوخ وبما تستحقه الشيخوخة من المجاملة والاجلال بينما لا يترتب على الشيوخ أي مجاملة نحو الشباب .

ولما بلغ بات السادسة عشرة من عمره القيت على عاتقه جميع اعمال المزرعة واعتزل والده الى كرسي هزاز قرب الموقد في ردهة الاستقبال التي كان يصدر منها اوامره ومراسيمه وانتقاداته .

وكان آل همبرت يقطنون في بيت قديم مشتت مؤلف من خمس غرف: صالون مقفل بارد مفزع كالقبر وردهة جلوس حارة مختنقة الهواء تفوح برائحة المراهم الحريفة والادوية وغرفتان النوم ومطبخ كبير . وكان الشيخان يجلسان في كرسييهما المزازين تحيط بهما المساند ويتأففان ويتذمران بمرارة اذا لم يترك بات عمله في المزرعة عدة مرار في النهار ليأتي ويملأ الموقد الحطب . وظلا فعلا حتى آخر ايامهما يكرهان بات لانه كان

شاباً .

لقد عاشا عمراً مديداً . وكان بات في الثلاثين من عمره يوم توفيا ، بظرف شهر واحد بين الوفاة والاخرى . ورغم تعاسة شيخوختهما وتذمرهما المرير المستمر فقد تشبثاً بكل قوة بالقبس الاخير وصارعا الموت طويلا .

مر على بات شهران مقيتان فلثلاثة اسابيع ظل يخدم والدته المضطجعة متصلبة كالقرمة على سريرها وانفاسها تتحشرج في صدرها كلما حاولت التنفس، ترمقه بعينين متحجرتين متهمتين حانقتين كلما حاول ان يريحها. وحتى عندما ماتت كانت عيناها لا تزالان تتهمانه بالقصور .

ويوم وفاتهـــا فتح بات ردهة الاستقبال الرهيبة وجلس الجيران واجمين صفوفاً حول النعش اثناء الجناز بينما كان يتعالى من غرفة النوم المجاورة نشيج وبكاء السيد هبرت العجوز .

واما فترة التمريض الثانية فبدأت على الفور بعد الجنازة الاولى واستمرت ثلاثة اسابيع توفي الشيخ على اثرها ثم عاد الجيران وجلسوا صفوفاً حول نعش آخر .

كان باب الصالون قبل الجنازتين مقفلا ابداً ولا يفتح الا الا اثناء عملية التنظيف الشهرية وكذلك كانت الشبابيك تظل مغلقة لتقي السجادة الخضراء من الشمس . وفي وسط القاعة قامت طاولة رخامية انيقة مذهبة القوائم وفوقها تجثم نسخة ضخمة من الكتاب المقدس ذات جلد محفور مشغول على غطاء مطرز عليه صورة المصور الشهير ميلليه « جرس الغروب » .

وعلى جانبي الكتاب المقدس قام اناءان يضم كل منهما باقة من الازهار الصناعية الخالدة. وكان في الردهة ايضاً اربعة كراسي مستقيمة يقوم كل منها امام حائط من حيطان البيت الاربعة - اثنان منها للنعش واثنان منها للحارسين اللذين يسهران على النعش. وكانت هنالك على الجدران ثلاث صور كبيرة ملونة في اطارات ذهبية تمثل اثنتان منها السيد والسيدة همبرت في وضع رصين متجهم بحيث كانت عيونهما تلاحق كل متطفل يدخل الردهة. واما الصورة الثالثة فكانت تمثل جثمان الين محمولا على السفينة فوق نهير كئيب والتابوت مدلى على حافة السفينة وقد غطست حافته بالماء. وكان يقوم على مائدة جانبيه جرس زجاجي طويل ينطوي على غصن من اغصان الكرز يجثم فوقه ثلاثة عصافير محنطة من الكناري. وهكذا كان الصالون بارداً اشبه بالقبر بحيث لم يدخله قط سوى الموتى وحاشيتهم. والحق يقال انه كان مستودعاً خاصاً للموتى. وقد شهد بات بنفسه جنازات عماته الثلاث وعمه تنطلق من ذلك الصالون الى القبر.

وقف بات صامتاً ازاء القبر بينما كان الجيران يهيلون التراب ويجمعونه ركاماً فوقه، ثم تلفت الى قبر والدته فرآه قد غار قليلا تاركاً اخدوداً واضحاً حول الركام. أخذ القوم يمهدون جانبي الركام باعتناء ودقة. لقد كانوا فعلة ماهرين يحبون ان يتقنوا العمل بالتراب لا فرق ان كان العمل فلحاً للزراعة ام ردما للقبر والدليل على ذلك ترتيبهم الركام هذا

وهناك حتى بعد تمام العمل .

عادت النساء الى عرباتهن ورحن ينتظرن عودة ازواجهن . واما الرجال فساروا الى بات يصافحونه كل بمفرده وهم يتمتمون ببعض كلمات التعزية . ثم انطلقت العربات وراحت تتوارى الواحدة تلو الاخرى في الافق البعيد بينما ظل بات واقفاً وحده وسط المقبرة يحدق في القبرين دون ان يدري ما يفعل الآن فلم يبق من يطلب منه شيئاً .

كان الخريف قد اطل برائحته الحادة وبرياحه القارسة الهوج التي ما أن تهب حتى تخمد وتهدأ في منتصف سورتها ، وعلى سور المقبرة كان سرب من الحمام البري يجثم آمناً ، وتقاذفت الريح رقعة من جريدة قديمة داكنة وما لبثت ان استقرت عند كاحل بات . فانحنى والتقطها وتفحصها برهة ثم القى بها جانباً وسمع صليل دواليب مركبة يأتي من الطريق وبعد قليل ترجل السيد آلن من العربة وربط الحصان الى السور وتقدم من بات قائلا بصوت مرتبك :

ـ لقد فكرنا بانك خليق بان تقضي الليل في مكان ما واننا لنود ان تتناول العشاء في بيتنا وتقضي الليلة عندنا اذا شئت .

فأفاق بات من الذهول الذي حل به وقال :

ـ اجل علي ان اذهب من هنا . لا فائدة من بقائي هنا .

ـ من الافضل ان تغادر المكان يا بات .

ـ من اليسير يا سيد الن ، ان افارق المكان . . انه شيء يود المرء احياناً ان يتذكره واحياناً يود ان ينساه ولكن مفارقته

المكان عسيرة لانك اذ تفـــارقه فانك تدرك بان كل شيء قد انتهى . . والى الابد .

ـ حسناً ، ولكن لماذا لا تأتي وتتنـــاول العشاء معنا في بيتنا ؟

في تلك اللحظة كان كل حذره قد فارقه فاعترف قائلا :

ـ ولكني لم اتناول العشاء قط بعيدا عن البيت . فما كانا يحبان البتة الخروج من البيت بعد حلول الظلام ، ونسيم الليل لم يكن يلائمها .

ـ اذاً قد يكون من الملائم أن تتعشى في بيتنا . فلا يجب أن تعود الى بيتك الفارغ ، على الاقل ليس في هذه الليلة . وعلى المرء ان يشفق على نفسه قليلا .

وتناول الن ذراع بات وقاده الى البوابة ثم قال :

ـ اتبعني بعربتك .

وفيما هما منطلقان معاً افلتت من الن مرثاة مقتضبة اذ قال:

ـ من المناسب ان يموت المرء في الخريف فليس من الخير ان يموت في الربيع فلا يدري شيئاً عن هطول الامطار وكيفية اقبال المواسم ولكن كل شيء يكون قد انتهى في الخريف فيموت المرء مطمئناً .

ـ ما كان يهمها ذلك يا سيد الن . بل حتى ما كانا يسألان عن المحاصيل فقد كانا يكرهان الشتاء بسبب الروماتزم . الحياة كانت كلها همها ولا ادري لماذا .

كان العشاء مؤلفاً من شرحات من لحم البقر البارد والبطاطا

المقلية مع البصل وشطائر الخبز مع الزبيب . وحاولت السيدة الن ان تخفف عن بات بالاكثار من الكلام عن والديه وعن بالغ طيبتها ولطفها وعن نزاهة والده وعن مهارة امه في الطبخ. وعرف بات ان السيدة الن كانت تكذب لتخفف عنه . الا انه لم يكن بحاجة الى ذلك . . والحقيقة انه لم يكن حزيناً اسفاً لموتها . فكابوسها الثقيل لا يزال جاثماً عليه مسيطرا على حواسه بحيث كانت كل حركة او كلمة تكلفه مجهودا كبيرا .

كان يتذكر شيئاً حدث اثناء الجنازة ، فعندما كان الرجال يرفعون النعش عن الكرسيين تعـــثر احدهم بالطاولة الرخامية فسقطت احدى المزهريات وانحرف الكتاب المقدس عن سجادته الموضوع عليها . واحتراماً لذكرى والدته عرف بات بان عليه ان يعيد هذه الاشياء الى وضعها الاصلي . فكل كرسي ينبغي أن يصف امام الحائط المخصص له وينبغي تقويم وضع الكتاب المقدس واخيرا عليه ان يقفل ردهة الاستقبال . اجل فان ذكرى والدته تتطلب منه كل ذلك .

لقد حثه آل الن على ان يبيت ليلته عندهم فأبى وما لبث بعد برهة ان تمنى لهم ليـــلة سعيدة وجر نفسه متثاقلا ليسرج حصانه . كانت السماء قاتمة السواد باردة وكانت هناك همهمة خافتة تنطلق من التلال في غمرة حرارة منخفضة ورغم شروده كان يسمع وقع حوافر الحصان على الطريق وصراخ بعض طيور الليل وخشخشة الاوراق اليابسة كلما هبت عبرها الرياح . ولكن اصوات والديه كانت اوضح لسمعه من هذه . . .

ها والده يقول :

« غدا سيعم الصقيع اني اكرهه اكثر مما اكره الجرذان .»

وها هي والدته تعقب على قول ابيه :

« على ذكر الجرذان ساورني شعور بان ثمة فئران في القبو لا ادري اذا كان بات قد نصب المصائد لها . لقد اخبرته ان يفعل ولكنه ينسى كل ما اقوله له . »

وأجاب بات على تلك الاصوات الباطنية :

ـ لقد وضعت سماً فالمصائد ليست فعالة كالسم !

وخيل اليه ان والدته تقول :

« القط افضل الجميع واني لاعجب لمــــاذا لم نقتن قطاً او اثنين ولماذا لم يرب بات أي هر »

فأجابها :

ـ لقد جلبت عدة هررة يا امي ولكنها اذ تقرض وتلحس خشب الصندل يجن جنونهـــا وتهرب إني لا استطيع ان اربي القطط !

كان البيت ساكناً موحشاً بشكل يستعصي على الوصف عندما وصل اليه بات ، ولقد ترجل واشعل المصباح ثم اوقد نارا في الوجاق ليدفيء المطبخ . واذ اتقدت النار وتصاعد لهبها عالياً تهالك على كرسي وشعر براحة كبرى فأسر لنفسه بانه قد يكون حسناً ان ينقل فراشه الى المطبخ وينــــام قرب المدفأة ويترك أمر ترتيب البيت الى الغد او لاي يوم آخر . وعندما فتح الباب المؤدي الى غرفة الجلوس استقبلته موجة من

الهواء البارد الراكد وملأت خشمه رائحة ازهار الجنازة والادوية والشيخوخة ، فهرع الى غرفة نومه وحمل فراشه الى المطبخ الدافيء المضاء .

بعد برهة اطفأ بات المصباح وآوى الى فراشه ، كانت النار تفرقع برقة في الموقد ، وكان الليـــل ساكناً هادئاً ومن ثم اخذ البيت يضج تدريجياً بالارواح الخبيثة . تلمس بات جسده فوجده بارداً متوترا ، وخيل اليـــه انه يصغي الى الاصوات الصادرة من غرفة الجلوس والى خرير الكرسي الهزاز والى غطيط العجوزين المزعج . وراح البيت يطقطق ، وبينما كان يخيل اليـــه انه يستمع الى تلك الاصوات ذعر ذعرا شديدا . وبلل العرق رأسه وساقيه . وبهدوء انسل من فراشه واقفل باب غرفة الاستقبال ثم عاد الى فراشه واضطجع يرتجف تحت الغطاء . وعندما اصبح الليل بالغ السكينة شعر بات بوحشة مريرة .

ونهض بات في الصباح التالي يسيطر عليه شعور بواجب ثقيل عليه ان يؤديه . حاول ان يتذكره وبالطبع فقد كان ذلك الواجب تقويم وضع الكتاب المقدس والمزهرية على الطـــاولة وترتيب كل شيء وتنظيف البيت . كان بات يعلم بأن عليه ان يقوم بكل هـــذه الاشياء بالرغم من تردده في فتح باب غرفة الجلوس فقد انقبض روعه سلفاً مما سيرى بعد ان يفتح الباب . سيجد الكرسيين الهزازين كل منهما على طرف الوجاق ، ولا

يزال اثر جسد كل من والديه على وســائد الكرسيين ثم انه كان يعرف ما ينتظره وراء ذلك الباب من روائح الشيخوخة والزهور الذابلة وبقايا الادوية . ولكن الامر كان واجباً يجب ان يؤديه .

اشعل النار واعد فطوره وحينما كان يحتسي القهوة الساخنة ومض في ذهنه قبس من المنطق كان غريباً عن طراز حياته وادهشته الافكار التي اعتملت فيه . ادهشته لكونهـــا جريئة وبسيطة في آن واحد فقد تساءل :

ـ لماذا يجب ان اذهب الى الغرفة ؟ فليس فيها من اعني به بل لست مضطراً الذهاب اذا كنت لا اريد !

واحس بنفسه كولد صغير يهرب من المدرسة ليمشي في غابة كثيفة مبهجة . على ان صوت امه الشاكي اخذ يتردد في ذهنه مناضلا ضد حريته الجديدة :

« بات يجب ان تنظف البيت . بات انت مهمل »

بيد ان غبطة الثورة والعصيان غمرته فرد على الصوت :

ـ انت ميتة . انك لا تعدين عن كونك شيئاً يعتمل في مخيلتي . يجب ان لا ينتظر مني احد ان اقوم بعمل شيء بعد الآن . ولن يعرف احد اذا لم اقم بما يجب ان احمله لن اذهب الى غرفة الجلوس . لن اذهب ابدا !

وبينما كان العزم لا يزال قويا في روعه هرع الى باب غرفة الاستقبال وانتزع المفتاح وقذف به الى ادغال الاشواك وراء البيت واغلق كل النوافذ خلا نافذة المطبخ وثبتها بالمسامير .

لم تدم فرحته بحريته الجديدةطويلا . ففي النهار كان العمل في المزرعة يشغل كل وقته ، ولكن قبـــل ان ينقضي النهار كان يفتقد الى الواجبات القديمة التي كانت تستهلك ساعاته وتقصر له امد الوقت ، لقد عرف بأنه يخـــاف الذهاب للبيت فقد كان يخاف من تلك الآثار المنطبعة على الوســـائد ومن الكتاب المقدس المنحرف عن وضعه . وقد نجح بات في أن يسجن شبحين قديمين ولكنـــه أخفق في أن يقضي على طاقتهما على ازعاجه .

وفي تلك الليلة ، بعد ان اعد عشاءه جلس قرب المدفأة وغمرته كالضباب الكثيف موجة من شجن الوحدة واصغى الى اصوات البيت القديم تتدافع مسترقة الخطى ، والى الهمسات والى القرع الخفيف الصادر من هنا وهناك ولم يقدر ان يتحمل كل ذلك فخرج الى الاســـطبل واسرج حصانه وسار الى « المخزن العام لحقول الفردوس » .

ووجد هناك ثلاثة رجال يلتفون حول المدفأة المكورة البطن وهم يتأملون في تجاعيدها وثناياها بدون تفكير وحينما اقترب منهم افسحوا له مكانا للجلوس ، ولكن احداً مـــا لم يتطلع اليه ، لان من يلزم الحداد يستحق الحصانة الاجتماعية ذاتها التي يستأهلها المشلول . وجلس بات على كرسيه وحملق في المدفأة وقال :

ـ ذكروني بان آخذ طحيناً قبل ان اذهب .

وفهم الرجال ما يعنيه بات ، عرفوا انه لا يحتاج الى طحين ولكن كل واحد منهم كان خليقاً في مثل هذه الظروف بان

يتذرع بمثل هذه الحجة . وفتح « الن » الوجاق وبصق على الجمر وعلق قائلا :

ـ ان بيت المصاب يبدو موحشاً جداً في البداية .

وشعر بات بامتنان نحوه على الرغم من ان تلك الملاحظة لم تكن اكثر من هفوة اجتماعية وقال كمن يجزي الجميل بالجميل:

ـ احتاج لبعض التبغ ولبعض الخرطوش يا سيد « الن » .

غير بات طريقة حياته بعد ذلك واخذ ينشد متعمداً الاختلاط بالناس ، ففي النهار كان يعمل في مزرعته وفي الليل كان يمكن للمرء ان يجده حيثما يجتمع رجلان او ثلاثة . وعندما كانت تقام حفلة في باحة المدرسة كان يأتي باكراً ويمكث حتى يرحل آخر مدعو . وفي اوقات الانتخابات يبقى على الصناديق حتى تقفل ، وحيثما انعقد جمع من الناس كان بات يحرص على ان ينضم اليهم ، ومن كثرة اختلاطه بالجموع انمى في نفسه شبه غريزة كانت تمكنه من اكتشاف المثيرات القديرة على اجتذاب الجموع .

كان بات رجلا عاديا كبير الانف عريض الفكين وكان كثير الشبه بلنكولن في شبابه وكان ذا منخرين كبيرين واذنين مكتظتين بالشعر كما لو كانت تختبىء فيهما حيوانات صغيرة من ذوات الفراء. كان بات مقلا في حديثه وكان يعرف ان وضعه في الاجتماعات ليس في العير أو النفير فكان يحاول ان يعوض عن هذا النقص بالعمل وترتيب الاشياء، فكان يحب ان يعين في اللجان المعهود اليها تهيئة حفلات المدرسة الراقصة ،

اذ سيكون بوسعه ان يزور اعضاء اللجنة لبحث خطط ، وان يصرف امسياته في تزيين المدرسة او جمع الكراسي والاطباق من هذه العائلة او تلك .

واذا لم يجد في احدى الامسيات اجتماعاً ينضم اليه كان يقود شاحنة الفورد الى « ساليناس » ليحضر فيلمين سينمائيين ، فلم يمض بات ليلة ثالثة مطلقاً في بيته المغلق بعد تلكما الليلتين المليئتين بالوحدة المرعبة ، فذكرى الكتاب المقدس والكراسي التي تنتظره والروائح المقيمة منذ سنين كانت تبعث في نفسه الفزع .

وظل بات همبرت عشرة اعوام يطوف بالوادي ناشداً الصحبة وانتخب عضواً في مجلس ادارة المدرسة وانضم الى « الماسونيين » و « الاتباع الفرديين » في ساليناس ولم يعرف عنه انه تغيب عن اي اجتماع قط .

وبالرغم من توقه الى المخالطة فانه لم يصبح جزءاً من اية جماعة انضم اليها ، اذ يكاد يقف دائماً على الهامش ، لا يتكلم الا اذا وجه اليه الحديث ، وكان اهل الوادي يعتبرون وجوده حتمياً لا يمكن تجنبه . وكانوا يستغلونه دون رحمة وهم يكادون لا يعلمون انه لا يتمنى شيئاً اكثر من ذلك ، وعندما تنتهي الاجتماعات ويقسر بات على العودة الى بيته يقود سيارته الى الحظيرة ويندفع الى سريره .

ولقد حاول بقليل من النجاح ان ينسى الغرف المريعة وراء الباب وكانت صورة تلك الغرف تلتصق بذهنه بعض

الأحيان . فيتمثل الغبار وقد تكاثف واعشاش العناكب وقد غطت كل زاوية من البيت وانتشرت على كل قطع الاثاث ، وعندما كانت هذه الخيالات تقتحم متاريس نفسه وتقوضها قبل ان يستطيع النوم كان يرتجف في فراشه . ولما كان بات قد كره بيته الى ذلك القدرفانه قد اهمله كل الاهمال .

وكانت تجاور البيت شجيرة من ورد البانكسيا الابيض ظلت سنوات مجرد خميلة صغيرة ذاوية ولكن الحياة دبت فيها فجأة فتسلقت باغصانها واجهة البيت وغطت البوابة وتعلقت بالشبابيك المغلقة وفي خلال عشر سنوات بدا البيت اكمة ضخمة من ورود البانكسيا البيضاء وكان المارة يتوقفون ليتعجبوا من ضخامتها وجمالها .

كان بات يرفض ان يفكر في البيت كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

اما مزرعته فكانت جيدة اذ كان ما يعتني بها كثير وتدر عليه الربح . ولما كانت مصاريفه قليلة فقد ادخر بضعة آلاف من الدولارات في المصرف . اجل لقد احب مزرعته لذاتها واحبها لانها تطرد الخوف من نفسه ابان النهار، اذ كان ينسى اثناء عمله رهبة العزلة والوحدة الكئيبة . كان يزرع الاشجار الشهية الثمرات ولكن معظم اهتمامه انصب على زراعة التوت وكانت صفوف شجيرات الكرمة المعلقة تظلل طرق المزرعة من الجانبين واقد استطاع بات دائمـــاً ان يصرّف كل عام محصوله من التوت قبل اي انسان في الوادي .

عندما اتى آل مونرو الى الوادي كان بات في الاربعين من عمره . وقد رحب بهم كثيرا كجيران ، فهذا بيت جديد بامكانه ان يصرف فيه امسياته ، ولما كان برت مونرو رجلا بشوشاً فقد احب ان يتردد بات عليهم فقد كان مزارعــاً ماهراً وغالباً ما استشاره بيرت في امور الزراعة، على ان بات لم ينتبه الى وجود ماي مونرو الا ليرى انهـــا فتاة جميلة ثم لينساها اذ لم يتعود ان يتطلع الى الناس كافراد بل كترياق ضد سجن وحدته وكمهرب من الاشباح الحبيسة .

وذات اصيل في مطلع الصيف كان بات يعمل في كرم التوت والمليق وقد انحنى يحفر بــين جذور شجيرات المليق التي كانت تنمو بسرعة في تلك الايام واوراقها تحلو وتخضر .

كان بات يعمل ببطء عبر صفوف شجيرات الكرم وكان راضياً عن عمله فلم يخش مجيء المساء لانه كان مدعواً لتناول العشاء عند آل مونرو .

واذ كان يعمل سمع اصواتا تتناهى اليه من الطريق ومع انه كان محجوبا بين الشجيرات فقد عرف من رنين الاصوات ان السيدة مونرو وابنتها ماي تمران بجوار منزله .

وفجأة سمع ماي تصيح باعجاب :

ــ ماما . . . تطلعي الى هذه . . . أرأيت في حياتك مثل هذه الخميلة الجميلة ؟

فأجابتها امها :

ــ اجل . . انها رائعة !

واستطردت ماي :

ـ لقد تبادر الى ذهني في التو بماذا تذكرني.. هل تذكرين تلك البطاقة البريدية التي تحمل صورة بيت بديع من بيوت ... ولاية فيرمونت ؟ انها البطاقة التي ارسلها العم كيلر وان هذا البيت بالخميلة المخيمة عليه يشبه بيت الصورة وكم اهوى ان ارى داخله .

ـ ولكن ليس من امل كبير في ذلك . . ان السيدة آلن تقول ان ما من احد من اهل الوادي قد دخل البيت منذ ان توفي والد بات ووالدته وكان ذلك منذ عشر سنوات ، على ان السيدة آلن لم تقل اذا كان داخل البيت بديعا .

ـ لا بد ان يكون باطنه بديعاً كخارجه الذي تزينه مثل هذه الخميلة وانني لاعجب اذا كان السيد هبرت سيدعني اراه يوماً ما .

وما لبثنا ان ابتعدتا عن مدى السمع ولمـــا توارتا عن الانظار نهض بات وتطلع الى الخميلة العظيمة اذ انه لم ير قبلا كم كانت جميلة ـ بساط من الاوراق الخضراء موشى بالورود البيضاء ـ وقال لنفسه :

ـ انه بديع . . وانه ليشبه بيتاً جميلا في فيرمونت . . انه كبيت من بيوت فيرمونت . . ثم . . ثم انها لخميلة بديعة .

وما لبثت ان تراءت له صورة الردهة الكريهة كما لو كان يرى داخل البيت عبر الخميلة والجدار فعاد بسرعة الى عمله بين شجيرات التوت والعليق محاولا جهده ان يبعد صورة البيت

عن ذهنه .

ولكن كلمات ماي عادت تتردد في ذهنه من جديد « لا بد ان داخله بديع » .

وتساءل بات كيف تبدو بيوت فيرمونت من الداخل، انه يعرف بيت جون هوايتسايد الفخم المتين كما يعرف بقية بيوت سكان الوادي ، ولقد اعجب كذلك بخمائل الزهور في حديقة بيت بيرت مونرو ولكن عينيه لم تقعا قطعا على بيت بديع.. اي على بيت يمكن ان يدعوه حقاً بيتا بديعا ..

وراجع في ذهنه صور بيوت عرفها فلم ير بينها البيت الذي لا بد ان تكون ماي قد عنته . . وتذكر صورة رآها في مجلة . . صورة غرفة ذات ارض مصقولة واثاث خشبي ابيض ولا بد انها صورة ردهة من ردهات بيت في فيرمونت . . . لقد اعجب بتلك الصورة ولا بد انها كانت تلك التي عنتهـــا ماي .

تمنى لو استطاع ان يرى البطاقة البريدية التي تحمل صورة بيت فيرمونت ولكنه خشي ان يعلم آل مونرو او يعرفوا بانه كان يسترق السمع الى حديث السيدة مونرو وابنتها اذا طلب ان يرى البطاقة .

واذ كان يفكر بالامر اصبح مهووسا بالرغبة في رؤية بيت بديع يشبه بيته فوضع رفشه جانباً وسار امام منزله .

حقيقة ان الخميلة رائعة مدهشة انهـــا تسدل خيمة خضراء تظلل المصطبة كما تظلل النوافذ المغلقة بوشاح من النجوم

البيضاء .. وعجب بات كيف انه لم يلحظ ذلك قبلا .

وفي تلك الليلة فعل شيئاً ما كان ليستطيع حتى ان يفكر بعمله ، فقد توجه الى بيت آل مونرو واعتذر عن عدم استطاعته قضاء السهرة عندهم مبرراً ذلك بقوله :

ـ ان لدي بعض الاشغال التي تقتضي ذهابي الى سالييناس وسأتعرض لخسارة مالية اذا لم اذهب فوراً .

وعندما وصل الى سالييناس توجه فوراً الى المكتبة العامة وسأل صاحبها :

ـ هل لديكم اية صورة عـــن بيوت فيرمونت . . صور البيوت البديعة ؟

ـ ربما تجد بعضها في المجلات . . تعال فسأريك اين تبحث عنها .

ولقد اضطر موظفو المكتبة الى تنبيهه عندما كانوا عـــلى وشك اغلاقها اذ انه استغرق في البحث استغراقاً انساه نفسه . ولقد وجد صوراً تمثل دواخل البيوت لم يتصور وجود مثلها اطلاقاً . . كانت الغرف مبنية حسب خطة تجميلية فكل قطعة زينة وكل قطعة اثاث بل حتى الارضيات والجدران كانت وفق الخطة تؤلف وحدة منسجمة فيما بينهـــا ولقد تجاوب في اعماقه مع الصور فهم غريزي عميق للترتيب والالوان والخطوط.

لم يكن يعلم ان الغرف يمكن ان تكون كهذه ، أي ان تؤلف وحدة متكاملة ، فكل غرفة سبق له ان رآها في اثاثها حصيلة التجميع العرضي والتدريجي ، لقد اثثت الغرف التي

يعرفها على هذا الشكل: العمة صوفي بعثت لهم بزهرية واشترى ابوه كرسياً ووضع اهله موقداً الطبخ مكان المدفأة لانه يبث دفئاً اكثر من دفئها واصدرت شركة دقيق سبيري تقويماً كبيراً فعلقت امه صورة التقويم في اطار .

اما في صور الغرف التي رآها فان هناك فكرة وراء ترتيبها وتأثيثها ، فكل ما في الغرفة جزء من تلك الفكرة .

وقبيل ان تغلق المكتبة ابوابها وقع على صورتين متجاورتين احداهما تمثل غرفة من الغرف التي يعرفها والثانية تمثل الغرفة ذاتها وقد زالت عنها الخبطة واثثت بشكل ينم عن فكرة وعن مخطط فلم تعد تشبه ابدا ما كانت عليه قبلا .

وللمرة الاولى في حياته تشوق بات الى الذهاب الى البيت فقد اراد ان يضطجع في سريره وان يفكر ، ذلك ان فكرة غريبة جديدة بدأت تتكون في اعماق ذهنه .

لم يستطع بات الى النوم سبيلا تلك الليلة فقد كان رأسه مزدحماً اكثر مما يجب بالمخططات والخرائط ، ولقد نهض مرة واشعل المصباح ليتفحص دفتر رصيده المصرفي .

وقبيل ان يطل ضوء الصبـــاح لبس ثيابه واعد فطوره واخذت عيناه تجوبان اطراف الغرفة حتى تقعا عـــلى الباب الموصود .

ولقد برقت عيناه ببريق غبطة خبيثة اذ قال لنفسه :

- سيكون داخل البيت مظلماً فالاحسن ان افتح النوافذ على مصاريعها قبل ان الج اليها .

وعندما بزغ ضوء النهار اخيرا تناول عتلة ودار حول البيت يفتح مصاريع النوافذ المسمرة الا انه لم يمس نوافذ الردهة لانه لم يرد ان يؤذي الخيلة ، وعاد اخيرا الى المطبخ ووقف امام الباب الموصد وللحظة اوقفته ذكرى الرؤيا القـــديمة فجادل نفسه قائلا :

ـ انها لن تستمر اكثر من لحظة اذ سأباشر بتمزيقهـــا في الحـــال .

وهوى بالعتلة على القفل فحطمه وترامى الباب مفتوحاً وهو يصر على مصراعيـــه الصدئين صريرا كريهاً فتكشفت الغرفة الرهيبة امامه . كان جوها معكرا باعشاش العناكب وهبت عبر الباب رائحة قديمة نتنة ورأى الكرسيين المزازين على جانبي الموقد الصديء ولقد اســـتطاع ان يرى عبر الغبار الفجوات الصغيرة في اوسدة الكرسيين ولكن هـــذه الاشياء لم تكن اشياءه الرهيبة فقد كان يعرف موضع مركز مخاوفه .

اندفع بسرعة عبر الغرفة مزيحاً اعشاش العنكبوت من امام عينيه وهو يسير .

كانت الردهة لم تزل مظلمة لان مصاريع نوافذها كانت مغلقة ولكن بات ما احتاج الى ان يتحسس مكان الطاولة فهو يعرف مكانها بالضبط . أفلم يركبه خيالها طيلة عشرة اعوام ؟

وما لبث ان رفع الطاولة والكتاب المقدس معا واندفع عبر المطبخ ليرمي بهما الى الباحة .

اما وقد فعل ذلك فقد شعر بانه يستطيع ان يمضي فيما اعتزمه

بسرعة اقل فلقد ذهب الرعب .

ولما كانت نوافذ الردهة محكمة الاقفال فانه اضطر الى استخدام العارضة الحديدية لفتح مصاريعها وليرمي بالاثاث الى الباحة ووقعت القرعة اولا عـــلى الكرسيين الهزازين فانحدرا وتدحرجا وقفزا عندما اصطدما بالارض وتلتهما الصور وقطع الزينة والعصافير المصبرة وعندما تكومت قطع الاثاث والثياب والبسط والمزهريات تحت النوافذ ، مزق بات السجادات وقذف بها الى الخارج ايضاً . واخيرا احضر سطولا من الماء وطرش بعناية الحيطان والزوايا .

ولّد ذلك العمل لذة عظمى في نفسه ، حتى لقد حاول ان يكسر ارجل الكراسي عندما كان يقذف بها من النافذة وبينما كان الماء ينبث في ثنايا ورق الجدران القاتم القديم ، جمع الاثاث كله من تحت النوافذ في كومة واضرم فيها النار واخذت الادوات البيتية القديمة العفنة والقطع الخشبية المدهونة تحترق دونما دخان وترسل رشات كريهة من الغبار والرطوبة ولم يتصاعد اللهيب من الكومة الا بعد ان صب عليها تنكة من الكاز وقرقعت الطاولة والكراسي اذ كانت تطلق الى النار « الاشباح » التي تكمن فيهـــا ، بينما وقف بات يرقب الكومة بغبطة .

وصاح يخاطب قطع الاثاث المحترقة :

ـ بودك لو بقيت سنوات وسنوات اليس كذلك ؟ لقد ظننت بانني لن استجمع شجاعتي مطلقـــاً لاحرقك . . كم

اتمنى لو تكوني على كثب لترى ما سأفعله باسقط المتاع المنكر الكريه .

احترقت السجاجيد الخضراء احتراقاً متوهجاً وخلقت جمراً متوهجاً وتهشمت الاواني والجرار والمزهريات القديمة وتناثرت قطعاً صغيرة بفعل الحرارة واستطاع بات ان يميز ازيز سوائل المنتول والادوية المسكنة وهي تغلي وتفور في النار .

لقد شعر بانه يشرف على عدو له يلفظ انفاسه، فلم يترك الكومة الا بعد ان اكتمل احتراقها وتحولت الى جمر مبعثر . وكانت حيطان الردهة قد تشبعت الآن بالماء بحيث ان ورق الجدران بدأ ينقلع ويتساقط في شرطان طويلة عريضة .

وبعد ظهيرة ذلك اليوم قاد بات سيارته الى ماليناس واشترى جميع ما استطاع ان يجده من المجلات التي تبحث في زخرفة البيوت . وفي المساء ، بعد العشاء ، بدأ يقلب صفحاتها بامعان وفي النهاية وجد في احدى المجلات صورة الغرفة البالغة الكمال .

لقد كان له اعتراض ما على بعض صور الغرف الاخرى اما هذه فلم يكن له عليها اي اعتراض بالاضافة الى ان باستطاعته ان يقيم مثلها بسهولة تامة ، فبتمزيق الحد الفاصل ما بين غرفتي الجلوس والاستقبال يمكنه ان يحصل على غرفة طولها ثلاثون قدماً وعرضها خمسة عشر قدما . اما النوافذ فيجب ان تعرض وان توسع المدفأة وان تنعم ارض الغرفة ثم تدهن وتلمع . كان بات يعلم بان في مقدوره عمل كل هذه الاشياء، اذ ان يديه

كانتا تتحرقان الى العمل فقال لنفسه :

« غدا سأبدأ . »

ثم استوقفه خاطر آخر .

« انها تظن ان الغرفة جميلة ولكني لا استطيع احاطتها علماً بانني سأعملها الآن . اذ انها ستعرف عندئذ بانني سمعتها تتكلم عن بيت فيرمونت . ليس باستطاعتي ان اعلم الناس انني افعل ذلك ، اذ انهم سيتساءلون لماذا افعله ? على ان هذا ليس من شأنهم . انني لست ملزما بأن ادور لاخبر الناس عن ذلك فلي اسبابي الخاصة . »

ووجه بات لنفسه ضحكة رقيقة وقال :

« بعون الله سأقوم بالعمل ليلا . »

لقد سرته فكرة تغيير بيته بهذه السرية ، ذلك ان باستطاعته ان يعمل هنا لوحده دون ان يشعر به احد ، وعندما ينتهي فانه سيدعو بعض الناس ويتظاهر امامهم بان بيته كان دائماً كما يرون . اذ لا يستطيع احد ان يتذكر كيف كانت الغرفة قبل عشرة اعوام .

وهكذا نظم حياته على الطريقة التالية :

في النهار كان يعمل بالمزرعة وفي الليل يهرع الى البيت يملؤه شعور بالغبطة والسرور . وكانت صورة الغرفة الكاملة معلقة في المطبخ وكان بات ينظر اليها اكثر من عشرين مرة في اليوم . وعندما كان يبني قاعدة النوافذ واضعا الورق الرمادي عليها وهو يطلي بالمينا قطع الاثاث الخشبية كان

يستطيع ان يرى صورة الغرفة وقد اكتملت . وعندما كان يحتاج الى مواد كان يقود سيارته الى ساليناس في وقت متأخر من المساء ويعود بالمواد اللازمة بعد ان يرخي الليل سدوله . وكان يواصل عمله حتى منتصف الليل ويذهب الى سريره مبهور الانفاس من السعادة .

افتقده سكان الوادي في اجتماعاتهم . ولما سألوه في المخزن عن سبب تغيبه كان العذر جاهزاً على لسانه فقد قال :

ـ انني اتلقى بعض الدروس بالمراسلة . وانا امضي الليـــل بالدراسة .

وكان القوم يقابلون ذلك بابتسام فانهم يعلمون ان الوحدة هي اثقل مما يطيق الرجل وان الشذوذ ينتاب ان عاجلا ام آجلا العازبين في المزارع .

ـ ماذا تدرس يا بات ؟

ـ آه . ماذا ؟ آه ... انني اتلقى بعض الدروس في البناء .

ـ يجب عليك ان تتزوج يا بات ، فانك تتقدم في العمر .

وكان بات يتضرج غضبا ويقول :

ـ لا تكن سخيفا يا هذا .

واذ كان يعمل في الغرفة فانه يؤلف تمثيلية صغيرة تدور على النحو التالي :

انتهت الغرفة ووضع الاثاث في مكانه ، النار تحترق متوهجة والمصابيح تلقى بانعكاسات غائمة على ارض الغرفة المصقولة وعلى الاثاث المتلألىء . سأذهب الى بيتها وسأفاجئها بالقول :

«سمعت انك تحبين بيوت فيرمونت ؟ لا . . لا استطيع ان اقول ذلك بل سأقول هل تحبين بيوت فيرمونت ، حسنا فان لدي غرفة من نوع غرف فيرمونت . »

ولكن هذه التمهيدات لم ترضه تماما فانه لم يهتد الى الطريقة المثلى لاغرائها بالمجيء الى بيته . فانتهى الى شطب هذا الجزء على ان يعود الى التفكير بامره بعد ذلك .

«انها تدخل الآن المطبخ،وان يتغير المطبخ لان من شأن ذلك ان يجعل الغرفة بمثابة مفاجأة اعظم. انها ستقف امام الباب وسيصل هو الى جانبها ويفتحه على مصراعيه وها هي الغرفة مظلمة الى حد ما ولكنها مليئة بالانوار القاتمة والنيران تتوهج كجدول عريض وتنعكس المصابيح على ارضها،والاواني القصديرية تتوهج توهجـــا مع مختلف قطع الزينة مما يبعث الشعور بالدفء والراحة . »

وكان صدر بات يمتلىء بالسعادة والانشراح اذ تراوحـــه هذه التصورات .

«على كل حال انها تقف الآن على الباب ماذا ستقول ؟ لو انها احست بمثل ما يحس فانها لن تقول شيئا.وقد تشعر بميل الى الصياح ، ذلك الشعور الكامل الذي ينتاب الانسان فيجعله كمن يوشك ان يصيح، ربما قد تقف ادقيقة او دقيقتين مكتفية بالتطلع . حينئذ سيقول بات :

ـ الا تودين ان تدخلي وان تستريحي قليلا ؟

وبالطبع فان ذلك سيزيل تأثير السحر .

وهكذا ستبدأ بالكلام عن الغرفة بعبارات مضحكة متقطعة ولكن بات سيتغاضى عن ذلك كله .

ـ نعم انني دوما احببت هذه الردهة .

كان يقول هذه العبارات بصوت مرتفع اثناء عمله .

ـ لقد خطر على بالي ذات يوم بانك قد تحبين ان تريها . »

وجعل بات للتمثيلية الخاتمة التالية :

« تجلس ماي على الكرسي المائل الظهر امـــام النار وتضع يديها الجميلتين الريانتين في حضنها واذ تكون جالسة هناك تحل في عينيها نظرة شاردة . . »

لم يتعد بات الى ابعد من ذلك، اذ انه في تلك النقطة كان يعود الى وعيه . فانه اذا تعدى ذلك ، سيكون كمن يتلصص من النافذة على اثنين يريدان ان ينفردا . فاللحظة الحاسمـــة المكهربة في كل هذه المسرحية هي اللحظة التي يفتح فيها الباب على مصراعيه وعندما تقف على عتبته وقد سلبها جمال الغرفة .

وفي نهاية الاشهر الثلاثة كانت الغرفة قد انتهت ووضع بات صورة المجلة في محفظته وذهب الى سان فرنسيسكو . وفي مكتب الاثاث نثر الصورة على المنضدة وقال :

ـ اريد اثاثا كهذا .

ـ انك لا تعني بالطبع اثاثا اصيلا « اوريجينال »

ـ ماذا تعني بالاثاث الاصيل .

ـ القطع الاثرية القديمة التي لا تستطيع الحصول عليها باقل من ثلاثين الف دولار .

واستغط في يد بات.وبدا له كأن غرفته قد تقوضت وقال:
ـ آه . . . لم اكن اعلم .
ولكن المدير طمأنه قائلا :
ـ اننـــا نستطيع ان نزودك بنسخ جيدة من كل شيء
موجود هنا .
ـ هذا جميل . . كم ستكلف النسخ المنقولة ؟
ـ ونودي على ممثل المبيعات واحصى الرجال الثلاثة الادوات
الموجودة في الصورة ووضع المدير لائحة بها الطاولة والكراسي،
السجاجيد ، المصابيح والشمعدانات وغير ذلك من الادوات
التزيينية .
ـ حسنا انها ستكلف زهاء ثلاثة آلاف دولار يا مستر
همبرت .
واطرق بات مفكراً لماذا بعد هذا يجب ان يقتصد في نقوده؟
ثم سأل المدير :
ـ متى سيكون باستطاعتك ارسالها ؟
وبينما كان ينتظر اشعاراً بان الاثاث قد وصل الى ساليناس
قام بات بمسح ارض الغرفة حتى بدأت تلمع كبحيرة ساكنة .
وكان يعود الى ارض الغرفة ليمسح عنها آثار اقدامه الباهتة .
واخيرا وصلت قطع الاثاث الى مخزن الشحن ، فاقتضاه امر
نقلها الى اربع رحلات قام بها سراً الى ساليناس في الليل وفي
جو يشبه جو المؤامرات .
فك بات صناديق الاثاث في حظيرة المزرعة وحمل الكراسي

والطاولات ورتبها في اماكنها المحددة بعد ان تطلع مرات كثيرة الى الصورة. وفي تلك الليلة كانت النار تشتعل والمصابيح تعكس ضوءها على الارض وبدا النمر المنسوج على البساط المعلق فوق المدفأة كمن يرتعد في ضوء اللهب المتراقص .

ذهب بات الى المطبخ واقفل الباب ، ثم بمنتهى البطء فتحه ثانية وطفق يتطلع الى الغرفة التي كانت تشع بالدفء . . . وبدت الاواني القصديرية المتلألئة افخم مما كان يظن بينما كانت اطراف الاطباق المصفوفة في الخزانة المكشوفة تعكس نجيمات من النور وللحظة وقف بات عند مدخل الباب يحاول ان يكسب صوته الرنة الملائمة .

« انني احببتها دائماً . »

قالها بات باقصى البداهة واردف :

« لقد خطر على بالي بانك قد تحبين ان تريها . » .

ثم اطرق وتوقف فقد الم به خاطر مفزع .

« اوه انها لا تستطيع ان تأتي بمفردها . ان الفتـــاة لا تستطيع ان تأتي الى بيت رجل عزب في الليل . فستلوكها ألسنة الناس ، أضف الى هذا انها لن تفعل ذلك . »

واصيب بخيبة امل مريرة .

« يجب ان تأتي امها معها ولكن قد لا تعرقل الامر اذ تستطيع ان تقف في الخلف بشكل يبعدها عن عرقلة الخطة المرسومة . »

« اما وقد اصبح مستعدا للامر فان شعوراً قوياً بالمضض

قد اوقفه ، فكان المساء يطوي المساء وهو يرجيء دعوتهـــا الحضور ، على انه استمر في اكمال تمثيليته حتى ثبت في وعيه اين ستقف والى اين ستتطلع وما الذي ستقوله ، بل اعد في ذهنه ما يحتمل ان يصدر عنها من اقوال غير تلك التي حددها لها في تمثيليته .

وانقضى اسبوع وهو لا يزال يرجيء القيـــام بالزيارة التي ستؤدي بها الى المجيء لرؤية غرفته .

وذات اصيل ، استجمع شجاعته ودعمها بارادته قائلا لنفسه :

« انني لا استطيع ان ارجيء الامر الى الابد فالافضل ان اذهب الليلة » .

وبعد العشاء لبس احسن ما عنده وطفق يسير الى بيت مونرو الذي لم يكن يبعد عنه اكثر من ربع ميل . انه لن يدعوها هذه الليلة ، فهو يريد ان تكون النار مشتعلة والمصابيح منيرة عند قدومها بينما الليلة هذه باردة والظلام حالك . ومشى بات طريقه وسط الغبار وتصور باستياء كيف سيبدو حذاؤه المصقول .

كان بيت مونرو يشع باضواء كثيرة . وامام البوابة وقفت سيارات عديدة فتساءل بات :

« اهي حفلة راقصة . اذن سأدعوها في ليلة اخرى اذ انني لا استطيع ذلك في حضرة اناس كثيرين »

وللحظة ساورته نفسه بالرجوع :

« قد يبدو الامر سخيفاً اذا دعوتهـــا في اول مرة اراها

فيها بعد مرور عدة شهور فلقد يتطرق اليها الشك ،

وعنـــدما دلف الى البيت امسكه برت مونرو من يده هاتفاً :

ـ انه بات همبرت . اين كنت مختفياً يا بات ؟

ـ كنت ادرس ليلا .

ـ انه لمن حسن حظنا انك اتيت فانني كنت ازمع ان امر بك غدا . لا شك انك سمعت الانباء بالطبع .

ـ اي انباء ؟

ـ ماذا ! ماي وبل هوايتســـايد سيتزوجان يوم السبت المقبل . وكنت انوي ان اسألك المساعدة في حفلة الزفاف . انها ستقتصر على الاهلين وتقديم المرطبات . لقد درجت على المساعدة في الحفلات المدرسية كل مرة قبل ان تباشر درسك .

وأمسك بذراع بات وحاول ان يقوده الى القـــاعة حيث كانت تنطلق اصوات كثيرة من الغرفة الكائنـــة في نهايتها .

فقاومه بات بحزم وقال :

ـ ان ذلك رائع يا مستر مونرو . هل قلت يوم السبت المقبل؟ بالطبع تسعدني مساعدتكم. ولكنني لن استطيع البقاء الآن . فيجب ان اهرع الى المخزن حالا .

وصافحه ثانية وسار يمشي الهوينا متجهاً نحو الباب .

وفي غمرة شقائه وتعاسته ود لو يختفي لبرهـــة ، أو يلجأ الى حجر مظلم بحيث لا يراه احد . وكان طريقه بالطبع

باتجاه بيته . ذلك البيت المظلم الذي كان قد تركه مقفرا كئيباً فراح الى مستودع الغلال وصعد بخطوات وئيدة السلم القصير واضطجع على التبن وقد تقلص ذهنه واجدب بفعل خيبة الامل وشعر بانه قبل كل شيء لا يرغب في ان يدخل الى بيته فلقد خشي ان يقفل البـــاب مرة اخرى وان يتيح بذلك لروحين مدهوشتين . . روحي والديه . . ان تسكنا في التالي من السنين في الغرفة الجميلة وفي المطبخ . وعرف بات انه لن يحتمل نظرتها وهما يحدقان بالنار !

عندما وصل ريتشارد هوايتسايد الى الغرب الاقصى تبصر في امـــال التنقيب عن الذهب وتخلى عن اتخاذها هدفاً لسعيه قائلا :

ـ ان الارض لا تعطي الا محصولا واحدا من الذهب اذا اقتسمه الف من المؤاجرين فانه لن يعيل احدامنهم زمناً طويلا فالامر والحالة هذه تجارة خاسرة .



طاف ريتشارد هضاب كاليفورنيا وسهولها وفي مخيلته عزم اكيد على تأسيس بيت لاولاد لم يأتوا بعـــد

ولاحفاد لا يزالون في عالم الغيب بينا لم يكن وقتئذ الا قليل من الناس في كاليفورنيا يشعرون بمسؤولية تجاه ذريتهم .

وفي مساء يوم صافي الاديم قاد عربته بجواديها الكميتي اللون الى اعالي الهضاب المحيطة بحقول الفردوس فأوقف عربته واخذ يجيل الطرف في الوادي الاخضر ، وهنا عرف ريتشارد انه وجد بيته المنشود . لقد مر اثناء تجواله ، في شتى انحاء البلاد ، بالكثير من البقاع الجميلة دون ان تبعث اي منها في نفسه هذا الشعور بكمالها . تذكر المستعمرين في اثينا ومكدونيا وهم يبحثون عن اراض جديدة وصفتها لهم النبوءات الغامضة وتخيل افراد شعب الازتيك يتهادون وراء نسرهم المادي فحدث نفسه قائلا :

ـ ليت ثمة ما يشير بان الامر سيبلغ حد الكمال بذلك فانا واثق من ان هذا هو المكان الذي انشد ولكني اود لو يكون ثمة بشير اذكره واحدث اولادي عنه !

ورفع بصره الى السماء فرآها خالية من الغيوم والطيور . وهبت نسمات المساء العليلة على الهضاب فارتجفت اغصان السنديان وكأنها تشير بحذر الى الوادي بينا حمل اعصار صغير على سفح الهضبة ، بضعة من اوراق الشجر وتقاذفها الى الامام فضحك ريتشارد قائلا :

ـ ها قد وصلني الجواب . فمدن عظيمة كثيرة تأسست بايماءة من الآلهة ليست اكثر وضوحاً من هذه .

وبعد برهة قصيرة ترجل من العربة وحل جواديه اللذين

توجها لتوهما بخطى وئيـــدة الى العشب الكثيف النابت على حافتي الطريق فتناول ريتشارد عشاء من لحم الخنزير البـــارد والخبز ثم بسط ملاءاته «حراماته» فوق العشب على سفح التلة . واذ تكاثف ظلام الغسق الاغبر في الوادي استلقى على فراشه يحدق بحقول الفردوس التي ستصبح موطنه. لقد وقع اختياره، في الجهة القصوى قرب حرش من السنديان ، على بقعة جميلة تقوم خلفها هضبة صغيرة ينحدر على سفحها اخدود صغير لم يشك في انه ساقية . وكانت جيوش الليل تهزم مـــا تبقى من فلول الغسق الخافتة الضوء عندما حانت من ريتشارد التفاتة نحو الوادي فرأى بيتاً جميلا ابيض اللون تمتـــد امامه حديقة انيقة مزهرة ولمح البرج الابيض لخزان المياه في البيت . وكانت النوافذ تشع باضواء صفراء خافتة . . اضواء النواسات التي تهدي الضيوف وتدل عـــلى ان البيت مضياف . وانفتح باب المنزل فخرج منه جمع من الاولاد لا يقل عن الستة الى الشرفة فحدقوا في الظلام المتكاثف ووجهوا ابصارهم بنوع خاص الى التلة حيث كان ريتشارد مستلقياً على ملاءاته . وبعد برهة عادوا فدخلوا المنزل واغلقوا الباب خلفهم...ومع انغلاق الباب غاب البيت والحديقة وخزان القصدير الابيض من امام ريتشارد فتنهـــد بغبطة واستلقى على ظهره محدقاً بالنجوم المتراقصة في السماء .

ظل ريتشارد اسبوعاً يطوف بشراسة في انحاء الوادي ثم ابتاع مائتين وخمســين فدانا في حقول الفردوس وذهب الى

مونتيري لتسجيل صك ملكيتها وعندما تأكد من انها اصبحت ملكا له قام بزيارة مهندس معماري . واستغرقت اعمال بناء بيته وتأثيثه وحفر البئر وبناء برج الخزان ستة شهور كاملة . وظل العمال يعملون في مزرعة هوايتسايد طيلة السنة الاولى من امتلاكه للارض .

الا ان هذا الاجراء اقلق احد الجيران فقصد الى المالك الجديد قائلا :

ـ هل تنوي ، يا سيد هوايتسايد ان تأتي بامرتك ؟

فأجاب ريتشارد :

ـ ليس لي اسرة فوالداي قد توفيا وليس عندي زوجة !

ـ فلماذا بحق الجحيم تبني بيتاً كبيرا كهذا ؟

فتجهم وجه ريتشارد بالعبوس وهو يقول :

ـ سأعيش هنا فلقـــد جئت لابقى . وسيسكن اولادي واحفادي واولادهم في هذا البيت . كثيرون من آل هوايتسايد سيولدون هنا وسيموت الكثير منهم هنا . وسيبقى هذا البيت صالحاً قائماً مدة لا تقـــل عن الخمسمائة عام اذا ما اتي العناية اللازمة .

فقال الجار :

ـ فهمت ما تعني ويبدو الامر عظيما غير اننا لا نعيش هنا حسب هذه الطريقة فنحن نبني كوخاً صغيراً نضيف اليه البناء اذا غلّت الارض ربحاً فليس من المستحسن صرف الكثير من النقود في مكان واحد اذ قد تود الانتقال منه يوماً .

فصرخ ريتشارد :

ـ لا اريد الانتقال ولهذا تراني اقوي البناء ليحول دون ذلك . سأبني كيانا من القوة بحيث لن استطيع ولا ذريتي الانتقال . وزيادة في الحيطة فسأدفن هنا عندما اموت لانه يصعب على الناس ان يهجروا مدافن الاباء .

وانفرجت اسارير وجهه وهو يستطرد قائلا :

ـ الا ترى أيها الرجل ما اصنع؟ انني اؤسس سلالة جديدة! انني ابني عائلة ومقرا لعائلة لن يبقيا الى الازل ولكن سيبقيان عدة قرون على الاقل . يسرني ان اعرف ، وانا ابني هـــذا البيت ، ان ذريتي ستسير على ارضه ، وان اطفالا لم يولدوا بعد اجداد اجدادهم ، سيولدون فيه . سأزرع بذرة التقاليد مع البيت .

كانت عينا ريتشارد تلمعان وهو يتكلم واصوات مطارق النجارين ترافق كلماته وكأنها تبرز قوتها وتوقها .

اعتقد الجار انه يحـــدّث مجنونا ولكنه احس بنوع من الاجلال نحو هذا النوع من الجنون وود لو حياه بطريقة ما فلو لم يكن اميركياً لرفع اصابعه الى طرف قبعته . فقد كان لهذا الجار ابنان يحتطبان على بعد ثلاثمائة ميل من منزله وابنة متزوجة في ولاية نيفادا فشمل العـــائلة قد تفرق قبل أن يبدأ حقاً .

بنى ريتشـــارد بيته من الخشب الاحمر الذي لا يهترىء مقتبساً له طراز بيوت نيوانكلاند الجميلة . وكتحية لمناخ حقول

الفردوس احاط البناء كله بشرفة واسعة . وصنع السقف من الخشب مؤقتا اذ حالما وصلت الباخرة التي تنقل من بوسطن شحنة البلاط اللازم لبناء السقف المتين ، خلع ريتشارد الواح الخشب واستبدلها بالبلاط الشرقي ، فقد كان السقف اهمية رمزية كبرى عند ريتشارد هوايتسايد بينما كان قبلة انظار سكان الوادي وموضع تباهيهم ولذا فان هذا السقف جعل من ريتشارد ، اكثر من اي شيء آخر ، المواطن الاول في الوادي فالرجل قوي ثابت كينته لا ينوي ان يهرع الى أي منجم ذهبي جديد ولماذا يفعل وسقف بيته من البلاط؟ زد على ذلك فالرجل مثقف وخريج جامعة هارفرد وهو ثري ايضاً وله من الايمان ما جعله يبني بيتاً كبيراً فخما في الوادي . انه خليق بأن يحكم الارض فهو رب عائلة ومؤسسها وسقف بيته من البلاط . وبسبب سقف البلاط هذا زاد اعتبار حقول الفردوس في اعين الناس . ولو كان ريتشارد سياسيا تساوره الرغبة في الوجهة المحلية لكان بناء سقف بيته بالبلاط اعظم توفيق بنيلة مراده فقد كان يلمع تحت المطر المنهمر ويسطع كالمرآة تحت الشمس .

واخيرا تم بناء البيت وبدأ عاملان اجيران بشتل الاغراس وتهيئة الارض للبذور بينما كان قطيع صغير من الماشية يرعى العشب الاخضر على حافة التلة وراء البيت .

علم ريتشارد ان استعداداته قد اكتملت ولم يبق عليه سوى الزوجة . وعندما وصلته رسالة من صديق تربطه به قرابة بعيدة يقول فيها انه وصل مع زوجته وابنته الى سان فرانسيسكو

وانه سيسعده ان يراه ، ادرك انه ليس بحاجة لأن يبحث بعد ذلك عن الزوجة المنشودة فقد عرف قبـــل سفره الى سان فرانسيسكو انه سيتزوج تلك الابنة فهي ملائمة له تماما فالدم الذي يربط بينهما بعيد ولن يسيء الى نسلهما .

وبالرغم من انهما مرا بطور المعاشرة المألوف قبل الخطبة فقد سويت المسألة حال لقائهما ! كانت اليسيا سعيدة بأن تتخلص من سيطرة والدتها وبأن تبدأ امبراطورية منزلية خاصة بها . لقد شيد البيت من اجلها فلم يمض اربع وعشرون ساعة على وجودها فيه الا وكانت قد فرشت رفوف بيت المؤونة بالاوراق المخرمة ، تماما مثل الاوراق التي كانت والدة ريتشارد تستعملها في بيت مؤونتها كما يذكر .

ادارت اليسيا البيت بالطريقة القديمة المريحة التي لا تتغير بدورانها وتوقيتها ـ الغسيل يوم الاثنين والكوي الثلاثاء الخ ـ نفض السجاد مرتين في العام وتهيئة المربيات ورب البندورة والمخللات ووضعها في القبو كل خريف .

وسرعان ما ازدهرت المزرعة فازداد عدد الغنم والبقر ونمت سنويا الزهور والورود في الحديقـــة واشرفت اليسيا على ان تضع مولودها الاول .

كان ريتشارد يعلم ان كل هذا سيحدث فقد توطدت السلالة التي حلم بها ، واصطبغت مداخن البيت ببعض البقع السوداء وكانت المدفأة في غرفة الجلوس تملأ البيت من الدخان المتضوع برائحة خشب البجور اللذيذة بينما تحول لون غليونه الذي اهداه

اليه حموه من لون ابيض ناصع الى اصفر قاتم .

وعامل ريتشارد زوجته وهما بانتظار الطفل برفق كما يعامل المريض تقريباً. فعندما كانا يجلسان مساء امام المدفأة كان يلف قدميها بحرام . وكان اشد ما يخيفه هو ان يحدث لها مكروه اثناء الحمل وكانا يتكلمان عن الصورة التي يجب أن تتأملها اثناء وحامها لتؤثر في مظهر الجنين وهيأ لهـــا ريتشارد مفاجأة اذ ارسل الى سان فرانسيسكو يطلب نسخة برونزية صغيرة عن تحفة ميشال انجلو « داود » .

وعلا الاحمرار وجه اليسيا وهي ترى عرى التمثال ولكنها سرعان ما اولعت به فكانت تضعه على الطاولة الصغيرة قرب فراشها عند النوم ليلا اما خلال النهار فكانت تنقله معها من غرفة الى اخرى وهي تقوم بترتيبها وتضعه مســـاء على رف المدفأة في غرفة الجلوس . وكثيرا ما ابتسمت ابتسامة الالهة وهي تتأمل اعضاءه المتناسقة القوية فقد كانت واثقة من ان طفلها سيكون مثل « داود » تماما .

جلس ريتشارد قربها وهو يربت على يدها . كانت تحب أن تشعر بيده تمر فوق راحتها بثبات دون ان تدغدغها وحدثها بهدوء قائلا :

ـ لقد زالت اللعنة عنا . . اتعرفين يا اليسيا ان اهلي واهلك عاشوا في زمان مضى ضمن منزل واحد لمدة ١٣٠ عاما ؟ لقد اخبرني والدي ذات مرة ان ٧٣ طفلا ولدوا في ذلك البيت وان العائلة بقيت تنمو وتزداد حتى زمن جدي فقد كان والدي

طفلا وحيدا . وكنت انا ايضاً الطفل الوحيــد في العائلة بما سبب تعاسة والدي فتوفي في الستين من عمره . . ولما بلغت الخامسة والعشرين من عمري ، ولم اكن قد بدأت احيا ، احترق بيتنا الريفي دون ان ادري سبب نشوب النار فيه .

ووضع يدها برفق كما لو كانت حيوانا ضعيفاً ضئيلا على ساعد الكرسي ثم قام الى المدفأة واعاد جمرة كبيرة سقطت الى ارضها وامسك من جديد بيد زوجته . فتوجهت اليسيا بابتسامة ضئيلة الى تمثــال داود فوق حافة المدفأة بينما اكمل ريتشارد حديثه بصوت رقيق اجش كما لو كان يأتي عبر تلك الازمنة السحيقة .

وعلى مر السنين أصبح بامكان اليسيا ان تعرف من حركة رأسه وتعبير وجهه ورنة صوته انه سيتكلم عن الازمنة القديمة. فزمن هيرودوتس وكزينوفون وثوسيدايدس كانت من خصوصياته بينما كانت بالنسبة لاهل الغرب الجهــلاء جديدة وكأنه ابتدعها هو !

كان يعيد قراءة حروب الفرس وحرب طروادة وغيرها مرة في كل عام .

ومر بيده على راحة اليسيا بشيء اكثر من الحزم هــذه المرة وهو يقول :

ـ عندما كانت المصائب تتوالى على مدينة ما في الازمنة الغابرة كان اهل المدينة يعتقدون ان اللعنه حلت بهم او ان آلهة ما قد صبت جام غضبها فوقهم لذلك .كانوا يضعون كل

ممتلكاتهم المنقولة في السفن ويبحرون بحثاً عن مـــكان جديد ليشيدوا فيه مدينة جديدة لهم تاركين مدينتهم القديمة خاوية خالية مفتوحة لمن يريد ان يأخذها .

وقالت اليسيا مقاطعة :

ـ هلا اعطيتني التمثال يا ريتشارد فاني اشعر احيانا بميل لحمله بيدي .

وقفز ريتشـــارد فوضع التمثال في حضنها ثم استطرد يقول :

ـ اسمعي يا اليسيا . لم يولد في العائلة قبل ان يحترق البيت غير طفلين خلال جيلين . لذلك وضعت كل ممتلكاتي في سفينة وابحرت غربا لاؤسس بيتاً جديدا . انك تعرفين اني اضعت بيتاً استغرق بناؤه ١٣٠ سنة وما كان بوسعي ان اعوضه ، فقد كان بناء بيت جديد فوق تلك الارض القديمة جد مؤلم بالنسبة لي . وعندما رأيت هذا الوادي عرفت انه سيكون مقر العائلة الجديد . وها هي الاجيال تتكون لتطل علينا . انني جد سعيد يا اليسيا !

وضغطت بيدها على يده ، ممتنة لانها تمكنت من اسعاده . وفجأة قال لها :

ـ لا بل كان ثمة فأل عندما وصلت الوادي اول مرة . لقد سألت الآلهة اذ ذاك اذا ما كان هذا هو المكان المنشود واجابتني الآلهة على ذلك افليس الامر مدهشاً يا اليسيا ؟ هل احدثك الآن بقصة الفال وبقصة اول ليلة لي فوق التلة ؟

اجابت :

ـ اخبرني بها مساء الغد فمن الافضل ان آوي الى فراشي الآن .

انتصب واقفاً وساعدها على نزع الحرام من حول ركبتيها. فأرخت بثقلها على ذراعه بشدة وهو يعينها على صعود السلم ويحدثها :

ـ هنالك شيء روحاني خفي في هذا المنزل ، شيء مدهش حقاً يا اليسيا ، فهو الروح الجديدة ، روح هذا المولود الاول في الجيل الجديد .

وقالت اليسيا :

ـ سيكون الولد صورة عن التمثال الصغير.

ولما رتب ريتشارد الاغطية حولها خوفاً من ان تصاب بالبرد عاد الى غرفة الجلوس . كان بامكانه ان يسمع في مخيلته اصوات الاطفال تملأ البيت وهم يهبطون الدرج ويصعدون عليه متعثرين باقدامهم المتلاصقة يذرون رماد المدفأة وينادون بعضهم البعض فوق الشرفة . . وقبل ان يذهب ريتشارد الى فراشه حمل الكتب الثلاثة العظيمة ووضعها في اعلى رف من المكتبة .

كانت الولادة عسيرة استلقت بعدها اليسيا فوق فراشها منهكة وقد اصفر وجهها عندما حمل لها ريتشارد طفلها ووضعه قربها فقالت بغبطة :

ـ نعم ، انه يشبه التمثال . كنت اعرف ذلك حقاً وبالطبع سيكون اسمه داود .

جلس الطبيب القادم من مونتيوي قرب ريتشـــارد امام المدفأة وقد قطب جبينه بكآبة وهو يفتل خاتمه الماسوني حول بنصره بينما فتح ريتشارد زجاجة كونياك وملأ كأسين قائلا :

ـ سنشرب نخب ابني .

ورفع الطبيب الكأس الى انفه يشم المشروب ثم قال :

ـ مشروب عظيم . . ولكن الافضل لك ان تشرب نخب زوجتك .

ـ طبعاً .

وشربا معاً فاستطرد ريتشارد :

ـ النخب الثاني لابني .

ـ اجعله لزوجتك ايضاً .

فسأله ريتشارد متعجباً :

ـ لماذا ؟

فأجاب الطبيب وهو ما يزال يشم رائحة المشروب .

ـ افعله كنوع من الشكر والوفاء فقد كدت تترمل .

وبلع ريتشارد الكونياك بجرعة واحدة ثم قال :

ـ لم اكن اعلم بذلك . كنت اظن . . لم اعلم بحالتها . . كنت اعتقد بان الولادات الاولى هي دوماً صعبة .

قال الطبيب :

ـ اعطني قدحاً آخرا .

واستطرد :

ـ لن يكون لك مزيد من الاولاد .

وتوقف ريتشارد عن صب المشروب قائلا .

ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟ طبعاً سيكون لي المزيد من الاولاد .

ـ ليس من زوجتك هذه فانها قد انتهت . فإذا ما كان لك منها ولد آخر فستصبح ارمل .

وجمد ريتشارد في مكانه . لقد توقفت مناغاة الاطفال الرقيقة التي كان يسمعها تملأ ارجاء البيت خلال الشهر السابق وبدا لكن كان يسمع اقداماً تسترق الخطى بعيداً وهي تنزل الدرج .

وضحك الطبيب بمرارة قائلا :

ـ لمَ لا تسكر اذا كانت الصدمة شديدة عليك هكذا ؟

ـ لا . . لا اظن بان في وسعي ان اسكر .

ـ اذا اعطني قدحاً آخر قبل ان أذهب فالطريق بارد !

مضت ستة شهور قبل ان اخبر ريتشارد زوجته انها لن تتمكن من انجاب الاطفال . فقد ارادها ان تستعيد قواها قبل ان تصدم بالحقيقة . وعندما صارحها كان يشعر بالاثم من كتمه السر . كانت تحمل الطفل على حضنها وهي تنحني من وقت لآخر لتلتقط بفمها احدى اصابعه المرتفعة اليها . كان الطفل ينظر اليها ، مبتسماً بعينين شاردتين ويبتسم وريقه يشط وهو يمد اصابعه اليها لتمصها والشمس تملأ الغرفة وقد وصلت اليها من بعيد اصوات العمال وهم يشتمون البقر بصوت رتيب .

ورفعت اليسيا رأسها وقد عبست قليلا قائلة :

ـ الا تظن ان وقت معموديته قد حان ؟
فوافق قائلا :
ـ نعم وسأقوم بجميع الترتيبات في مونتيري .
وقالت مفكرة :
ـ اتظن بان الوقت قد فات كثيراً لتغيير اسمه ؟
ـ لا لم يفتنا الوقت ولكن لماذا تريدين تغيير الاسم ؟ وما تريدين تسميته ؟
ـ بودي لو دعوته جون فالاسم من العهد الجديد في الكتاب المقدس .
ونظرت اليه راجية موافقته وهي تستطرد :
ـ وهو كذلك اسم والدي الذي سيسر حتما لهذا الامر . كذلك فاني لم اكن مرتاحة تماماً لتسميته باسم التمثال وان كان تمثال داود الشاب. اجل لم ارتح لذلك خاصة وان التمثال عار من الثياب و ...
لم يحاول ريتشارد فهم منطقها هذا بل بدأ لهـــا اعترافه بسرهما ، وسرعان ما انتهى كلامه ، فلم يكن يفكر قط بان القضية ستقضى مثل هذا الوقت القليل .
كانت اليسيا تبتسم ابتسامة فريدة مبهمة احتار بتفسيرها فشعر انه مهما كان قد تمكن من معرفة زوجته واعماقها فستبقى هذه الابتسامة الحائرة نوعاً مبهما يستعصي فهمها عليه فقد كانت تخالطها مسحة من الحزن كما كانت مفعمة بحكمة خفية ، لقد شعر بان هذه الابتسامة حجبته عن النفاذ الى افكارها .

لقد اعتصمت اليسيا وراء هذه البسمة التي كادت ان تقول:
« يا لك من غبي . . انني اعرف من الاشياء الحليقة بان تجعل معرفتك تبدو مدعاة للسخرية اذا شئت ان اخبرك . »

ومد الطفل اصابعه الحانية نحو وجهها فامسكت بها نهزها قائلة :

ـ انتظر قليلا فالاطباء لا يعرفون كل شيء . انتظر قليلا يا ريتشارد وسننجب اطفالا آخرين .

خرج ريتشارد مـــن شرفة البيت وجلس فوق درجات البوابة . وشعر بالحياة تعود ثانية الى البيت بعد ان كان الهدوء والموت يخيمان عليه منذ دقائق فقط ! كان عليه ان يقوم بألف عمل ، عليه ان يقص السياج وان يزرع ساحة العشب وان يجهز مكانا لنشر الغسيل. ومر بيده فوق النهاية المكورة لحافة حاجز الدرج (الدرابزين) كما لو كانت رقبة حصان .

اصبحت اسرة هوايتسايد ، حالما استقرت تقريباً ، الاسرة الاولى في حقول الفردوس فقد كانت اسرة علم تملك مزرعة جيدة ، ورغم انها لم تكن ثرية فانها لم تكن معوزة ، وهي فوق كل ذلك تعيش براحة في منزل فخم كان رمز العائلة ، فهو فسيح ، فخم بالنسبة لتلك الايام ، دافيء مضياف ابيض ولقد زوده حجمه الكبير بقيمته المعنوية زد على ذلك دهانه الابيض اللماع الذي يجدد ويغسل في فترات متقاربة مما جعله يتسامى على باقي بيوت الوادي كما شمخت القلاع على قرى نهر الرين في العصور الوسطى .

اعجب اهل الوادي بالبيت واطمأنوا لوجوده بينهم فقـــد جسد لهم القوة والفكر وحسن السيرة . وقد كان في وسع الجيران من مجرد رؤيتهم البيت ان يدركوا بان ريتشارد جنتلمان لن يقوم قط بعمل دنيء قاس ! كانوا فخورين بالبيت فخار الاجراء الزراعيين بمنزل اسيادهم في اقطاعيات القرون الوسطى ورغم ان بعض الجيران كان اغنى من هوايتسايد فان احدا منهم لم يفكر ، في المقام الاول ، ببناء بيت مثله لمعرفتهم بانهم لن يتمكنوا من ذلك حتى وان جعلوه صورة طبق الاصل .

اصبح ريتشارد ، بفضل بيته ، الحـــكم في كل المنازعات البسيطة بين اهل الوادي ، فكان ان امده اعتماد الجيران عليه بشعور الابوة حيال الوادي ، وإذ تقدمت به السنوات خلص الى اعتبار جميع مشاكل الوادي كمشاكله ، وكان الناس فخورين بذلك .

وبعد مرور خمس سنوات قالت اليسيا ان حدسها يحدثها بانها قادرة على انجاب مولود جديد فما سمع ريتشارد بهذا حتى قال لها :

ـ سأستدعي الطبيب وهو الذي سيقرر اذا كان ذلك مأمونا .

ـ لا يا ريتشارد . ان الاطباء لا يعرفون كل شيء، فالمرأة تعرف عن نفسها اكثر من اي طبيب !

واطاعها ريتشارد خوفاً مما يقوله له الطبيب مبرراً الامر

بينه وبين نفسه قائلاً :

« ان في النساء ذرة من الالوهية فالطبيعة وضعت هـذه المعرفة لدى المرأة حتى يزداد النسل . »

مرت ستة شهور على حمل اليسيا قبل ان يدهمها المرض الشديد . وعندما استدعوا الطبيب كان غضبه شديدا بحيث انه رفض ان يكلم ريتشارد .

كان وقت الوضع ساعة رعب قاتلة فقد جلس ريتشارد في غرفة الجلوس وهو يقبض على ذراعي الكرسي ويستمع الى صرخات الالم الخافتة الآتية اليه من غرفة النوم وقد اصطبغ وجهه بلون الرماد الداكن . .

وتوقف الصراخ بعد ساعات طويلة انهكت ريتشارد فبقي في مكانه وقـد استولى عليه هول الحقيقة فلم يرفع نظره الى الطبيب عندما دخل الغرفة وقال متعباً :

ـ اخرج زجاجه الخمر حتى نشرب نخبك كأكبر مجنون !

ولم يرفع ريتشارد نظره كما انه لم يجب ، وحدجه الطبيب برهة بنظرة قاسية ثم قال بصوت اكثر لطفاً :

ـ لم تمت زوجتك والله وحده يعرف لماذا ؟ فقد مرت بما يكفي لابادة فرقة كاملة . ان لهؤلاء النساء الضعيفات حيوية العفاريت ! ولكن الطفل مات .

وشعر الطبيب انه يود معاقبة ريتشارد لاهمـاله اوامره الاولى فتابع كلامه :

ـ لم يبق من الطفل قطعة تقدر ان تدفنها !

وخرج من البيت فجأة فقد كره ان يشعر تجاه اي انسان بمثل هذا الاسف الذي ساوره نحو ريتشارد هوايتسايد .

واصبحت اليسيا مقعدة !

ليس بامكان جون الصغير تذكر الايام التي لم تكن امه فيها مقعدة فقد بقي طيلة حياته يتذكر والده ، وهو يحملها نازلا وصاعداً بها السلالم . ولم تكن اليسيا تتكلم كثيرا ولكن الابتسامة الحكيمة المبهمة كانت تزداد استقراراً في نظراتها . ورغم ضعفها فقد ادارت بيتها بمهارة فائقة فكانت الفتيـــات الريفيات الخشنات اللواتي يخدمن فيالبيت بدعوي اعداد انفسهن للزواج يأتين لتلقياوامرها قبل كل وجبة فكانت اليسيا تهيىء وتحضر من سريرها أو من مقعدها المزاز كل شيء .

كان ريتشارد يحملها في كل ليلة الى فراشهاوعندما تستلقي فوق وسادتها البيضاء كان يسحب كرسيا ويجلس فترة بالقرب من فراشها فيربت على راحتها برفق رتيب حتى يتغلب عليها النعاس . وكانت في كل ليلة تسأله :

ـ هل انت راض يا ريتشارد عن حياتك !

فيجيب « نعم » ويبدأ يسرد عليها اخبار المزرعة والوادي والاهالي مقدما نوعاً من التقرير عن اعمال يومه . واذ كان يتكلم كانت الابتسامة تكسو وجهها وتظل حتى يثقل النوم جفنيها فيطفىء النور . ولقد اصبح هذا الامر طقساً يمارسه كل مساء !

واقيمت حفلة كبيرة بمناسبة بلوغ جون العاشرة ، حضرها

جميع اطفال الوادي الذين جالوا في البيت على اطراف اقدامهم محدقين بالاشياء العظيمة التي سمعوا عنها. وكانت اليسيا جالسة في الشرفة فقالت لهم :

ـ لماذا هذا الهدوء ايها الاطفال ؟ هيا اركضوا والعبوا وامرحوا .

ولكن لم يكن بوسعهم الركض او الصراخ في بيت آل هوايتسايد تماما كعدم امكانهم الضجيج في الكنائس ولم يتمكنوا من احتمال هذا الضغط بعد ان طافوا بجميع غرف البيت فتوجهوا جميعاً الى الحظيرة حيث تعالت اصواتهم الحادة فوصلت الى الشرفة حيث جلست اليسيا مبتسمة .

وفي تلك الليلة عندما اوت الى فراشها سألت زوجها كعادتها:

ـ هل انت راض عن حياتك يا ريتشارد ؟

واجاب ووجهه ما زال يبرق سروراً من الحفلة « نعم » . فقالت :

ـ لا تهتم بشأن الاولاد ياريتشارد ... انتظر قليلا ويكون كل شيء على ما يرام . انتظر قليلا فما من حزن يقدر ان يتغلب على الوقت والزمن !

كانت هذه هي معرفتها الشاملة العظيمة وكان ريتشارد يعلم انها تفوق معرفته .

ومضت اليسيا تقول :

ـ لن يكون الانتظار طويلا !

ـ ما الذي ليس طويلا ؟

ـ فكر فقط ! فكر ان جون في العاشرة من عمره وبعد عشرة سنوات سيتزوج واذ ذاك . . . الا ترى ما سيحدث اذ ذاك ؟ ... علمه كل ما تعرف فالعائلة بامان يا ريتشارد .

ـ طبعـــاً اعرف ان البيت بامان . سأقرأ عليه كتب هيرودوتس يا اليسيا فقد كبر كفاية !

ـ اظن بان على « ميرتل » ان تنظف جميع غرف الضيوف غداً فقد مر عليها ثلاثة أشهر دون تهوية .

ظل جون هوايتسايد يذكر كيف قرأ عليه والده كتب المؤلفين العظام الثلاثة هيرودوتس وثوسيدايدس و كزينوفون . لقد اصبح غليونه الابيض محمر اللون داكناً من كثرة الاستعمال وكان ريتشارد يمسكه بيده وهو يقول :

ـ ان التاريخ بكامله يكمن هنا، فكل ما يتمكن الانسان من عمله مسجل في صفحات هذه الكتب . الحب والحيلة والغش المحيق باهله ، وقصر النظر والشجاعة ، النبل وحزن الانسان كلها هنا . يمكنك يا جون ان تحكم على مستقبل البشرية من هذه الكتب فما من شيء يمكن ان يحدث ، لم يحدث في يوم مضى ولم يدون في هذه الكتب ، واذا ما قارنا التوراة بهذه الاسفار نجدها سجلا ناقصاً لشعب غامض .

وكان جون يذكر ايضاً شعور والده نحو البيت وكيف انه رمز الاسرة ، بل معبد معد من اجلها .

كان جون في سنته الدراسية الاخيرة في جامعـــة هارفرد عندما توفي والده فجأة بذات الرئة فكتبت اليه امه تطلب منه

انهاء دروسه قبل ان يعود قائلة :

« لن تتمكن الآن من فعل أي شيء لم يتم فعـــله ولقد اوصى والدك بان تتم دراستك »

وعندما عاد اخيرا الى البيت وجد امه قد بلغت من الكبر عتياً فهي لا تقوي على ترك فراشها .

جلس جون قربها يستمع منها الى وصف ايام والده الاخيرة وهي تقول :

ـ طلب مني ان اقول لك شيئاً واحدا .. اجعلي جون يفهم ان عليه ان يستمر بنا . اود ان احيا في اجيال احفادي. واصيب والدك بالهذيان بعـــد ذلك لمدة يومين لم يتكلم خلالها الا عن الاولاد فقط فقد كان يسمعهم يصعدون ويهبطون الدرج ويشعر بهم يسحبون الغطاء من فوق فراشه فكان يريد ان يحتضنهم بذراعيه ياجون . وقبل النهاية بقليل فارقته احلامه هذه . كان سعيدا يا بني وهو يقول : « لقد رأيت المستقبل . سيكون هنالك عدد كبير من الاطفال في هذا البيت . اني راض تماماً يا اليسيا!»

كان جون يستمع اليها وقد وضع رأسه بين راحتيه وقالت له، هذه التي لم تقاوم شيئاً في حياتها بل سلمت جميع مشاكلها الى الزمن، قالت له بلهجة جافة صارخة وهي ترفع جسدها في فراشها:

ـ هيا تزوج . أريد ان اشهد زواجك . تزوج . اريدها امرأة قوية تقدر على انجاب الاطفـــال ، انني لم اتمكن من الانجاب بعدك . كنت أود لو انجبت طفلا آخرا ولو كان في

ذلك موتي . اسرع بايجاد زوجة فاني اريد ان اراها .

واستلقت مسترخية فوق وسائدها والتعاسة تملأ عينيها وقد فارقت وجهها ابتسامة العلم بالاشياء .

ومرت ست سنوات ولم يتزوج جون في هذه الاثناء وكبرت والدته وجفت اعضاؤها حتى اصبحت هيكلا مغطى بجلد ازرق يكاد يشف عما تحته . ولكنها بقيت متعلقة بالحياة ونظراتها المؤنبة تلاحق ابنها الذي كان يشعر بالخجل كلما نظر اليها .

واخيراً زاره زميل له من ايام الدراسة مع شقيقته ويللا وبقيا في ضيافة آل هوايتسايد شهراً تقدم جـــون في اواخره بطلب يد ويللا التي قبلت به زوجا . ولما اخبر والدته بذلك طلبت الاختلاء بالفتاة . وبعد نصف ساعة خرجت ويللا من غرفة العلية وقد تضرج وجهها بشدة فبادرها جون سائلا :

ـ ما الذي حصل يا عزيزتي ؟

ـ لا شيء ابداً . كل شيء على ما يرام لقد سألتني والدتك اسئلة عديدة ثم حدّقت بي بامعان وقتا طويلا .

فقال مبرراً :

ـ انها جد مسنة وقد شاخ عقلها .

وعندما دخل غرفة والدته كانت ابتسامتها الغامضة المليئة قد حلت مكان نظرتها المحمومة المقطبة وقالت له :

ـ كل شيء اصبح على ما يرام . بودي لو رأيت اطفالك ولكني لن اتمكن من ذلك فقد تعلقت بالحياة بقدر ما استطعت حتى كلت قواي وتعبت منها !

وكاد جون ان يرى ارادتها القوية المسيطرة على جسدها النحيل تنسل بعيداً مرخية قبضتها عنها . وفي تلك الليلة فقدت وعيها وبعد ثلاثة ايام فارقت الحياة بهدوء وسلام كما لو كانت تغط في نوم عميق .

لم تكن نظرة جون الى بيته كنظرة والده تماماً فقد كان يفوقه حباً اذ اعتبره الغلاف الخارجي لجسده ، وكما كان بوسع ذهنه ان يغادر جسده ليطوف بعيداً ، فقد كان بوسعه ان يغادر البيت ليعود اليه كما يفعل الذهن عندما ينتهي شروده . فكان يعيد طلاء البيت بالابيض مرة كل عامين ويقوم بنفسه على زرع الحديقة وتقليم اعشابها. ولكنه لم يحتل المكانة الكبرى التي كانت لوالده في الوادي فقد كان اقل عبوساً منه واقـــل تيقناً وجزماً بكل شيء واذا ما جوبه بمسألة ليحسمها برأيه كان اكثر ميـــلا الى تشعيب وجهتيها ومطهاً الى ما لا نهاية له ، اما الغليون الابيض فقد اصبح في عهده داكناً بل اسود تقريباً عند النقاط التي كانت حمراء .

كانت اليسيا هادئة منطوية على نفسها ومهيبة وقلما رآها سكان الوادي فان فعلوا كانت تجعلهم يشعرون ، رغم لطفها وكرمها وطيب معاملتها ومراعاتها لشعورهم ، بانهم كالفلاحين المأجورين الذين يزورون قصر السيد .

اما ويللا هوايتساير فقد احبت الوادي مذ رأته ، وكانت تهوى القيام بزيارة نساء اهل الوادي والجلوس معهن في مطابخهن وهن يشربن الشاي الثقيل ويثرثرن بامور بيوتهن ولقد برهنت

على جد متزايد في تبادل الوصفات. فكانت في كل زيارة تحمل دفتراً صغيراً تسجل فيه وصفات الاطعمة وسرعان ما امتلأ دفترها واصبحت المرجع الكبير في الطبخ . واصبحت جاراتها يناديتها باسمها الاول وكثيراً ما زرنها قبل الظهر لتناول الشاي معها في مطبخها .

ربما كان الفضل في تحول جون الى رجل اجتماعي اليف يعود اليها . لقد فقد السلطة التي كان والده يتمتع بها عن طريق ترفعه عن الناس وانزوائه اذ ان جون كان يحب جيرانه وكان في اصيل ايام الصيف القائظة يجلس على كرسيه في الشرفة ويستضيف كل الذين امكنه ان ينتزعهم من اعمالهم . وكان الجميع يلغطون بالسياسة وهم يحتسون شراب الليمون في الشرفة حيث تقرر سياسة الوادي وحياته الاجتماعية تقريراً يبعث على التسلية . كانت نظرة جون الى الحياة نظرة ساخرة اثرت كثيراً في ابعاد التعصب السياسي والديني عن الوادي ، ذلك التعصب الذي يسمم عادة اجواء المقاطعات الريفية. واذا احتدم النقاش بين الرجال حول مشكلة وطنية او مصيبة طارئة كان جون يقرأ لهم من كتبه الثلاثة مقاطع عن حالة العالم في القديم مشابهة للحالة التي يتدارسونها . فقد كان مثل والده تماماً يحترم ويحب تراث الاقدمين .

وكان يدعو يوم الاحد بعض الجيران والقس المتجول الى الغداء فتعمل النساء في المطبخ حتى الظهيرة ثم يجلسون الى الطعام في جو ودي متسامح كان القس يشعر فيه بان لهيب

مهمته يخبو منه .

كان جون يتمتع تمتعاً عميقاً بكل هذه الامور غير ان غرفة الجلوس بقيت محور حياته . فقد كانت مقاعدها المريحة قطعاً منه وعلى جدرانها علقت اللوحات التي ترعرع بينها ومنها صور منقوشة على الفولاذ للغزلان ولمتسلقي جبال الالب والماعز الجبلي ، لقد ارتبطت هذه اللوحات ارتباطاً وثيقاً بحياته بحيث لم يعد يراها ولكن اذا ما قدر له ان يفقد احدها فلن يكون الم فقدانها بأقل من الم بتر عضو من اعضاء جسمه .

ومع كل مساء يبلغ سروره الذروة فالنار دوماً مشتعلة في المدفأة ، وهو يجلس في كرسيه المريح يداعب غليونه وبين الفترة والاخرى كان يمرر مستودع التبغ في الغليون على طول انفه وذلك كيا يزيته ، وكان يقرأ كتبه الزراعية المفضلة بينما تجلس ويللا بالقرب من النور وهي تزم فمها وهي تطرز فوطاً صغيرة لتهديها الى اقاربها الذين اهدوها فوطاً مماثلة . ويغلق جون كتابه ويتجه الى مكتبه ليستعصي عليه فتحه كالعادة ثم يرفع الغطاء فجأة بضجة وينفرج فم ويللا وتزايل وجهها لمحة العناء الشديد الذي تكسوه حينما تنهمك في عمل يتطلب الدقة .

ـ ما الذي تحاول عمله الآن ؟

ـ آه ، اني اود مراجعة بعض الامور .

ويختفي خلف مكتبه ساعة يقول اثرها .

ـ استمعي الى هذه يا ويللا !

وتبتسم ويللا وهي تقول :

ـ عرفت ذلك ... بعض الشعر !

ويقرأ لها شعره وينتظر مشفقا ، وتصمت مراعاة لشعوره ويطول صمتها فتقول :

ـ لا اظنه شعراً ممتازا !

ويضحك بحسرة قائلا :

ـ لا .. ليس ممتازا .

ويكور الاوراق فيقذف بها الى النار قائلا :

ـ خلت ، لفترة ، انه سيكون شعراً جيدا .

ـ ما الذي كنت تقرأ ؟

ـ كنت اطالع شعر فرجيل وفكرت بان اقوم بمحاولة شعرية لاني لم اشأ...اعني انه يكاد من العسير ان يرى الانسان عملا عظيماً دون ان يحاول القيام بعمل مثله ...

ويغلق مكتبه ثم ينتقي كتابا جديدا يعود به الى كرسيه.

كان عالمه ضمن غرفة الجلوس هذه . كان يشعر بالسعادة والكمال والاكتفاء الذاتي حيث تتجمع كل ذرة في روحه وجسده مؤلفة وحدة كاملة واضحة الحدود والمعالم .

تمتد حياة الناس ، عادة ، في خط بياني منحن متكسر... فهناك ارتفاع الطموح وذروة النضوح وهبوط الخيبة ثم فترة ركود بانتظار الموت . ولكن حياة جون هوايتسايد امتدت في خط مستقيم . لم يكن جون طموحاً . ومزرعته لم تقدم له حياة رغيدة فقط بل اعطته مدخولا مكنه من استئجار عمال يقومون بالعمل نيابة عنه. ولم يكن يرغب في شيء لا يملكه او لا

تخوله امكانياته المادية امتلاكه بسهولة فكان من هؤلاء القلائل الذين يمكنهم التمتع باللحظة التي يعيشون فيها . وعرف جون انه يعيش حياة طيبة ، حياة فريدة بطبيعتها .

امر واحد كان يفتقد اليه فانه لم ينجب اطفالا وكان حنينه الى انجاب الاطفال يماثل حنين والده. ولم تنجب له ويللا اطفالا رغم رغبتها المماثلة لرغبته . وكان الموضوع يربكهما فلم يبحثاه ابـــدا .

وبعد مرور ثمانية اعوام على زواجهما حملت ويللا - ربما بصدفة الهية او كيمائية- ومرت في حملها عبر فترة طبيعية خلت من الالم ووضعت وليدا سليما .

ولم تتكرر المعجزة ولكن جون وويللا شعرا بشبه امتنان ورع للحادث . واستفاقت في جون تلك الرغبة القوية في تخليد الذات ، تلك الرغبة التي كانت شبه هاجعة فيه ، فلقد حوله شعوره بمسؤليته حيال الاجيال القادمة الى سيد للمزرعة فرمى بالبذار الى اعماق الارض منتظرا نمو الزرع الاخضر !

لم تتغير ويللا كما فعل زوجها بل اعتبرت ولادة الطفـــل ويليام كحدث طبيعي ودعته بيل رافضة تأليهه بينما كان جون الوحيد الذي رأى صورة والده في الطفـــل حتى انه سأل زوجته يوما :

- اتظنينه فهيما ؟ انك تقضين معه من الوقت اكثر مما اقضي فهل تظنينه على شيء من الذكاء ؟

- بين بين . انه ولد عادي !

فقال بفروغ صبر :

ـ انه يبدو كمن ينمو ببطء. حبذا لو يأتي اليوم الذي يبدأ فيه بفهم ما يدور حوله !

وفي عيد ميلاد بيل العاشر فتح جون كتاب هيردوتس السميك وجعل يقرأ على ابنه وجلس بيل على الارض والفراغ يملأ نظره المحدق بابيه .

وجعل جون يقرأ عدة صفحات لابنه مساء وبعد اسبوع تقريبا نزع عينيه عن صفحات الكتاب ذات ليلة ورأى ويللا تضحك منه فسألها :

ـ ما خطبك ؟

ـ انظر ما يجري تحت كرسيك ؟

وانحنى جون فرأى ان بيل قد بنى بيتاً من اعواد الكبريت وكان مستغرقاً في لعبه فلم يشعر بتوقف القراءة. فسألها جون :

ـ الم يكن يصغي اطلاقاً ؟

ـ لم يستمع الى كلمة منذ الليلة الاولى عندما فقد اهتمامه بما يسمع منذ الفقرة الثانية .

واغلق جون الكتاب واعاده الى مكانه ثم قال محاولا اخفاء الم الصدمة :

ـ ربما لا يزال صغيرا، سأنتظر عاماً آخر ثم اعيد المحاولة .

ـ لن يعجبه الامر يا جون فهو ليس مثلك او مثل والدك .

وسأل يائساً .

ـ ما الذي يستهويه اذن ؟

ـ الاشياء التي تستهوي باقي اطفال الوادي مثل البنادق والخيل والبقر والكلاب . لقـــد افلت منك ولا اظن بانك تستطيع ان تمسك به يوماً .

ـ اخبريني الحقيقة يا ويللا . هل هو ... معتوه ؟

ـ لا . . انه ليس معتوها . انه يبدو احياناً اكثر ذكاء وواقعية منك ولكنه ليس من نوعك ومن الافضل ان تعرف الامر الآن من ان تكتشفه فيما بعد .

وشعر جون ان اهتمامه بالارض يتسرب منه . ان المزرعة بامان فسيزرعها يوما . والبيت في امان فبيل ايضاً ليس معتوهاً وقد اظهر ، منذ البداية ، ميلا الى الاعمال الميكانيكية ومهارة فيها وطلب كهدايا لعيد الميلاد قطارات بخارية .

ولحظ جون مزية اخرى في الطفل غريبة عن طباع عائلة هرايتسايد .لم يكن بيل كتوماً فقط ولكنه كان يتمتع بحس عملي تجاري فقد كان يبيع اغراضه الى باقي الاولاد فاذا ملوا منها بعد مدة عاد فاشتراها منهم بسعر بخس وكانت خرجياته تتضاعف بين يديه بطرق غامضة .

ومرت مدة قبل ان صارح نفسه بانه لن يتمكن من التفاهم مع ابنه فعندما اهداه عجلا صغيرا قايض عليه بعدد من صغار الخنازير التي رباها وباعها ولقد ضحك جون على نفسه وابلغ زوجته :

ـ حتما انه اكثر مني ذكاء فعندما اعطاني والدي عجـــلا

صغيرا ربيته حتى مات من الهرم . ان بيل يشبه القراصنة وربما تحلى اولاده بمزايا اسرتنا ، فدمنا قوي ، على انني اود لو لم يكن كتوماً في كل اموره .

وعاد جون الى كرسيه المريح وغليونه الداكن وكتبه الممتعة التي استرجعته من المزرعة ، كما عاد اهالي الوادي الى الاجتماع في بيته ، فانتخبوه امين سر مجلس ادارة المدرسة . وبدأ المشيب يقتحم رأسه وازداد نفوذه مع تقدمه في السن .

وكان منزل آل هوايتسايد من متممات شخصية جون ومقوماتها فاذا ماحاول سكان الوادي التفكير بجون لم يفكروا به كرجل فرد في حقله او عربته او مخزنه فقد كانت هذه الصورة تظل ناقصة مشوهة ما لم تتضمن بيته وهو في كرسيه المريح ينظر بحنان الى كتبه السميكة او يجلس باسترخاء في شرفته يتنسم عبير زهور حديقته او جالساً على رأس مائدته يقطع اللحم بمهارة وعناية .

قليلة هي البيوت القديمة في غربي اميركا ونادرة هي التي عاش فيها جيل بعد جيل من عائلة واحدة لذا فقد كانوا ينظرون اليها بنوع من الاحترام الممزوج بالحنق ، فالاميركي عادة قلما يستقر في مكان . انه يبني بيتاً بسيطاً سرعان ما ينطلق منه الى بيوت جديدة وآفاق اوسع . فكانت البيوت القديمة قليلة جامدة وكئيبة .

لم يمض وقت طويل على انتقال بيرت مونرو الى الوادي ، حتى عرف اهمية المركز الذي يتمتع به جون هوايتسايد

وسرعان ما انضم الى حلقة الرجال المتشمة في بيت آل هوايتسايد جيرانه ، فانتخب عضوا في مجلس ادارة المجلس واصبح على صلة رسمية بجون . وفي احد اجتماعات المجلس ذات ليلة استشهد جون باقوال توسيدايدس فانتظر بيرت حتى انفض عقد الاجتماع وتفرق الرجال واقترب من جون قائلا :

ـ هل لي يا سيد هوايتسايد ان اسألك عن الكتاب الذي ذكرت الليلة ؟

وأمسك جون الكتاب قائلا :

ـ اتعني كتاب حروب البلوبونيز ؟

ـ اود لو اعرتني اياه لاقرأه .

وتردد جون برهة ثم قال :

ـ طبعاً . . خذه معك . انه من كتب والدي واظن بانك تود قراءة غيره عندما تنتهي منه .

قامت رابطة وطيدة من الالفة بين الاسرتين اثر هـــذا الحادث فتبادلتا الولائم وارتفعت الكلفة بينهما حتى ان بيرت لم يجد حرجاً في استعارة بعض الادوات من جون .

كان قد مر اكثر من عام ونصف على استيطان آل مونرو في الوادي عندما دخل بيل مساء ذات يوم غرفة الجلوس وجابه ابويه بشيء من الفظاظة وهو في غمرة من العصبية :

ـ لقد قررت الزواج .

قال ذلك كمن يلقي بخبر سيء .

وصرخ جون :

ـ ما هذا ؟ لم لم تخبرنا قبلا ؟ ومن هي الفتاة ؟
ـ ماي مونرو .
وفجأة ادرك جون ان الخبر سار وانه ليس اعترافاً بجريمة فقال فورا :
ـ آه . . هذا مسر حتما وانا جد مسرور . انها فتاة رائعة اليس كذلك يا ويللا ؟
ولكن ويللا تجنبت نظراته فقد كانت في زيارة آل مونرو ذلك الصباح ولكنها قالت لابنهـــا المنتصب في وسط الغرفة بلهجة شبه عدائية كما خيل لجون :
ـ متى يكون الزواج ؟
ـ قريباً حالما ننتهي من اعداد البيت في مونتيري .
ووقف جون واشعل غليونه ثم عاد الى كرسيه قائلا :
ـ لقد كتمت الامر عنا فلم لم تخبرنا ؟
واستطرد لما طال صمت بيل :
ـ تقول انك ستعيش في مونتيري فهل يعني هذا انك لن تأتي بزوجتك لتعيش هنا ؟ الن تسكن في هذا البيت وتعنى بهذه المزرعة ؟
وهز بيل رأسه فقال جون :
ـ ايخجلك شيء ما هنا يا بيل ؟
ـ كلا يا سيدي . ليس هنالك ما يخجلني ولكني لم احب يوماً التحدث عن اموري الخاصة .
وتساءل ابوه بمرارة :

ـ ولكن الا تظن الامر يعنينا قليلا نحن ايضاً ؟ انك من اسرتنا واولادك سيكونون احفادنا . .

وقاطعه بيل قائلا :

ـ لقد ربيت ماي في المدينة وكل اصدقائها يعيشون في مونتيري ـ انهم الاصدقاء الذين زاملتهم في المدرسة ـ انها لا تحب الوادي وحياته الرتيبة الحالية .

ـ آه . . فهمت ما تعني .

ـ ولذلك عندما سمعت منها انها ترغب في سكنى المدينة دخلت شريكا في وكالة لبيع سيارات فورد ، فانني كنت دوماً اتوق الى حياة الاعمال .

وهز جون رأسه بعد ان اخذ غضبه يفارقه وقال :

ـ الا تظن انها قد توافق على سكنى هـــذا البيت يا بيل فغرفه كثيرة وواسعة وبامكاننا تجديد أي طرف منه تريد تغييره .

ـ ولكنها لا تحب سكنى الريف وكل اصدقائها يقطنون مونتيري .

وقالت ويللا لابنها بلهجة آمرة حازمة :

ـ انظر الى والدك يا بيل !

ورفع جون رأسه وابتسم بجد قائلا :

ـ اظن الامر سيسوى حسب رغبتـــك يا بني فهل لديك المال الكافي ؟

ـ طبعاً لدي المال الكثير . اسمع يا والدي فاننا نبني بيتاً

كبيرا ، بيتاً كبيرا بالنسبة لاثنين . لقد بحثنا الامر وظننا انك ربما اردت العيش معنا انت وامي .

واستمرت الابتسامة على وجه جون وهو يقول :

ـ ما الذي سيؤول اليه امر هذا البيت والمزرعة ؟

ـ لقد تحدثنا في هذا ايضاً فبامكانك بيع المزرعة والعيش في المدينة من ريع مالها . بوسعي ان ادبر امر بيعها خلال اسبوع واحد .

وتنهد جون وهو يسترخي في كرسيه فقالت ويللا :

ـ لو عرفت بانك ستصرخ يا بيل لكنت ضربتك بالعصا .

واشعل جون غليونه ثم قال بسرعة :

ـ لن تستطيع البقاء بعيدا عن البيت مدة طويلة . ستصاب ذات يوم بحنين جامح لن تقدر على كبته ، فهذا المكان في دمك ، وعندما سترزق اولادا ستعرف بانهم لن يستطيعوا ان يحيوا الا فيه . بوسعك الاغتراب فترة ولكنك لن تستطيع ان تبقى بعيدا عنه اننا سننتظر هنا وسنعتني بالبيت فندهنه ونشذب حديقتـــه فانك ستعود ، وسيلعب اولادك في مبنى خزان المياه ، وسننتظر ذلك اليوم . كدت انسى ان والدي مات وهو يحلم بالاطفال .

وتمتمت ويللا :

ـ بامكاني ان اقرعه بالعصا .

ولما غادر بيل الغرفة مرتبكا ردد جون بعد ذهابه :

ـ سيعود .

ووافقت زوجته بتجهم :
ـ طبعاً سيعود .
وانتفض جون وهو يرفع رأسه ناظرا اليها بريبه قائلا :
ـ احقاً تظنين ذلك يا ويللا ؟ ام انك تقولينه لمجاملتي ؟ ان هذه المجاملة تشعرني بانني هرمت .
ـ طبعاً اني اعني ذلك والا لما كنت اضيع مجهود التكلم عبثاً .

وفي اواخر ذلك الصيف تزوج بيل وانتقل الى بيته في مونتيري . وشعر جون ، اثناء الخريف ، بنفس القلق الذي شعر به قبل مولد بيل فطلا المنزل رغم انه لم يكن يحتاج كثيرا للطلاء ونسق الحديقـــة ورتبها . وقال مرة لصديقه بيرت مونرو :
ـ ان الارض لا تنتج كفاية فقد اهملتها مدة طويلة وكان بوسعي استغلالها اكثر مما افعل .
ـ نعم ، فليس فينا واحد يستغل كافة امكانيـــات ارضه وكثيرا ما تساءلت لماذا لا تقتني قطيع غنم اذ يبدو لي ان هضابك تستطيع ان تعيل قدرا كبيرا من الماشية .
ـ كان لدينا ، قطيع في ايام والدي . ولكني ، كما كنت اخبرك سابقاً ، اهملت الارض فتكاثف العشب فيها .
ـ احرق هذه الاعشاب الآن فيكون لديك اخصب مرعى

في الربيع القادم .

ـ انها فكرة رائعة مع ان العشب يمتد قريباً جدا من المنزل . وعلى كل يلزمني معونة عدد كبير من الرجال .

ـ سأساعدك وسأجلب معي جيمي فنصبح معك ومع اجيريك خمسة . يجب ان ننتظر المطر اولا وان نقوم بعملنا صباحاً قبل هبوب الريح وهكذا لا يمكن لاي خطر ان يتهددنا اذ ذاك .

حل فصل الخريف مبكرا في ذلك العام فما جاء تشرين الاول « اكتوبر » حتى اصفرت كاللهب اوراق الصفصاف المجاورة لجداول حقول الفردوس واخذت اسراب البط تمخر السماء على علو شاهق متجهة جنوبا . . بينما كان البط الاليف في المزرعة يرفرف باجنحته ويمط باعنـــاقه ويطلق نقيق الحنين بينما كانت اسراب الزرازير تحوم فوق الحقول . اما الجو فقد تلبد بصقيع مبكر .

كان جون يتبرم من الشتاء وكان يقضي يومه في الحديقة يشارك العمال في تشذيب الاشجار .

واستفاق ذات ليلة على صوت المطر الخفيف المنهمر خارج البيت فقال بهدوء :

ـ هل انت مستيقظة يا ويللا ؟

ـ طبعا .

ـ هذه باكورة امطار الموسم فاستمعي اليها .

فقالت بلطف :

ـ كنت مستيقظة عندما بدأ المطر ينهمر وقد أضعت على نفسك القسم الافضل اعني القسم العاصف فقد كنت تشخر بنومك .

ـ لن يطول انهماره فهذه البواكير تهطل لازالة التراب فقط.

اشرقت الشمس في صباح اليوم التالي وقد بدا كل شيء يلمع في اشعتها بعد ان غسلته مياه الامطار . وعندما خلد بيرت مونرو بصحبة جيمي الى مطبخ آل هوايتسايد كان هؤلاء قد انتهوا من طعام الافطار فقال بيرت :

ـ صباح الخير يا سيدتي صباح الخير يا جون اظن الوقت ملائماً لحرق الاعشاب فامطار البارحة كانت حلوة .

ـ فكرة طيبة . ولكن اجلس قليلا وتناول قدحاً من القهوة .

ـ لقد انتهيت لتوي من الفطور وليس بامكاني تناول أي شيء الآن .

ـ وانت يا جيمي ؟ الك في قدح من القهوة ؟

ـ لن اقوى على ابتلاع أي شيء .

ـ هلم اذن قبل ان ييبس العشب .

ونزل جون الى القبو فأخرج منه تنكة كاز فلما عاد الاجيران من الحديقة وزع جون على الجميع اكياساً مبتلة .

قال بيرت :

ـ انه الوقت الملائم فليس هنـــالك من ريح . لنبدأ هنا يا جون فنقف بين النار والبيت حتى نحرق القطعة المحيطة بالمنزل

فلا يصح ان نعرضه للخطر .

ودفع جون بالمشعل الى الاعشـاب السميكة التي بدأت بالاشتعال وهي تطقطق وتتكسر بضراوة وقد علا لهيب النيران والرجال خلفها يطفئون رمادها ببطء باكياسهم المبللة وهي تتجه نحو التل حتى صرخ بيرت قائلا :

ـ لقد ابتعدنا كفاية عن المنزل الآن واظن انه يجدر ببعضنا الصعود الى رأس التلة لاشعال النار هناك .

وبدأ الصعود برفقة جيمي . واذذاك هبت زوبعة خريفية هابطة منحدر التلة متجهة متراقصة متغانجة نحو النار فحملت معها بعض شرر النيران الى المنزل وفجأة تقوض الاعصار كانما تعب من اللعب فعـاد جيمي وبيرت ركضاً الى رفاقهما وداروا جميعهم حول البيت فأطفأوا كل شرارة او جمرة وقال جون :

ـ من حسن حظنا اننا رأينا هذه الزوبعة الصغيرة فبامكان مثل هذه الاشياء التافهة ان تحرق البيت .

وعاد بيرت وجيمي الى قمة التلة واشعلا فيها النار بينما تبع جون مع مساعديه النار المبتعدة عن البيت صعودا نحو التل . كان الجو متلبدا وقد ازرق لونه بالدخان . وفي ربع ساعة كان المرعى قد احترق بكليته تقريباً .

وفجأة علت من البيت صرخة حادة وكان دخان الاعشاب المحروقة يكاد يحجب المنزل عن الرجال الخمسة الذين سارعوا بالعودة راكضين ورأوا من خلال الدخان وقد خفت كثافته، الدخان يتصاعد من احدى نوافذ البيت العليا وويلا تركض

بانجاههم على الارض المحترقة .

ووقف جون عندما وصل اليها فصرخت :

ـ سمعت صوتاً في القبو ولما فتحت بابه هجمت النار منه الى كل ارجاء البيت .

ووصل اذذاك بيرت وجيمي فصرخ الاول :

ـ هل توجد خراطيم المياه في غرفة الخزان ؟

وازاح جون نظره العالق بالبيت المحترق وقال بتردد :

ـ لست ادري .

فسحبه بيرت من ذراعه قائلا :

ـ هيا بنا . ما الذي تنتظر يا رجل ؟ هيا بنا فبوسعنا انقاذ بعض الاثاث .

وخلص جون ذراعه من قبضة بيرت فمشى نحو البيت وهو يقول :

ـ لا اود انقاذ اي شيء منه .

فصرخ بيرت وهو يركض نحو الخزان بحثاً عن نوابيع المياه :

ـ انت مجنون .

كانت ألسنة الدخان والنـــار تندلع من النوافذ وتعالى هدير الاحتراق من داخل المنزل القديم الذي كان يناضل في سبيل حياته ومشى احد الاجيرين وجاور جون قائلا :

ـ لو كانت النافذة مقفلة لكان لنا بعض الامل على ان هذا البيت بالغ الجفاف يراوحه تيار كتيار المدفأة .

وأتت ويللا فنظرت اليه ثم وقفت قربه بهـــدوء . بدا

الدخان يندلع من جدران البيت الخارجية بينما سار جون نحو كوخه الحطبي وجلس على صندوق النشارة .

كان المنزل يزمجر بهدير ريح عاصف . وحدث شيء غريب رهيب فقد تهدم الحائط الجانبي وهبط الى الخارج فبدت على ارتفاع ١٢ قدماً من الارض ، غرفة الجلوس ، والنار لم تمسها بعد ، وفيما هم ينظرون الى ألسنة اللهيب الطويلة وهي تندفع الى الغرفة ارتجفت الكراسي الجلدية من الحرارة كما لو كانت مخلوقات حية ، وتقلصت وتكسر زجاج الصور وظهر الفليون بوضوح فوق المدفأة ثم حجب اللهيب الغرفة وتهـــدم السقف البلاطي الثقيل فهدم الجدران بوطأته بينما تحول البيت الى «قبولة» كبرى عديمة الشكل من النار .

وعاد بيرت فوقف قرب جون باستسلام قائلا :

ـ كان هذا من الاعصار ولا بد ان شرارة قد انحدرت الى القبو واشعلت الكاز الموجود فيه .

ونظر اليه جون بنظرة من السخرية المذعورة وقال :

ـ نعم يا سيدي ، لا بد ان يكون الكاز قد اشتعل .

اخذت النار تشتعل دون عائق بعد ان احرزت نصرها بينما ارتفعت السنة اللهيب الى اعالي الفضاء ولم يعد مـــا تأكله يشبه البيت اطلاقاً . ووقف جون محدقاً برهة في النار المتصاعدة ثم انتصب بوقفته متنهدا وهو يرنو الى حيث كانت غرفـــة الجلوس وقال :

ـ لقد انتهى الامر . واعتقد بانني اعرف الآن شعور

الروح وهي ترى جسدها يدفن في الارض ويغيب في بطن الثرى .
دعنا نذهب الى بيتك يا بيوت فاني اود مخابرة بيل هاتفياً فقد
يكون لديه غرفة لنا .

ـ لم لا تبقى معنا ؟ لدينا الكثير من الغرف .

ـ لا . . سنذهب الى بيل .

والتفت ثانية الى الانقاض المشتعلة فاقتربت منه ويللا مادة
يدها لتمسك بذراعه ولكنها عادت فسحبتها قبل ان تمسه ،
ورأى جون حركتها هذه فقال :

ـ بودي لو كنت استطعت ان انقذ غليوني .

وقال بيوت بعاطفة فياضة :

ـ نعم يا سيدي فقد كان احسن غليون رأته عيناي . ان
هناك غلايين في المتحف ولكنها ليست احسن منه تلويناً .
ولكن ليس هنالك ما يماثله فلا بد انه استعمل زمناً طويلا بالتدخين .

ووافق جون قائلا :

ـ نعم .. لقد مضى عليه عهد قديم وهو يستخدم للتدخين ..
ثم اتعلم انه كان كذلك ذا مذاق طيب .

في الساعة الثانية من بعد الظهر غادرت سيارة السياحة محطتها في مونتيري للقيام بجولة في انحاء شبه الجزيرة . واذ كانت السيارة تعبر طرقات هذه الرحلة المنظمة التي تنطوي على مسير ١٧ ميلا كان المسافرون يطلون منها متفرجين على البيوت الضخمة المشرفة التي يملكها اثرياء الناس . وشعر المسافرون ببعض الخجل وهم يتطلعون عبر النوافذ المغبرة شعروا كما لو كانوا متلصصين ـ ولكن من درجة ممتازة .



كانت السيارة تزحف عبر طرقات مدينة « كرمل » وفوق التل متجهة الى دير ارسالية كارميلو بلونه الاغبر وقبته المائلة فلما وصلت اليه انحرف بها سائقها الشاب الى جانب الطريق حيث اوقفها ودلى قدميه الى رفرافها بينما كان الدليل يقود المسافرين الى الكنيسة القديمة المعتمة .

وعندما رجعوا الى مقاعدهم في السيارة كانت بعض الحواجز التي تفصل عادة بين المسافرين قد انهارت فقال الرجل المترف :

ـ هل سمعتم ما قاله الدليل ؟ ان الكنيسة مبنية كالسفينة تماماً بقاعدة صخرية ومرساة غائصة في اعماق الارض تحت البناء ومفعولها اثناء الزلازل كمفعول للسفينة في العواصف . . . ولكنها مع ذلك لا تجدي .

ورد من الوراء كاهن شاب ذو وجه متورد نظيف فخور بثوبه الكهنوتي الجديد :

ـ بل لقد اجدت نفعاً فقد حدثت عدة زلازل وبناء الارسالية لا يزال باقياً في مكانه رغم انه مبني من الطوب فقط !

واشترك في الحديث رجل من قوي البنية ، متلهف العينين وقال باسماً :

ـ كثيراً ما تحدث اشياء مضحكة غريبة ، توفيت زوجتي خلال العام الماضي بعد ان مر على زواجنا اكثر من خمسين عاماً .

ونظر حوله مبتسماً بانتظار تعليق على حديثه ناسياً الاشياء الغريبة المضحكة التي تحدث احياناً .

وكان يجلس في السيارة عروسان يقضيان شهر العسل وقد تشابكت ايديهما فشدت العروس على ذراع عريسها قائلة :

ـ اسأل السائق الى اين نحن ذاهبون الآن ؟

واستمرت السيارة في سيرها البطيء متسلقة وادي الكرمل فتخطت البساتين وحقول الارضي شوكي وقمة صخرية حمراء تسلقتها الحشائش الخضراء .

كان الاصيل قد بدأ يحتضر فقد انحدرت الشمس الى مدخل الوادي المطل على البحر وبدأ الطريق يبتعد عن نهر الكرمل متسلقاً سفوح التلال حتى وصل الى قمة ضيقة حيث اوقف السائق السيارة ودار بها الى جانب الطريق فاطفأ محركها ثم التفت الى المسافرين قائلا :

ـ هذه هي آخر نقطة نصلها فلربما كان بينكم من يود النزول والتنزه قليلا بينما امدد قدمي كما افعل عادة .

وترك المسافرون مقاعدهم ووقفوا فوق القمة الصغيرة يتأملون حقول الفردوس. كان الجو مغلفاً باشعة شمس المغيب كغلالة ذهبيـــة تلف المنظر امامهم فوق ارض الوادي المقسمة الى مربعات من البساتين الخضراء وحقول الذرة الصفراء والارض المفلوحـــة البنفسجية ، وكان يتصاعـــد من البيوت المتينة المحاطة بالحدائق دخان نيران المساء يحملها النسيم بعيداً عن سماء الوادي . وتعالت اصوات الاجراس المعلقة باعناق البقر وهي ترعى في الوادي ، ومن بعيد وصل اليهم نباح كلب وكأنه همسات صغيرة متقطعة وتجمع تحت القمة التي يقفون عليهاقطيع

غنم قرب شجرة سنديان باسقة ، وقال السائق لهم :

ـ يدعى هذا المكان باستوراس ديل شيلو وهو شهير بزراعة الخضراوات والفواكه فهي تنضج هنا ابكر من اي مكان آخر. اما معنى الاسم فهو حقول الفردوس .

وتأمل المسافرون الوادي امامهم فتنحنح الرجل الناحل وقال بصوت تملؤه رنة التنبوء :

ـ اذا ما صدق حدسي فستشاد في هذا الوادي بيوت كبيرة مبنية بالحجارة لها ابواب حديدية كبيرة مزخرفة وتحيط بها الحدائق الغناء وستملأ ملاعب الغولف هذا الوادي . سيأتيه رجال اغنياء ليعيشوا فيه . رجال اتعبهم العمل في المدينة ، رجال جمعوا الكثير من المال فباتوا ينشدون مكانا هادئاً ليستقروا فيه ويستريحوا وليتمتعوا بالحياة . لو كان لدي المال الكافي لاشتريت هذا المكان ولاحتفظت به مدة ثم قسمته قطعاً للبيع .

وسكت قليلا ثم لوح بيده تلويحة شملت المكان واستطرد:

ـ اي نعم . . . ولكنت عشت فيه ايضا .

ولكزته زوجته وهي تقول :

ـ هس ! .

فالتفت حوله وشعور الاثم يملأ نفسه فلم يجد احداً يستمع اليــــه .

كان ظل التلال الارجواني يزحف وسط الوادي ومن الاسفل علت صرخة خنزير غاضب فرفع الشاب نظره مـــن

الوادي وتطلع الى عروسه بنظرة معبرة وابتسم فابتسمت له ابتسامة تأنيب ، كانت ابتسامته تقول:

« اكاد اترك نفسي تفكر باحتمال الامر . . سيكون جميلا لو تحقق . . . ولكني طبعاً لا اقدر ان احققه . »

واجابت ابتسامتها :

« طبعاً لا يمكنك ذلك فطموحك هو ما يجب ان تفكر فيه وكل الاصدقاء يرجون الكثير منا . لك شهرة يجب ان تسعى وراءها وتحققها حتى اكون فخورة بك . لا . . لا يمكنك التهرب من المسؤولية للاختفاء في مكان كهذا رغم انه قد يكون جميلا لو تحقق ما يراودك ! »

وانحسرت البسمتان بحنان واستقرت في اعينهما !

وتمشى الكاهن وحيداً وهو يردد صلاته . ولكن الدربة قد علمته ان يصلي وان يفكر باشياء اخرى في آن واحد فجعل يحدث نفسه :

« قد تكون هنالك كنيسة صغيرة. هنا حيث لا فقر ولا روائح مكروبة او اضطرابات.وقد يعترف رعيتي بخطايا عرضية بسيطة يكفي للتحلل منها ترديد صلاة « السلام عليك يا مريم » مرات قليلة . . انه مكان يعمه الهدوء ولن يكون مسرحاً للقذارات واعمال العنف التي تؤلمني وتدفعني الى الشك او الخجل . سيحبني سكان هذه البيوت وسينادونني يا ابتِ وسأكون محققاً بينهم . »

وقطب الكاهن جبينه وهو يبعد عنه هذه الافكار قائلا : .

« لست كاهناً صالحاً ! سأكفر عن هذا العمل بين الفقراء وسط رائحتهم وضمن نزاعاتهم . لا يمكنني التهرب من المآسي التي يقدرها الله . . .

وابتسم وهو يتابع تفكيره :

« ولكني قد اجيء الى مكان كهذا بعد موتي ! »

حدق الرجل المسن بنظراته النافذة في الوادي . وجاش الصمت في اذنيه الصماوين كنسمة تهب عبر شجرة سرو . لم يكن يرى التلال البعيدة بوضوح ولكنه كان يرى الاشعة الذهبية والظلال الارجوانية ، فانبهرت انفاسه وتألقت الدموع في عينيه فضرب جبينه براحتيه بحركة استسلام وهو يحدث نفسه :

« لم يتح لي ابداً وقت للتفكير . كنت دوما منهمكاً بالمشاكل فلم افكر ابدا . . . لو نزلت الى هذا الوادي ، ولو عشت فيه فترة من الزمن لفكرت بكل الاشياء التي حدثت لي ولربما تمكنت من جمعها قطعة واحدة تحمل بين طياتها معنى وهدفاً بدلا من ان تبقى تتجرجر هكذا تجرجراً عميقا .. لن يكون هنالك من شيء يزعجني ويبعدني عن التفكير ! »

ورمى السائق سيكارته وداسها بقدمه وهو يقول :

ـ هلموا يا جماعة فعلينا ان نبدأ العودة !

وساعدهم على الصعود الى السيارة واغلق ابوابها بينما تجمعوا قرب النوافذ ينظرون الى حقول الفردوس حيث كان الهواء فوقها تراوحه الزرقة كالبحيرة الصافية والهدوء يغمر المزارع .

وتابع السائق حديثه :

ـ الدرون بانني افكر دوما كم يكون الامر جميلا لو ملك الانسان قطعة صغيرة في هذا المكان حيث يستطيع ان يربي بقرة، وعدة خنازير و كلباً او اثنين فبامكان الانسان ان يحصل ما يقوم بأوده في مزرعة صغيرة .

وادار محرك السيارة فعلا هديرها ثم خفت قليلا وقال قبل ان تبدأ انحدارها :

ـ قد تظنون هذا سخيفاً ولكنني ، في كل مرة ، احب ان انظر الى اسفل الوادي وافكر كم يكون الامر هادئاً ومريحاً بالنسبة للرجل الذي يتمكن من العيش في مكان صغير .

ثم ارخى الفرامل فسارت السيارة متسارعة منحدرة الى وادي الكرمل الطويل ونحو الشمس التي كانت تغيب خلف الاوقيانوس عند مدخل الوادي . . .

صمم الغـــلاف

الفنان اسماعيل شموط

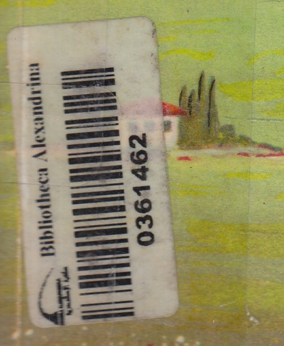
ف . ب . (١١) - ١٩٥٨

دار العباد

للطباعة والنشر

شارع بشارة الخوري - بناية القاع - تلفون ٢٦٩٨١٤

بيروت - لبنان





الثمن ثلاث ليرات لبنانية